قيمة الفلسفة الماركسية

من خلال رؤية إسلامية

الكتاب الأول

تأليف الدكتور

حسن محرم الحويني

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

دار الهدى

للطباعة

شارع النزاوى ـ السيدة زينب

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

قد يقال : إن تناول المذهب الماركسى بالكتابة أو المحاضرة أو الحوار سواء عرضاً أو نقداً يعد الآن من قبيل تحصيل الحاصل أو الحديث عن أمر معلوم لم تعد تدعو الحاجة إلى الخوض فيه ، فضلا عن أن تناوله أو الخوض فيه قد أضحى مبعثاً للملل ومنبعاً للسآمة .

بيد أن فى هذا الادعاء قدراً غير قليل من تجاهل الحقيقة أو جهلها ، وذلك لما يمكن الإقرار به من خطورة هذا المذهب ومساس مبادئه بنفسية وعقلية بعض المثقفين الذين استقوا ثقافتهم ونهلوا معارفهم من مصادر تراثنا الإسلامى الشرقى الأصيل .

وقد كان ذلك دون ما شك هو ما أذكى حماسة الكتاب وأهاج عاطفة المفكرين من أجل التصدى لدفع هذا الخطر ، ولم تكن أقلام الغيورين على تراثهم وعقيدتهم ومستقبل حضارتهم لتعرف التوقف أو الملل ، فتتابعت المؤلفات وتدفقت المقالات والأحاديث بالمئات بل بالألوف ؛ لتكون بمثابة رد فعل متكافىء لنشاط الماركسة فى المجالات الفكرى والدعائى والسياسى ، ذلك النشاط الذى يستهدف التغرير بالإنسان والتمويه عليه بأن المذهب الماركسى هو المذهب القادر على تقديم كل برامج الإصلاح وخطط التقدم لمستقبل العالم ،

بحجة أنه يقوم على التفسير الصحيح للكون والإنسان والماضى والحاضر والمستقبل .

وبذلك يحدد الماركسيون قيمة الأديان السماوية والمذاهب الاجتماعية الأخرى فى الاضطلاع بهذه المهام ، حيث ينفرد المذهب الماركسى دون سواه بهذه الصلاحية ؛ لأنه فضلا عما سبق لا يعول إلا على العلم ويضع الاعتبار كله للمنهج العلمى القائم على التجربة والاستقراء ، ويرفض كل الرفض مبادىء الميتافيزيقا وخرافة القوى الغيبية فى تفسير الكون ، وبيان نشأته .

وكان لهذه المزاعم بريقها وجاذبيتها اللذان انبهرت بهما الأعداد العديدة من الأتباع ينضمون إلى ركب الماركسية زرافات ووحدانا .

فلم يكن بد والحالة هـــذه من أن يشهر الواقفون على زيف الماركسية وتضليلها وبخاصة أهل الأديان كل مافى حوزتهم من أسلحة ذباً عن كيانهم الحضارى والعقدى من جهة ، وتجلية لهـذا الزيف وذلك التضليل من جهة أخرى .

ولم يكن بد كذلك من مضاعفة النشاط فى هذا المجال ، والإتيان على كل جوانب المذهب الماركسى كماً وكيفاً ، كل على قدر جهده وطاقته ، وكان على أن أنفق هـذا الجهـد المتواضع إسهاماً فى أداء هذا الواجب كجندى فى معركة شرسة بين الماركسية وحقائق الإسلام . ومن الحق هنا أن أقر بحافز خاص بى إلى إخراج هذا البحث .

فقـد رأيتنى أقبض على مادته وقضاياه من خلال ما قمت به من محاضرات فى موضوعه أثناء تدريسى لطالبات كليـة الآداب للبنات بالمملـكة العربية السعودية بالدمام .

فرأيت من الخير أن أجمع شتاتها . وأن أنسق بين مباحثها ؛ لتخرج على مساحة أوسع من القراء المهتمين بأمثال هذه الموضوعات فى صورة هذا الكتاب ، رجاء أن يتضمن بعض النفع ، وأن يحمل بعض الإضافة فى هذا المجال .

وحسبي من ربى علمه بصدق النية وسلامة الطوية ؟

القاهرة فى ٢ رمضان سنة ١٤٠١ هـ

الموافق ٤ يولية سنـة ١٩٨١ م

الدكتور حسن محرم الحوينى

تمهيد

فى نشأة الشيوعية وعلاقتها بالصهيونية العالمية

كان نجاح الثورة الشيوعية عام ١٩١٧م – بدون ما شك – تحقيقاً لأول أحلام كارل ماركس ، وظهوراً لأولى ثمرات نظريته التى أعلن عن مبادئها لأول مرة عام ١٨٤٨م .

وإذا كان رفاقه وتلاميذه لم يهنوا ولم تفتر عزائمهم بعد وفاته عام ١٨٨٣ م عن تنفيذ وصاياه وتحقيق نبوءاته ، مما مهد لامتلاكهم زمام الأمر بنجاح الثورة . فإن ذلك لم يكن العامل الوحيد فى نجاحها بالرغم مما بذلوه من تفان وإخلاص فى ذلك .

فهناك من العوامل مالا يقل فى أهميته وتأثيره عن ذلك العامل ، إن لم يفقه ويتقـــدم عليه ، فى الفعالية والتأثير . ذلك هو الدعم اليهودى للشيوعيين بكل ما أوتى اليهود من إمكانات مادية وفكرية يقدمونها لخدمة الشيوعية ، ولم يكن ذلك الإخلاص اليهودى فى سبيل نجاح ثورة هؤلاء حباً ووفاءاً لهذا المذهب ، أو إيماناً منهم بمبادىء ماركس ونبوءاته كحركة إصلاحية أو كرسالة سامية غايتها إنقاذ العالم لا سيما فقرائه والمستعبدين فى ظل النظم المستبدة والظالمة من رأسمالية وإقطاع.

فلم يكن ذلك هدفاً لليهود فى أى زمان ومكان ، وهم مصدر

الشر والتخريب والحقد على من سواهم من بنى البشر ، يزخر بذلك تاريخهم فى شتى حقبه وأطواره .

ومن ثم كانت غاياتهم الحقيقية من وراء مساندتهم المخلصة لنجاح الثورة الشيوعية فى روسيا ، أنهم رأوا فى الشيوعية إحدى قوى إحدى قوى ثلاث يجب استغلالها لتنفيذ مخططهم التخريبى ، وتحقيق هدفهم الإجرامى الذى يتمثل فى سيادتهم للعالم وسيطرتهم على مقدراته انطلاقاً من عقيدة — شعب الله المختار — وبعد ذلك ، أو قبله من الأهداف والغايات تمكنهم من إقامة وطن قومى فى فلسطين .

تلك القوى الثلاث التى اختاروا الشيوعية إحداها . هى : الفاشستية — والصهيونية السياسية — والشيوعية بالطبع .

وهى قوى تشترك فى قيامها على الإلحاد والتخريب .

هذا المخطط هو ما تمخط عنه عكوف أحد زعمائهم المفكرين « الجنرال بايك » سبع سنوات على البحث والدرس ، استجابة لتكليف اليهود إياه . بعد وفاة رأسهم المفكرة : « آدم وايزهاويت ».

وكان ذلك هو برنامج العمل الذى يجب أن يعمل اليهود على تنفيذه ، وفى سبيل ذلك قرروا أنه يجب تكريس كل الإمكانات ، كما يجب أن يسند ذلك المخطط بالثورات والانقلابات المتتالية فى شتى مناطق العالم ، كلما تيسر ذلك .

وقد وجدوا للشيوعية تربتها الخصبة ومناخها الملائم فى روسيا ،

حيث كثير من زعماء اليهود ، ورجال الفكر الاشتراكى من أمثال لينين ، ستالين ، وتروتسكى .

ثم تتوالى الأنشطة والحركات اليهودية إلى جانب الأنشطة والحركات الشيوعية لتمهد لنجاح الثورة وتحقيق الحلم .

ففى عام ١٨٨٣م نشطت جماعة تحرير العمل وغايتها نشر أفكار ماركس وآرائه ، وبفضل بعض التنظيمات اليهودية ، تسنى لهذه الجماعة – كما أشاد بذلك لينين وستالين تحقيق بعض غاياتها .

كما نشط لينين فى بطرسبرج عام ١٨٩٣م حيث وحد الحلقات الماركسية فيها . وانضم إليه عدد غير قليل من اليهود . مكوناً مايسمى باتحاد النضال لتحرير الطبقة العاملة .

كما أنشأت المستعمرات اليهودية فى الولايات الغربية بروسيا « حزب البوند » أى الاتحاد العام للحزب الاشتراكى اليهودى .

وكان ذلك أثناء نفى لينين واعتقاله . فلم يتسنى له حضور مؤتمرهم .

ثم ينعقد مؤتمر التوحيد عام ١٩٠٢م فى بروكسل بقصد تكوين حزب العمال الاشتراكى الذى تتحد فيه شتى الحركات الماركسية .

ويقف السند المالى اليهودى جنباً إلى جنب مع السند السياسى والفكرى ، فيعلن جاكوب شيف المليونير اليهودى : أنه بفضل دعمه المالى نجحت الثورة الشيوعية .

كما يذكر لكل من (ماكس واربورج) و (والف اشبورج) و (جيفو لوفسكى) وغيرهم من مليونيرات اليهود مثل هذا الفضل على ظفر الشيوعيين بالقضاء على النظام القيصرى .

يضاف إلى ذلك عامل لا يمكن تجاهل أثره ، وذلك ما تعرضت له روسيا القيصرية قبـــل قيام الثورة بقليل ، من سلسلة من المؤامرات الشيوعية واليهودية وما نجم عنها من قلاقل واضطرابات .

وقد انعكس كل ذلك على ضعف النظام القيصرى الحاكم سياسياً واقتصادياً مما أوقع القياصرة فى حرج حين دخلوا الحرب مع الألمان .

كل ذلك قد مهد السبيل وهيأ الظروف لتمكن الماركسيين من قلب النظام القيصرى واستيلائهم على نظام الحكم برياسة « نيقولاى لينين » مع رفاقه بعد عودتهم من المنفى أو الإقامة فى خارج البلاد عام ١٩١٧ م .

وكان أول ما كافأ لينين ورفاقه اليهودية أن أعلنوا فى أول قرارات اللينينية . قراراً يقضى بوجوب العمل على إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

هكذا تحققت نبوءة ماركس بقيام الثورة الشيوعية على أكتاف اليهود تباركها روحه التى طالما تشوفت وتعطشت إلى التخريب والتدمير فى سبيل تحقيق أحلامه ونبوءاته .

وهكذا وجدت كل من الماركسية واليهودية فرصتها فى الأخرى تحقيق أهدافها الإجرامية .

ولم يستطع الشيوعيون المماطلة فى دفع جزء من ديونهم لليهودية العالمية بهذا القرار الذى يحقق لليهود عودتهم المزعومة إلى ما يسمونها بأرض المعاد ، وقد تحقق هـذا الحلم بالفعل واحتل اليهود بقعة من أرض المسلمين فى فلسطين .

كما نجح اليهود فى تمـكين أنصار الاشتراكية العلمية ـ كما يسمونها ـ وزعماء الشيوعية من القضاء عـلى القياصرة ، والظفر بوطن يعتبرونه منطلقاً لتحقيق أحلامهم الـكبرى .

فـكلتا الحركتين إنما تسعيان من خلال استغلال كل منهما للأخرى إلى غاية واحدة وإلى تحقيق نوع واحد من الأطماع الذاتية والمآرب الأنانية ، لعل فى صدارة هذه الغايات وتلك المطامع الرغبة فى سيادتهم للعالم والسيطرة على شعوب الأرض ، ودول الشرق والغرب والهيمنة على كل مصادر القوة والثروة ، بل على كل أسباب التفوق والتعالى وتسخير من عداهم من بنى البشر لخدمتهم ، وتقديم فروض الولاء والطاعة لهم .

هذه هى غاية الغايات لعباد المـادة وأنصار الخراب والصراع من المنتمين إلى كل من الحركتين معاً .

فها هو كارل ماركس مؤسس الشيوعية يقول منادياً العمال فى كل مكان فى العالم : يا صعاليك العالم هبوا ، فأمامكم عالم تغنمونه ، وليس هناك ما تخسرونه إلا السلاسل والأغلال .

ومن أقواله كذلك فى تحريض العمال عـلى السعى وراء هـذه

الغاية فى أول بيان أصدره كارل ماركس مع صديقه وتلميذه إنجلز : أمامكم العالم وعليكم أن تكسبوه .

وقد كانت هذه الغاية بالنسبة لليهود أمراً يستمد رسوخه من نفوسهم من رسوخ العقيدة الدينية وثباتها . فالخلق جميعاً عبيد مسخرون لخدمتهم ؛ لأنهم شعب الله المختار . وهذا ما نصوا عليه صراحة فى البروتوكول الخامس من بروتوكولات حكماء صهيون :-

(إننا نقرأ فى شريعة الأنبياء أننا مختارون من الله لنحكم الأرض وقد منحنا الله العبقرية كى نكون قادرين على القيام بهذا العمل ، وسنضع موضع الحكومات القائمة مارداً يسمى إدارة الحكومة العليا وستمتد أيديه كالمخالب الطويلة المدى . وتحت إمرته سيكون له نظام يستحيل معه أن يفشل فى إخضاع كل الأقطار) .

والواقع أن الشيوعية والصهيونية العالمية وإن التقتا عند التطلع إلى هذه الغاية ، وإن حاولت كل منهما تسخير الأخرى لمصلحتها الخاصة ، فإن من القول الصحيح أن يقال : إن الشيوعية كانت أكثر تعبيراً عن القضية اليهودية وحلا لأزمتها . كما خطط لذلك اليهود تماماً على نحو ما أشرنا سابقاً . ولعل ما يؤكد لنا الآن هذا الادعاء من بين كثير من الأدلة التى قد نعرض لها فيما بعد وقد لانعرض . أن كارل ماركس نفسه قد كان يهودياً من أسرة عريقة فى اليهودية ، وذلك من جملة الأسباب النفسية إلى جانب أسباب أخرى خلقية واجتماعية دفعت ماركس إلى وضع نظريته المادية التى تغلب المادة على كل شىء ، وتستلزم القضاء على الأديان ، والأوطان ،

والحكومات تحت شعارات مزيفة كإنصاف المظلومين والفقراء فى دولة العمال ، وهـذا خير ما يهيء لليهود أصلح مناخ يظفرون فيه بغايتهم حين يقبضون فيه عـــلى ناصية العالم ويتمكنون من إذلال البشرية واستعبادها ، ومن هنا كذلك كان أ كثر أنصار الشيوعية فى العالم أنصاراً للصهيونية .

وكان المجلس الذى حكم روسيا بعد الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ م يضم ستة يهود من أصل عشرة أعضاء . وأن صهر ستالين (وبريا) الذى كان رئيساً للشرطة السرية ، (وشفرنك) رئيس جلسات مجلس السوفييت الأعلى . (واليا اهرنبرخ) لسان حال الكرملين ، وداعيته المشهور كلهم يهود .

وقد نشرت واحدة من كبريات المجلات اليهودية ، وهى مجلة (أفريكان هيبرو) فى عددها الصادر يوم ١٠ سبتمبر عام ١٩٢٠ :

(أن الثورة الشيوعية فى روسيا كانت من تصميم اليهود . وأنها قامت نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم ، وأن ما تحقق فى روسيا كان بفضـــل العقلية اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم ، ونتيجـة لتدبير اليهود . ولسوف تعم الشيوعية العالم بسواعدهم) .

كما ينص البروتوكول الثالث من بروتوكولات حكماء صهيون على قولهم :

(إننا نقصد أن تظهر كما لو كنا المحررين للعمال ، جئنا لنحررهم من هـذا الظلم ، حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين ، والفوضويين ، والشيوعيين . ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للإنسانية . وهذا ما تبشر به الماسونية الاجتماعية)[1].

وإذن فقد نجحت الصهيونية العالمية من أول الأمر فى أن تجعل من الشيوعية قوة مهما كان حجمها لخدمة غايتها وتنفيذ برنامجها .

ولا يتنافى فى ذلك مع الإيمان بأن الشيوعية تسعى إلى نفس الغاية كما سبق توضيحه .

وكثيراً ما تلجأ فيما تلجأ إليه من وسائل إلى الصهيونية ورأس المـال اليهودى لتنفيذ برامجها الاقتصادية أو الاستعمارية . ومن أبرز الوسائل التى يلجأ إليها اليهود والشيوعيون معاً للوصول إلى التسلط على العالم ، والسيطرة عـلى الشعوب القضاء عـلى الأديان السماوية ، ونشر الإلحاد ، وقد يكون ذلك معقولا فى صنيع الشيوعية التى أعلن زعماؤها ضرورة القضاء على الأديان ، فهم ملاحدة لا يعتنقون ديناً ولا ملة ولا يؤمنون بالإله ، ويفسرون كل ظاهرة من ظواهر الوجود بالباعث المـادى ، والدافع الاقتصادى ، وهو الأساس الذى قام عليه مذهبهم .

---

(١) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام ـ فتحى يكن ـ ص ٣١ وما بعدها.

أما اليهودية فالمعروف أنها دين سماوى . واليهود أهل هذا الدين ونصراؤه ، فكيف يتوسلون إلى غايتهم بنشر الإلحاد والكفر ؟

والإجابة عن هذا السؤال تكمن فيما جاء فى البرتوكول الرابع عشر من بروتوكولاتهم من قولهم :

(يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان ، وإذا تكون النتيجة المؤقتة لهذا هى إثمار ملحدين ، فلن يدخل هذا فى موضوعنا ، ولكنه سيضرب مثلا للأجيال القادمة التى ستصغى إلى تعاليمنا على دين موسى الذى وكل إلينا بعقيدته الصارمة واجب إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا) .

وسواء كان الكفر بالله ، والقضاء على الأديان ، ونشر الإلحاد وسيلة مؤقتة كما يرى ذلك اليهود ، أو وسيلة لا تلبث أن تتحول إلى جزء من الغاية العامة كما هو الأمر عند الشيوعيين ، فإنه لا خلاف بين اليهودية والشيوعية فى وقت من الأوقات على ضرب الدين الإسلامى والقضاء على شريعته ومعتنقيها ، وإن اختلف تبرير كل منهما ودوافعه . فاليهود لا يهادنون الإسلام ولا يحجمون أبداً عن القضاء عليه عقيدة وشريعة ؛ لأن حقدهم وتعاليمهم واعتقادهم بأنهم صفوة البشر تأبى أن يعلو دين على دينهم ، أو تنسخ شريعة شريعتهم ، أما الشيوعيون فإنهم لا ينفكون عن إصرارهم على الفتك بالإسلام والمسلمين ؛ لأنه الدين الوحيد الذى ينافسهم فى بناء المجتمع ، وتقديم أنجع الحلول لأعقد المشكلات الاجتماعية ، ومن أولها مشكلة الفقر والأجور والعمل ، وما إليها من المشكلات التى زعم ماركس أنه

ما وضع نظريته ، ولا دعا إلى آرئه ومبادئه إلا من أجل علاج هـذه المشـكلات وإنصاف الفقراء والمظلومين من قبضة الطبقات المستغلة .

وسنعرض تفاصيل ذلك فى مباحثنا التالية إن شاء الله ، ولـكننا نسوق هنا تأكيداً لتعاون كل من الشيوعية والصهيونية فى سبيل نسف الإسلام ، وضرب مقدساته والقضاء على المسلمين ما جاء فى البند الثالث من مخطط الجنرال بايك الذى أشرنا إليه من قبل ، وفيه يقول :

(تتصدى الصهيونية العالمية والشيوعية الماركسية للزعماء الإسلاميين فى العالم الإسلامى ، وتشن حرباً ساحقة على الإسلام ، القوة الأخيرة التى تتصدى لنا وتقف حائلة دون تنفيذ مخططاتنا) .

ماركس وأهم مقومات شخصيته

ويجدر بنا فى هذا المجال أن نلقى بعض الضوء على ما نعتقد أنه أهم الجوانب فى شخصية مؤسس الشيوعية العصرية أو الاشتراكية العلمية ، والواضع لأساسها الفلسفى وهو « كارل ماركس » .

وقد انبثقت فلسفة كارل ماركس من إيمانه بسيادة المادة على كل موجود ، وافتتانه بقوتها وأثرها فى توجيه الوجود وإثرائه .

ومن ثم فقد أنكر كل ما هو روحى ، كما أنكر الأديان والمعتقدات لأنه أله المادة وكفر بوجود الله .

والأسس الفلسفية التى أقام عليها ماركس نظريته وبنى عليها مذهبه هى : المادية الجدلية والمادية التاريخية ، ومن أهم مستلزمات هذين الأساسين إنكار الأديان والكفر بالله ؛ لأن المادية الجدلية والتاريخية يقضيان بالصيرورة والتغير على كل شىء .

فما من شىء من الأشياء يمكن أن يحظى بخاصية الثبات والدوام، ولا مناص لكل شىء من التحول إلى مقابله والفناء فى نقيضه دون أن يتوقف ذلك التحول عند حد زمانى أو مكانى ؛ لأنه محور التطور الذى هو غاية الغايات وقيمة القيم .

والأديان والمعتقدات والقيم الروحية والأخلاقية بالطبع من جملة الأشياء المقضى عليها بالصيرورة وفقاً للجدلية المادية أو ما يسمونه

بمبدأ النقيض الذى اقتبسه كارل ماركس من فلسفة « هيجل » بعد أن أنكر تطبيقه على الفكر ، وأنكر مثالية هيجل بصفة عامة وطبقه على المادة وعلى تاريخ الإنسان ، ولذلك سميت الفلسفة الماركسية بالجدلية المادية تمييزاً لها عن جدلية هيجل ، وسنعرض لتفصيل ذلك فى مبحث لاحق .

وصراع الطبقات ضرورة تاريخية فى كل مجتمع طبق لإنصاف الطبقات المظلومة تحريكا للتاريخ ودفعاً للحضارات نحو التغير والصيرورة إلى المقابل والنقيض ، وهكذا يتجه هذا المذهب كما وضعه إمام الشيوعية وفيلسوفها الأول إلى الحلول الدموية للمشكلات الإنسانية حلولا قائمة على المادية المظلمة غاية ووسيلة ، وهو اتجاه إلى تخريب المجتمعات والقيم والمبادىء ؛ لأنه تخريب لأهم ما يربط الإنسان بإنسانيته وهو التدين والإيمان بالخالق الذى هو مصدر قوته وأمانه ونجاته .

وهذا هو ما فطن إليه « كارل ماركس » بوجدانه وفطرته وعقله قبل أن يتمرد على الإيمان وينقم على الإنسانية ، ويتصور لها هذا المستقبل الكئيب .

فقد كانت هذه عباراته قبل إلحاده : (إن خير الناس وأجدرهم بالتكريم من يعمل لخير الناس . والدين أساس الحياة الإنسانية ، وهو نفسه يلقننا الحكمة والخير ، ويقول لنا : إن المثل الأعلى الذى يجب أن يسعى إليه كل فاضل فى الوجود هو أن نضحى بأنفسنا

فى سبيل خير الإنسانية وإسعادها .)[1]

وإذا كان كارل ماركس فى مرحلة مبكرة من عمره قد عرف قيمة الدين ونعم بآثار الإيمان . فما الذى وضعه فى هذه الأزمة إزاء الدين والقيم والأخلاق والإنسان والكون حتى خرجت فلسفته بهذا الضياع والوبال على الدين والقيم والإنسان والكون جميعاً ؟

وقد ذكرت فى معرض الإجابة عن هـذا التساؤل مجموعة من الأسباب التحليلية والمبررات الذاتية . النفسية منها والخلقية والاجتماعية ، وغير ذلك من الوراثة والبيئة ، والتعليم إلى آخره .

وأهم ما يمكن أن نذكره من هذه الأسباب :

١ — شدة ما عاناه ماركس وأسرته سواء التى كفلته ورعته . أو التى كفلها ورعاها ، ومرارة ما قاساه هو وهؤلاء من عوز وفاقة وضيق لذات اليد . مما أثقل جوانحه بقلب يضج بالحقد والسخط على كل من نعم بأسباب الثروة ورغد العيش ، وما أكثر تلك الأمثلة التى تصور لنا شظف حياته وبؤس حالته ، طالباً يعتمد على نفقة أسرته حتى بعد فقد والده الذى كثيراً ما ضاق بمطالبه المالية المتلاحقة دون أن يرفق بحال ذلك الوالد الذى نال منه الكبر والشيخوخة ، وأعجزه مرضه عن الكسب ، وبعد أن استنفد حصته من ميراثه عن والده وجوره على أنصبة والدته وإخوته الذى خاب أملهم فى معونته ككبير للأسرة حتى ضاقوا ذرعاً بجوره وقلة اكتراثه بحياتهم فقطعوا

---

(١) الشيوعية والإسلام — أحمد عبد الغفور عطار ص ٢٩ .

عنـه إمداداتهم على ضآلتها ، ولم يجد مناصاً من أن يلجأ إلى استعارة المـال من بعض أقاربه دون أن يكون هناك سبيل أو أمل فى رد هذه الاستعارة ، وأبرز موارد هذه الاستعارة التى لاترد هى تلك التى أخذت شـكل المعونة المنظمة التى كان ينعم بها عليـه صديقه وزميله فى تأسيس النظرية الشيوعية (فريدريك انجلز) .

ولم تـكن موارد المعيشة هذه بالرغم من عدم مشروعيتها إلا فى ميزان أولئك الذين يستحوذون على مثل هذه النفوس السمجة التى تستهين برد الحقوق وتستمرىء مذلة السؤال ، وتستسلم لإعطيات الإحسان .

لم تـكن هذه الموارد بالطبع لتـكفى صاحبنا ، لاسيما حين يصبح عائلا لزوجة وأطفال ممـا جعله فى وقت من الأوقات عيياً كل العي عن مداواة زوجته المرضع ممـا ألم بها من آلام بظهرها وثدييها حتى لايرضع طفله وفلذة كبده إلا لبن الحزن والخوف والسآمة فيقع فريسة المرض والأوجاع . وهو فى ذات الوقت أعجز من ذلك عن أن يدفع أجرة مسكنه وبعض الأموال التى اقترضها إلى صاحبـــة المسكن فتضطر إلى الحجز على أثاثه فتبيعه وتبيع ملابسه وملابس زوجته ومهد طفله . حتى تسترد حقها الذى لايتجاوز خمسة جنيهات .

وطرد هو وأسرته إلى قارعة الطريق حيث ينهمر المطر ويشتد البرد والسقيع وتصاب طفلته بنزلة شعبية ، ولعدم التمـكن من النفقة المطلوبة على علاجها يفضى بها المرض إلى الوفاة — ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن ماركس هو وزوجته لايجدان بين أيديهما مقدار مايدفعانه من المـال عـلى قلته لتجهيز الطفلة ودفنها . فتضطر زوجتـه البائسة إلى اقتراض جنيهين من جارها المهاجر الفرنسي لهذا الغرض .

هذا ما تضمنته الرسالة التى كتبتها جينى زوجـــة ماركس إلى أحد أصدقائها تصور له مدى معاناتهم من آثار الفاقة ووطأة الحياة، وتستجديه بعض المـال . وكثيراً ما كان يطيب لمـاركس وهو فى حالات العشق والتقديس للمـال الذى حرمه أن يردد هذه العبارات للشاعر الإنجليزى شـكسبير عن الذهب :

(أيها الذهب . . أيها الذهب الثمين البراق . . إنك تصير الأبيض أسوداً ، والقبيح جميلا والشر خيراً والعجوز فتياً ، والجبان باسلا ، هذه العبودية الحمراء القانية هى التى تعقد الروابط المقدسة وهى تحلها ..) .

ولم تـكن فاقة ماركس وإعساره نتيجـــة لفقره فى المواهب العقلية أو عجز عن العمل أو الـكسب ، وإنما كان ذلك لغلبـة بعض الصفات الذميمة على شخصيته ، فقد عرف عنه إخلاده إلى الراحـة وعشقـه للـكسل وتذرعه بالخمول ، كما عرف عنه أثرته وقلة اكترائه بالواجب سواء فى حق نفسه أو فى حق أمه وأخواته بعـد فقد عائلهم ، وهو أبوه الذى نطق بقراره الذى قضى به عـلى رحلة حياته كلها حين قال عنه : سيـكون ماركس ولدى عالة على غيره ما عاش . أو فى حق أسرته وأطفاله .

لم يكن صاحبنا إذن عاجزاً عن العمـــل وإنما كان مستهيناً به . ولم يكن يستعصى عليه تحصيل أسباب العيش سعياً وكداً وبذلا للعرق والجهد ، واحتراماً لإنسانيته ، وإنما كان يلجأ إلى هذه الوسائل الخسيسة من السؤال وتقبل الإحسان والمعونة ، وإن دل ذلك على شيء فإنمـا يدل على قدر كبير من وضاعة النفس ، وتفاهة الشخصية ، وقلة المروءة فضلا عن انعدام النبل وكرم المحتد .

فهل ينتظر من مثل هذه الشخصية أن تنسب إلى مصلح أو صاحب دعوة أو صاحب رسالة تقدس العمل وتجعله مصدر القيمة للسلع والأشياء ، وتقاوم البطالة ، وتكفر بكل استغلال وتعويل على غير النفس والقدرات الشخصية ؟

صاحب الدعوة إلى العمل وسيادة الطبقة العاملة يكره العمل ويؤثر أن يكون عالة على غيره من أقربائه وزملائه الذين كثيراً ما ضاقوا بمطالبه الملحة حتى ما كانوا يكلونه إليه من أعمال كان يلجأ فى قبولها إلى الكذب والاحتيال حين يكلها بدوره إلى غيره ؛ لأنه لا يحسن ممارستها أو أداءها ، ومع قيام غيره بها كان يستحل فى سماحة واستهتار أجرها ومقابلها .

ولم يكن حبه للبطالة والكسل وبغضه للعمل من أجل التفرغ لرسالته الإصلاحية أو من أجل تجميع قواه وتكريس كل جهوده لإكمال مذهبه وتحصينه بما يلزمه من براهين ودفع ما يمكن أن يعرض له من شبه .

فهو الذى لم يكمل كتابه (رأس المال) الذى كان مصدراً لشهرته ، حتى توفى ، ولم ينجز ما كان قد وعد به من مباحث هذا الكتاب وهى الخاصة بنظرية الثمن والعمل وصراع الطبقات .

وهذه النظريات تعد بمثابة براهين على إثبات مذهبه وتمييزه باسم الاشتراكية العلمية عن الاشتراكية الحالمة أو اشتراكية الرعاع كما يتشدق بذلك الماركسيون .

وها هو ماركس لا ينجز ما وعد به بعض الناشرين من طبع أحد

كتبه الذى قبض ألف وخمسمائة فرنك ثمناً له . ثم بعد أربع عشرة سنة يتفق مع ناشر آخر على إنجاز نفس الكتاب الذى لم ينجزه مع الأول خلال المدة المذكورة .

كل هذا وغيره من الخلائق التى لم تكن لتكون شخصية إنسان فاضل فضلا عن زعيم أو مشرع أو صاحب دعوة تكفى الإنسانية — كما يزعم — لكل الأجيال القادمة .

وهكذا صنع ماركس بؤسه وعوزه بيده وبشخصيته المريضة ، وكأنه كان ينتظر أن يوفر له الناس كل ما تحتاج إليه حياته وحياة أسرته من بذخ العيش ورفاهية الحياة ، دون أن يقدم أدنى مقابل ولو كلمة ثناء وعرفان بالجميل ، وإلا فليستحق الأثرياء والحائزون للأموال والمستمتعون بالامتيازات الطبقية كل نقمة وكل مكيدة وكل تخريب وتدمير إلى آخر ما تحمله نظريته المنبعثة من نفسه الحاقدة ومشاعره السوداء .

وإن نسى ماركس فلا ينسى إخفاقه فى تجربة عاطفية عام ١٨٣٦ م بسبب اعتبارات طبقية ، إذ كان قد خطب فتاة من أسرة ارستقراطية ؛ ثم رفضت أسرتها عندما تكشف لها الأمر زواج فتاتها منه لفقره ولعدم الكفاءة .

فلم يكن غريباً بعد كل ذلك أن نرى من صاحبنا هذه النفسية السوداء ، والقلب المظلم تجاه الطبقات الارستقراطية والبرجوازية ، ويرى أنه من الضرورى أن يجتاز الفقراء بحاراً من دماء هؤلاء حتى يفوزوا بحريتهم ، ويظفروا بحقهم المشروع فى الحياة . وليس من

الضرورى أن يكون العوز ورقة الحال مصدر نفور اجتماعى ، وحقد طبقى ، أو نقمة على الواجدين والموسرين اللهم إلا إذا كان هذا العوز وليد الأنانية وحب الذات وانطباع النفس على الأخذ ونفورها من العطاء . وتلك كما رأينا كانت حال ماركس .

٢ — وقد يكون أكبر أثراً من ذلك كله على شخصية ماركس العلمية والفلسفية ما يتعلق بعامل الوراثة والبيئة ، فقد ورث ماركس عن أبويه خصلة من أشد الخصال الخلقية والنفسية خسة ، ودمامة تلك هى خصلة الاستهتار بالمبادىء ، والاستهانة بالقيم ، وليس هناك أدل على ذلك من أن يستهتر المرء بدينه ويستهين بعقيدته . ذلك هو ما وقع من (هرشل أو هنريخ) والد كارل وما وقع كذلك من والدته فقد انخلع كلاهما من دينه حيث ترك اليهودية واعتنق المسيحية ، هكذا بدون مأرب يتطلع إليه عادة كل من يرغب عن عقيدته لخلل وقع هو عليه فيها أو نقص أدركه فى حقيقتها فتبرر له قناعته مثل هذا التحول على خطره ، وسواء ترك والدا ماركس اليهودية إلى المسيحية رغبة فى التحرر الفكرى أو العقدى لما كان عليه اليهود من الجمود فى هذين الجانبين معاً أو هرباً من الاضطهاد الواقع حينئذ على اليهود من قبل المسيحيين الذين دفعهم لى الثورة والسخط على اليهود حرج الديون الثقيلة والفوائد الربوية الباهظة التى أوقعوهم فى شراكها أوكان ذلك طلباً لمنفعة مادية وسعياً وراء فرصة من فرص العيش لهما أو لولدهما ماركس الذى لم يتجاوز بعد السادسة من عمره .

أقول : سواء كان ما دفع والدى ماركس إلى طرح عقيدتهما هذا أو ذاك فإن حقيقة الأمر لا تعدو مجرد التبرير والتعلة . وإلا فليس من

الميسور فهمه أن يتخلى شخص كوالد ماركس أو والدته عن دينهما الموروث نتيجة لدرجة مقبولة من القناعة النفسية والذهنية . وهما المنحدران من سلالة الربانيين والحاخامات . والمسيحية كدين ليس فيها ما يعوض نقيصة الجمود فى الفكر أو العقيدة الذى هرب منه إلى مرونة المسيحية وانفساحها فى هذا الجانب .

وإذن فالتبرير الحقيق هو مجرد الاستهانة ـ كما قلنا ـ بأغلى وأقدس ما يتمسك به الإنسان من مبادىء فى حياته . فالمتدين العادى فضلا عن صاحب مركز دينى كوالد ماركس الذى كان عالماً من علماء الشريعة الإسرائيلية قد يقبل المساس بنسبه والتضحية بحياته ولا يقبل المساس بدينه أو عقيدته .

ولا أدل على الاستهتار من أن تكون التضحية بالدين مقابل عرض رخيص من أعراض الحياة . ولاسيما إن كان من جنس الأعراض المادية التى يتسنى للمرء أن يحصل عليها بقدر من الجهد دون أن يضطر إلى التفريط فى مبدئه أو عقيدته ولا يصعب فى هذا الصدد أن نبرر بعامل الوراثة عداوة ماركس ونقمته على الأديان واعتباره الإلحاد جزءاً من نظريته وأساساً من أسس مذهبه . وقد قيل فى المثل القديم : « من شابه أباه فما ظلم » .

ويمكن القول دون كثير من المبالغة : إن إلحاد ماركس ودعوته إلى الكفر بالله إنما يعد من قبيل التبرير الخلقى والنفسى لسلوك والديه إزاء دينهما . وإذا كانا قد استهانا به لغرض مادى أو لنفع اقتصادى ، فإن ماركس بما خرج به على العالم من تفسيره كل شىء بالدوافع الاقتصادية والمنافع المادية بما فى ذلك الأديان والقيم والأخلاق إنما

يبرهن لنفسه وللعالم على أن مسلك والديه ومسلكه من بعدهما لم يكن شاذاً ولا مجافياً للصواب أو مصادماً للأخلاق ، هذا فضلا عن مادية ماركس المتأصلة فيه النابعة من يهوديته العرقية .

والحياة الأسرية كانت بالنسبة لماركس جزءاً من بيئته التى تلقن فيها وتعلم تصوراته الأولى عن الحياة والمجتمع والناس ، كما تلقن فيها وتعلم تلك المبادىء والقيم التى آمن بها واعتنقها والداه .

ثم إن هناك فى مراحل حياته المرحلة الجامعية التى كانت من أهم مكونات هذا الموقف النفسى للأديان . فقد تلقى أثناء دراسته الجامعية فى جامعة برلين فى ألمانيا علومه على أيدى أساتذة ناقمين على الأديان وخاصة المسيحية لما كان يكتنفها حينئذ من التصرفات الشائنة والمسالك الشاذة من قبل الكنيسة ورجال الدين . كما عاصر ماركس كلا من (فيورباخ) و (باكونين) اللذين كان لهما السبق فى تتلمذهما على أستاذه (هيجل) كما كان لهما سبق آخر إلى التمرد على مثاليته ومهاجمته والتبشير بالشيوعية والنقمة على الأديان والدعوة إلى الإلحاد :

(ا) أما فيورباخ زميل ماركس فى مدرج الدراسة فى الجامعة ، فقد أخرج فى ذلك الوقت كتابه « الفلسفة والمسيحية » أعلن فيه أن نشأة الكون طبيعية ، وأنه لا موجد له ، ونادى بإنكار الديانات وأنها خرافة وأوهام . وأن المسيحية قد فنيت وزالت من الوجود نهائياً . كما أعلن أن الديانة من عمل الإنسان ، وأن الدين ينشأ من شعور الإنسان بالحاجة والعجز عن تحقيق مآربه ، وعن إدراكه أنه فان ، وأن الدين لهذا ليس فى حقيقته شيئاً غير وعى الإنسان وإدراكه خلود الوعى .

(ب) أما باكونين فكان قد وضع مذهبه الفوضوى الذى يتضمن

هذه المبادىء الكفر بالله « سبحانه وتعالى » والدعوة إلى الإلحاد . والعمل على تحطيم الدولة وإزالة الحكومة ؛ لأن الدولة هى فى الواقع هيكل الظلم ، وبتحطيم الدولة وإزالة الحكومة تظهر الشيوعية تلقائياً ، أما بقاء الحكومات فإنه هو العائق دون سيادة الشيوعية . ومعارضة الأعمال السياسية لأن الشيوعية لا يمكن أن تظهر عن طريق السياسة[1] . وهذه المبادىء هى من جملة ما تأثر فيه ماركس بكل من (فيورباخ وباكونين) وكان من الطبيعى أن يسهم ماركس فى إثراء التيار الإلحادى الذى كان يسود الأفق الفكرى والفلسفى فى ألمانيا وأوربا بصفة عامة وكان من أوائل ما أنتج فى هذا الصدد وفى هذه المرحلة دستور الشيوعية المعروف بالمانفستو ، وفيه جلى عن موقفه المضـــاد للدين ووصفه بأنه أفيون الشعوب ووسيلة إخضاعها . إلى آخر ما قال . وهكذا كان لعامل الوراثة والبيئة أثره الواضح فى إنبثاق المذهب الشيوعى عن شخصية كارل ماركس وانبعاثه من نفسه التى كانت انعكاساً لهذه المؤثرات .

(٣) ولا يسوغ للباحث فى مثل هذا المجال أن يغفل ما لا يقل أثره خطورة على اتجاه ماركس . عن العاملين السابق الذكر ، ذلك هو عامل الشخصية الخلقية والمقومات السلوكية فى ماركس . ولا ريب أن اتجاه المرء وآراءه إنما تكون غالباً إن لم يكن ذلك على وجه الضرورة انعكاساً لمشخصاته وصفاته وأخلاقه ، وكارل ماركس لم يكن فى هذا المجال على طراز خلقى ممتاز فى أى مقياس من مقاييس الأخلاق وقد سجل ذلك اعترافات أساتذته وزملائه وأصدقائه ويكاد الجميع يتفقون على تميز خلائق

(١) الشيوعية والشيوعيين فى ميزان الإسلام . د. عبد الجليل شلبى . المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها . د عبد الرحمن عميرة ص ١٣٩ .

وخصال وصفات سلوكية محددة كالغرور والأنانية والكذب ، فكارل شورز فى تقويمه لماركس يبرز فيه خليقتى الغرور والاضطراب فى الرأى مما أضفى على سلوكه فظاظة ونفوراً ، فقد قال عنه :

« إنه لم ير فى حياته رجلا بلغ سلوكه من البغضة التى لا تطاق مابلغ كارل ماركس يعامل من يخالف رأيه بكثير من الازدراء والتحقير ولهجته برجوازية ، ومع هذا يسرع باتهام كل من يخالفه بأنه برجوازى ذو عقل ضيق وخلق وضيع » .

ويؤكد باكونين وهو ممن تلقى ماركس على يديه فى أول حياته أوائل دروس الفلسفة والاجتماع تخلقه فيما لا يقبل غموضاً أو خفاء بخلائق الأنانية وحب الذات والغرور المقيت والحقد على كل من يأنس منه شيئاً من مقومات النجاح ومظاهر المنافسة له فى المكانة دون أن يدخر ماركس جهداً فى أن ينال بكلماته وتصرفاته من شخصية هؤلاء وعقولهم وأخلاقهم . وها هو باكولين يقول عنه :

(يحب كارل نفسه أضعاف حبه لأصدقائه ومريديه . وما من صداقة تصمد لحظة إذا مسته لحظة فى غروره وكبريائه . وأيسر من ذلك جداً أن يغفر الإساءة أو الخيانة لدعوته الفلسفية ورسالته الاجتماعية . فإنه ينظر إلى هذه الخيانة نظرته إلى علامة من علامات القصور العقلى أو علامات امتيازه على صديقه فيرى فيها نوعاً من التسلية المرضية . وقد يكون هذا الصديق أحب إليه وأدنى إلى قلبه ، لأنه يأمن أن يكون مزاحماً له فى رسالته أو منافساً على القمة العليا فى شهرته . غير أنه لا يغتفر أبداً أصغر الإساءات إلى شخصه ،

ولابد لك من أن تعبده وتتخذه وثنـاً تصلى بين يديه إن أردت أن تظفر بمودته ، أو لابد لك من أن تخافه وتهابه إن أردت أن يحتملك ويصبر عليك . وهواه دائمـــاً أن يحيط نفسه بالأقزام والحجاب والمتزلفين . ولا يمنـع ذلك أن يحيط به بعض ذوى الأقدار ؛ وقد أعلن باكونين صواب ماركس فى بعض المسائل الفلسفية والسياسية التى اختلفا عليها ، وأن ماركس لا يتورع عن الانتقام من مخالفيه باختلاق التهم عليهم ، وأنه لا يتورع عن الانتقام من أحـد يرتفع إلى المـكانة العليا فى الدعوة الاجتماعية وإن لم يكن بينهما نقاش على الخطأ والصواب .

وقال وهو يذكر حملة ماركس على برودون : إن ماركس ينطوى على خليقتين ذميمتين : الغرور والغيرة وما كان بغضه لـ « برودون » إلا لأنه مشهور جدير بالشهرة ، وما من مسبة يحجم عن صبها على رأسه ، لأنه أنانى يفرط فى أنانيته لحـد الجنون ، وتسمعه يتحدث قائلا : أفـكارى . . أرائى . . وينسى أن الأفـكار والآراء ليست ملـكا لأحد على التخصيص وأن أصلح الآراء لهى تلك التى تتمخض عنها البديهة العامة)[1].

هذه هى اعترافات بعض أصـدقاء ماركس وتقريراتهم للمقومات الخلقية والمـكونات السلوكية لهـذه الشخصية . ولم يـكن دافعهم إلى مثل هذه التقريرات عداوة أو تشهيراً بقدر ما كانت رغبة فى التحليل الموضوعى شأن كل نظرة أو تأمل فى كل شخصية تتمتع بهذا القدر من الأهمية فى نفوس الناظرين والمتأملين .

(١) الشيوعية والإنسانية . عباس محمود العقاد .

وأياً ما كان الدافع فالذى يعنينا هنـا أكثر من أى مقصد آخر هو : أن نتمكن من استيعاب كل ملامح الصورة أو معظمها ، ولا ريب أننا من خلال هذه العجالة قد تمـكنا من ذلك إلى حـد كبير . وبعد أن تبدت لنا شخصية ماركس فى هـــذا الإحباط النفسى والشذوذ الاجتماعى والهبوط الخلقى . فهل يمـكن أن تـكون هـذه الشخصية منبعثة عن فطرة سوية ؟ وهل ينتظر أن يصدر عن صاحب هذه الفطرة المنحرفة وتلك الشخصية الممزقة خير أو نفع لنفسه أو لمجتمعه فضلا عن بنى جنسه على مستوى البشرية جمعاء ؟!

ولم يكن غريباً أن تقترن باسم ماركس . مثل هذه النظرية المادية التى لم يختلف على خطورتها وفسادها شخصان من المنصفين ، أو أن ينبعث من هـذه النفسية الحاقدة الـكنود ، مثل المذهب الذى استمد منها بواعث الهـدم ودوافـع النقمة والتخريب ، ولم يـكن الإصلاح والبناء يوماً من أيام الزمان مذهباً ، أو رسالة لشخصية من هذا الطراز الذى كانت منه شخصية كارل ماركس .

والواقع أن ماركس لم يكن من أصحاب المذاهب الاجتماعية المبتـكرة فقد استمد الأسس الفلسفية لمذهبه من مذاهب فكرية وفلسفية سابقة عليه أو معاصرة له . فالجدلية أو مبدأ النقيض استمده من « هيجل وفيشته » حيث استخدمه الأول فى تأييد العقل والوحى ، واستخدمه الثانى فى تأييد العقل فقط كما استمد ماركس مبدأ تبعية العقل فى وجوده للمادة من « كونت » الذى بنى عليه فلسفته الوضعية ، أما مبدأ التعويض فى الدين فهو مستمد من فلسفة « فيورباخ » الإنسانية وهو الذى اعتبر الإنسانية معبوده وإلهه واعتبر علم الإنسان بديلا للدين ، لـكن ماركس فى استعارته هـذا

الأساس وتلك الفكرة . يعتبر الدولة إلهه ومعبوده ، ويستبدل الدين بالعلم المادى الذى يصلى ويتعبد فى محرابه .

أما فكرة العقل المجرد فقد اقتبسها كذلك من فلسفة « هيجل » ، لكنه استخدمها على نحو (نفسى لا فكرى) يفسر بها التطور الفكرى والحيوى للإنسان .

والنظرية المادية التى تعتبر الوجود بأسره مادة أو جسما ماديا وتعتبر ما فيه من حركة وتطور حدثاً آلياً وتلقائياً ، أو ترجع به إلى أصل مادى . وهذه النظرية ليست من وضع أو تلفيق ماركس ، أو فلاسفة العصر الحديث ، وإنما كان لها وجود منذ ظهور الفلسفة الإغريقية ، والفلاسفة الإغريقيين . وأهم ما أدخله ماركس على النظرية المادية تلك الجدلية الموهومة التى استعارها من هيجل وطبقها على المادة والمجتمعات الإنسانية ، بل إنه فسر بها كل ظاهرة من ظواهر الوجود ، كما برر بها كل صراع اجتماعى ، بل إنه دعى إلى الصراع بين كل طبقتين فى أى مجتمع من المجتمعات كضرورة جدلية لانتصار الطبقة المطحونة من العمال والأجراء على أصحاب العمل وأرباب الأموال لتسترد حقوقها ، وتحظى بكيانها وسيادتها ، وتبلغ فى ذلك غايتها عندما يتحقق المجتمع الخالى من الطبقات ومن كل آثار الطبقية الاجتماعية من مظاهر الظلم والتسلط . ومهما كان التمويه والخداع بسمو الهدف وعلو الغاية وراء جدلية التاريخ فإنها ليست إلا دعوة إلى التقاتل والحرب وتحريض الفقراء على الأغنياء فمادية ماركس تعد على هذا النحو مصدراً من مصادر العنف والاضطراب والفساد فى المجتمعات والشعوب . هذا فضلا عن أن ماركس ربط ماديته الجدلية

بإنكار القيم الروحية ، والأديان والمعتقدات ، فهى أ كثر النظريات المادية غلواً فى العنف والتخريب والإلحاد .

والحقيقة أن ماركس لم يترك مذهباً اجتماعياً متكاملا وإنما قام رفاقه وتلامذته بإكمال وتنقيح المذهب الذى ظل منسوباً إلى ماركس وظل لقب الماركسية عنواناً على المذهب الشيوعى مهما طرأ عليه من إضافات أو تعديلات . وقد ضمن ماركس أهم مبادئه وآرائه الفلسفية والاقتصادية التى قدسها الشيوعيون مع إنجلز رفيقه وشريكه فى تأسيس المذهب .

وأهم هذه الكتب كتاب (بؤس الفلسفة) الذى نشره عام ١٨٤٧ م . ثم تلاه فى الظهور سنة ١٨٤٨ (المانفستو) دستور الشيوعية ، وقد اشترك إنجلز معه فى تأليفه . وفى سنة ١٨٥٩ م صدر له كتاب (نقد الاقتصاد السياسى) أما كتاب (رأس المال) ويعد أهم وأروج كتبه ، فقد صدر منه الجزء الأول عام ١٨٦٧ م ، وتوفى ماركس عام ١٨٨٣ م دون أن يتمه ، وقام إنجلز الذى ساهم مع ماركس فى تأليفه والإنفاق على طبعه بإتمامه فأصدر الجزأين الثانى والثالث .

وهكذا نكون قد سلطنا الأضواء على بعض معالم حياة كارل ماركس مؤسس الشيوعية وإمام الشيوعيون فى هذه الرؤية العابرة .

المادية الديالكتيكية

مصطلح المادية الديالكتيكية قد أطلق على الفلسفة الماركسية فى نظرة الماركسيين إلى الكون بكل مايحتويه ، طبيعته ، وأحداثه ، حية أو غير حية .

وعبارة المادية الديالكتيكية تنحل إلى لفظتين ، وتنطوى على مفهومين هما : لفظتا ومفهوما المادية والديالكتيكية .

وصواب البحث يتطلب تناول كلا منهما على حدته ، من حيث إنه عنصر من عناصر تلك الفلسفة ، أو أساس من أسسها .

فالمادية أولا :

نسبة إلى المادة ، والماركسية معدودة فى مقدمة الفلسفات المادية المعتبرة طبقاً للتصنيف مقابلة للفلسفات الروحية أو المثالية . وفى هذا الاتجاه تعتبر الماركسية المادة هى الحقيقة الفريدة فى هذا الوجود ، وتؤكد ذلك بما تخلعه على المادة من صفات السرمدية والأبدية وبما تزودها من مفاهيم الشمول والموضوعية والاستقلال ، ومن ثم يقرر الماركسيون أنها بهذا المفهوم المصدر الوحيد لجميع أنماط الوجود ، على مدى رحلة الحياة فى شتى مراحلها وأطوارها . بل إن هذا الوجود بكل مايحتويه ما هو إلا المادة وظواهرها . فى نشأته ومساره وتطوره .

والمادة هى أول الموجودات ولا أولية لوجودها .

وما الروح والعقل والإدراك والإحساس إلا نتاج لها أو بعض ثمراتهـــا .

غاية مافى الأمر أنها نتاج أو ثمرة لها متمثلة فى أرقى صورها وأكثرها نظاماً وتعقيداً وهى الدماغ .

فما الوعى الإنسانى أو الأفكار والإحساسات فى حقيقتها إلا انعكاسات للمادة وظواهرها .

أو بعبارة أوضح ما الوعى الإنسانى إلا أرقى ما وصلت إليه المادة من تطور . وهذا هو ما عناه لينين من قوله : إن المادة تثير الإحساس فى الدماغ والأعصاب والشبكية . . . إلخ . ولا يرتبط وجود المادة بالإحساس ، فالمادة هى الشىء الأولى . والإحساس والفكر والشعور هى المنتجات الأرقى للمادة المنظمة بشكل معين[1] .

وإذا كانت المادة هى أقدم الموجودات على الإطلاق . فما هو سر فاعليتها وتطورها من أبسط صورها إلى أرقاها وأعقدها ؟ .

تكشف الماركسية عن هذا السر حينما افترضت حركة أزلية ملازمة للمادة لا تنفك عنها مادام للمادة وجوداً .

أما عن كيفية هذه الحركة أو ما هيتها فلنا معها بيان فى موضع لاحق . وحسبنا هنا أن نعرف بصفة عامة . أن المادة وحركتها الذاتية هما معاً سبب كل تغير وأساس كل صيرورة فى هذا الوجود .

ولم تكن المادة قط بلا حركة ولن تكون . ووهم ذلك الثبات أو السكون الذى قد يخيل إلينا من خصائص هذا الحجر أو تلك

---

(١) المادية والمذهب التجريبى النقدى للينين ص٤٣ .

الصخرة ، أو حتى ذلك الجبل ، فإن ما يحتويه كل منها من ذرات وجسيمات لا تهدأ أبداً عن الحركة الدائبة متمثلة فى عملية الهدم لبعضها والإبقاء على بعضها الآخر بمساندة العوامل الطبيعية .

ولا يعنى ذلك إلا أن ثمة حركة يستبطنها كل جسم وتتخلل كل ظاهرة مهما بدت لنا ساكنة جامدة[1] .

وعلى هذا يمكن أن نتصور ما عناه الماركسيون من أنه لا شيء فى هذا الوجود غير المادة وظواهرها أو ثمراتها .

وإذا كان الأمر كذلك وكان العقل الإنسانى إحدى هذه الظواهر أو الثمرات للمادة على نحو ماسبق قوله . لم يكن ثمة مجال فى الفلسفة الماركسية لتصور وجود الله الخالق المهيمن على هذا الوجود . لا سيما وأن المادة هى الخالقة لجميع الأشياء التى هى ظواهر ومظاهر لها .

وأن الموجودات بأسرها إنما تنحصر داخل هذا الوجود الذى ليس فيه شيء إلا الموجود المادى . والموجود المادى هو ذو وجود موضوعى أى مستقل عن الفكر والتصور الإنسانى .

فإنكار وجود الله إذن يلزم منطق الماركسية على هذا النحو . ويدنينا من هذه النتيجة على نحو أوضح ما يرونه من أن العقل العملى

---

(١) يقول الماركسية ، إن الحركة هى نمط وجود المادة فى أى زمان أو مكان . لم توجد أبداً مادة بلا حركة ولا يمكن أن توجد ، إنجلز فى ضدد وهرنغ . وانظر المادية والمذهب التجريبى لينين ص١٧١ . نقلا عن نقض أوهام المادية الجدلية للدكتور البوطى ص ٣٩ .

الإنسان فضلا عن العقل النظرى هو أيضاً من ثمرات المادة ونتاجها . ويعنون بالعقل العملى ما يشمل الأخلاق والسلوك والمعتقدات .

وقولهم بعدم استقلال العقل نظرياً كان أو عملياً عن المادة يستلزم أن يكون الإنسان مقهوراً ومجبراً بما تمليه عليه العوامل المادية وحتميتها .

فالبيئة ، والوارثة ، والتكيف مع الطبيعة ، والحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية على وجه الخصوص ، كل هذه عوامل تتحكم فى مصير الإنسان ولا تدع له مجالا للاختيار والحرية .

ولكن الماركسيين — وإن اعتبروا الإنسان من بين الظواهر المادية ، إلا أنه — وبصفة خاصة هو الظاهرة الوحيدة التى تتمتع بخاصية القابلية وخاصية التأثير معاً . بشرط ألا يصادم بقدراته قوانين الطبيعة وحتميتها ، بل يجب أن يسير فى سلوكه ، وأن يقوم بدوره فى حدود حتمية القوانين الطبيعية ومقتضيات الوقائع المادية .

ولا غرابة . فمنطق الماركسية فى هذا الصدد يعطى القرار الأول والأخير للجانب الاقتصادى وفعاليته فى كل شىء وفى سائر الأطوار التاريخية لحياة الكائنات ، وهذا ما قصده كل من كارل ماركس وإنجلز من قولها فيما جاء من مجموعة الرسائل المختارة :

إننا نعتبر أن الأحوال الاقتصادية هى العامل الذى يقرر أخيراً أطوار التاريخ ، ولكن النوع الحيوانى هو نفسه عامل من العوامل الاقتصادية . وكثيراً ما جاء فى كلام ماركس وإنجلز أن الإنسان فاعل

منفعل ، وأنه بين القوى المـــادية هو القوة الوحيدة التى لها عقل وإرادة[1] .

وبهذه العبارات القليلة من كلام ماركس وإنجلز نستطيع أن نتصور جانباً من دور الإنسان ومكانته فى الكون طبقاً لهذا المخطط الفلسفى ، وقد انبثق عن سلطان المادة وهيمنتها انبثاقاً شمولياً لا يفلت منه حتى الإنسان ، فهو إحدى صور المـادة على كل حال ، وما تميز به من بعض أنماط التفوق ، لم ينجه من ارتباطه الوثيق بالمادة وقوانينها ، وإن هو إلا أحد العوامل الاقتصادية أو إحدى قوى المـادة كما قال ماركس وإنجلز .

نعم له العقل والإرادة ، لكنه العقل الذى ليس له أن يقضى أو يملى إلا بمقدار ما تقضى له به قوانين الطبيعة الكامنة فى المادة . أو تمليه عليه حتمية تلك القوانين وصرامتها ، وهى الإرادة التى ليس لها أن تتصادم مع سنن المـادة وتشريعاتها التى يقدسها الماركسيون ، ولا يقدسون سواها .

وحرية الإنسان فى نظرهم يمكن تصورها ضمن هذه الحدود التى تضيق وتضيق حتى لا تطبق إلا على الجبر والقهر . فهى لا تكمن — كما يزعم إنجلز — فى الاستقلال الموهوم عن قوانين الطبيعة . وإنما فى معرفة هذه القوانين ، وفى الإمكانية القائمة على هذه المعرفة لإرغام قوانين الطبيعة بصورة منهاجية على الفعل من أجل أهداف معينة .

---

(١) الشيوعية والإنسانية لعباس محمود العقاد ص ٧٨ .

هكذا تنحصر مهمة الإنسان الماركسى فى تنفيذ منهج الطبيعة وتطبيق شرعها ، وليس له أن يعصى أو يتمرد على أوامرها ؛ لأنه بعض مخلوقاتها . وقدراته المختلفة من عقل وشعور وإرادة وهى من خلق المادة ، إنما هى مسخرة فى إمضاء هذه المهمة إن جاز تسميتها بمهمة .

والماركسية وهى تغض من قيمة الإنسان حقيقة على هذا النحو لا تدرك فى العقل الإنسانى وسائر المواهب والقدرات التى زود بها هذا الكائن . إلا أنها مجرد تفسير لبعض مراحل النمو للمادة فى صورتها الراقية ؛ لأن المادة هى الملهم الخالق والموجه لتاريخ العالم الطويل ، بكل مراحله وأطواره وما استوعبته هذه المراحل وتلك الأطوار من شتى النظم وأنماط الفنون والآداب وصور المعتقدات والأديان . إلى غير ذلك من كل ما يدين للمادة وصيرورتها المستمرة فى وجوده ونموه وتطوره ، والتفسير المادى للتاريخ يعد من أهم دعائم الفلسفة الماركسية .

فالظواهر المادية والنظم الاقتصادية وغير ذلك من القوى المادية هى الخالقة والمنتجة لعظماء السياسة والفكر فى شتى أطوار التاريخ ، وتقديس المادة وعبادتها هو دينهم الذى لم يدع مجالا فى فلسفتهم الإيمان بدين من الأديان السماوية فضلا عن غيرها .

فدين الماركسية المادى يجب أن يتمثل فى عبادة الفرد للدولة والمجتمع ، والعلوم المادية تحل محل الوحى والعقل فى مجال المعرفة ، والثواب والعقاب لا ضرورة لإرجائها إلى الحياة الأخرى ، إنما يتحققان فى هذه الحياة فليس ثمة حياة وراءها .

والإلحاد والبراءة من الأديان ليسا أمراً تستلزمه النظرية الماركسية بمنطقها المادى لحسب ، إنما هو من أبرز مبادئها وأشد ضروراتها .

وقد تمسكوا به فى إصرار لا يقل عن إصرارهم على أخطر أركان النظرية ، ومن أقوال ماركس فى إنكار الدين والسخرية منه :

الدين زفرة الكائن المثقل بالألم ، وروح عالم لم تبق فيه روح ، وفكر عالم لم يبق فيه فكر . إنه أفيون الشعب ، إذن فنقد الدين هو الخطوة الأولى لنقد هذا الوادى الغارق فى الدموع[1] .

وتجرد الماركسية الإنسان من الدين حتى تتمكن من صب شريعتها ومبادئها المادية فى عقله ووجدانه .

فالدين هو أفيون الشعوب . وهو وسيلة الطبقة المستغلة لتخدير الطبقة الكادحة من أجل أن لا تنهض المطالبة بحقوقها . إلى غير ذلك من الدعاوى التى أطلقوها على قلب الدين وفى مقتله . مما يتجاوز بنا الاسترسال فى عرضه حدود هذا المبحث الذى التزمنا فيه تفهم مادية الماركسية وما تستلزمه ويستلزمه منطقهم إزاءها من قضايا سنعود إلى تفصيل بعضها .

وقضية رفض الدين كانت إحدى هذه القضايا . وحسبنا الآن أن نضيف إلى ماسبق فيما يتعلق بهذه القضية . أن موقفهم هذا من الدين موقف منطق مع نظريتهم التى ألهت المادة وقدست مشيئتها فى توجيه الكون كله .

---

(١) كارل ماركس : ١٦ وانظر الدفاتر الفلسفية ٢ ص٥٣ ، ٥٧ .

والتى لا ترى الدين فى نهاية تحليلها له أكثر من ظاهرة للمادة مقضى عليها كغيرها من الظواهر بالتغير والصيرورة الدائمة الأبدية ، غير أن حقدهم على الدين دفعهم إلى أن يعتبروه فى عداد الظواهر التى يجب أن تنتهى وتدفن تحت أنقاض المجتمعات المستغلة لحرية الإنسان ومقدراته .

والإنسان يجب أن يبقى فيما يرون حراً ، اللهم إلا من عبودية المادة ، وإلا أن يكون مجرد كائن اقتصادى مسلح بالطمع والجشع ، ونوازع المنفعة والصراع من أجل البقاء ، فى هذا العالم الأبدى الذى لا نهاية لوجوده ، والذى يمتد فى جميع الجهات بلا نهاية .

ونظر الماركسيين ونظرتهم إلى أبدية العالم وأزليته ، يبررها عندهم أن الزمان والمكان وهما الشكلان الأساسيان لهذا العالم يمتدان بلا نهاية .

والمادة التى هى كل العالم وجوهره سرمدية أبدية ، وهذا العالم المادى واحد ، وهو ذلك الخاضع لإحساس الإنسان وشعوره أو المنعكس فيهما ، فليس وراءه أو قبله أو بعده عالم آخر . مما يسمى عالم الغيب أو نحو ذلك . وأجرام السموات ليست فى حقيقتها إلا من جوهر هذه المادة التى نعرفها ، ولابد أن يكون ما وراء ذلك من أجزاء هذا العالم ذاته[1] . ولنا بعد كل ذلك أن نتساءل :

إذا كانت المادة فى الفلسفة الماركسية هى التى أنتجت كل صور

---

(١) نقض أوهام المادية الجدلية الدكتور البوطى ص ٤٠ .

الوجود وجميع أشكال الموجودات ، وليس لأى سبب خارج عن طبيعتها أثر فى شىء من ظواهرها التى هى أشياء الوجود كله وإذا كان سر فاعلية المادة على نحو ماعلمنا هى حركتها الذاتية الملازمة لها أزلا وأبداً . فما هى طبيعة تلك الحركة التى تمر المـادة من خلالها إلى ملايين الملايين من الأنماط والأوضاع المختلفة دائماً للمتطورة أبداً ؟

والجواب عن هذا التساؤل يلزمنا الوفاء بوعدنا فى بداية هذا المبحث ، وهو الوعد ببيـان الشطر الثـانى من عنوانه . أعنى لفظة الديالكتيك .

فإن مفهومها هو الذى سيقدم إلينا تفسير هذه الحركة وطبيعتها .

الديالكتيك مفهومه واستخداماته التاريخية قديماً وحديثاً

ومفهوم الديالكتيك هو الجدل . أو ما يرادفه من الألفاظ التى تفيد تجاذب أطراف الكلام فى صورتين متقابلتين أو قضايا متعارضة ، فإن الديالكتيك كلمة يونانية الأصل .

وأصلها كلمة « ديالكتيكوس » بمعنى المحاجة .

أو أصلها كلمة « ديالوج » بمعنى المحادثة ، والمجادلة ، والحوار .

فالديالكتيك إذن بهذا المفهوم وضع فى الأصل للدلالة على نوع من الكلام أو الفكر بين متحاورين حين يقدم كلاهما رأيين متقابلين .

ولكن الفلسفة قد وضعته اصطلاحاً ، وذلك من باب المجاز على نوع من التغير والتقابل الذى يتم ويقع فى الطبيعة ، وبخاصة حينما يريد بعض الفلاسفة الماديين أن يفسروا كيفية الحركة الذاتية للمادة ، ويصبح هذا التفسير فرضاً تشتد الضرورة إليه . حين تقوم هذه الفلسفة أو تلك على نفى أى تأثير خارجى فى شىء من أشياء الوجود المادى أو وقائعه .

وقد استخدم مصطلح الديالكتيك فى الفلسفة اليونانية قبل الميلاد فى معناه الحقيقى والمجازى معاً .

(أ) ويذكرون أن « هيرقليطس » هو أول من استخدم الديالكتيك كمصطلح علمى ، أطلقه على تغير الظواهر الطبيعية والأشياء الكونية وصيرورتها الدائمة .

وقد عبر عن هذه الصيرورة وذلك التغير بتجدد ماء النهر المتدفق دائماً ، ويقول فى هذا : (نحن لا نستحم فى النهر الواحد مرتين ، بل إن مياهاً جديدة تجرى من حولنا دائماً .)[١].

(ب) واستخدم زينون الأيلى الديالكتيك فى طريقته فى المحاجة ، وهى تقوم على دحض رأى الخصم وذلك بالتسليم جدلا به ، حتى يلجىء الخصم إلى التسليم ببطلان رأيه .

ويكاد يكون ذلك أيضاً هو نطاق الجدل السوفسطائى وشكله .

(ج) ثم استخدم عند سقراط على أنه فن تحديد وتوضيح المعانى الصحيحة والمفاهيم الكلية باستخلاص التعريف الصحيح ورفض غير الصحيح .

(د) والجدل الأفلاطونى يفهم فى ضوء عملية تصنيف المثل وترتيبها فى نمط تصاعدى وربطها بالمثال الأعلى .. الخ .

(هـ) وجعله أرسطو فى مقابلة البرهنة الحقيقية المبنية على مقدمات يقينية ؛ لأن الجدل عنده يبنى على مقدمات ظنية قائمة على رأى الأغلبية .

(و) وابتداءاً من الرواقيين حتى نهاية العصور الوسطى اعتبر الجدل إما جزءاً من المنطق أو مرادفاً له .

أما فى الفلسفة الحديثة : فقد أسبغت على مصطلح الجدل بعض الدلالات الخاصة .

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٨ .

(ز) فى الفلسفة النقدية عند كانط نجد الجزء الخاص بالجدل المتعالى يسعى للكشف عن الوهم الذى تنطوى عليه محاولة استخدام المقولات والمبادىء الخاصة بالعقل فيما وراء حدود الظاهر والتجارب الحية [1] .

(ح) وعندما أراد « فيشته » فى العصر الحديث التخلص من إله الكنيسة ، استخدم الجدلية . أو مبدأ النقيض — وهو أحد إطلاقاتها فى الفلسفة الحديثة — للتدليل على أسبقية العقل الإنسانى فى الوجود ، وأنه الوجود الحقيقى الذى لا يتوقف وجـــوده على غيره ، وأن له القدرة على الخلق ، وأن حريته مطلقة لا يحدها شاهد ولا حس ولا وحى . وأن المجتمع الإنسانى والقانون والدولة والخلقية من آثاره وأن هدفه الأخير إقامة الروابط الأخوية بين الناس فى ظل دولة علمية .

(ط) أما الفيلسوف الألمانى « جورج هيجل » فقد اتخذ من الديالكتيك أساساً لمثاليته وفكريته ، وليستدل بواسطته على وجود العقل من ناحية ، وعلى وجود الله من ناحية أخرى .

ويعنى هيجل بالديالكتيك عملية التناقض والتوفيق التى تتم باضطراد فى الطبيعة وبين ظواهرها ، والتى تدفع حركة الموجودات نحو التحسين والكمال حتى تصل إلى الوحدة الأولى . .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ج ٧ ص ٣١٤ ط ١٩٦٠ م ، وانظر المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ص ١٢٨ .

والجدلية عند هيجل تفترض أن تمر الموجودات والأطـــوار التاريخية من خلال الحركة والفعل فى مراحل ثلاث هى : مراحـل الفعل ونقيضه ، والمركب من الفعل ونقيضه . وذلك إنما يتضح من خلال مذهبه وفلسفته الـكونية على النحو الآتى :

يفترض هيجل صاحب المثـــالية الحديثة أن أول الموجودات وأسبقها جميعاً هو الفـكرة المطلقة ، وقد يسميها (العقل المطلق) وقد يتصور أنه الإله ، ومن ثم يصفه بالوحدة ، والأزلية ، والأبدية ، والقدرة على كل شىء ؛ لـكن اتصافه بهذه الصفات إنمـا هو بالقوة والقابلية ، فإذا أراد تحقيقها بالفعل ، فإنما سبيل ذلك أن يحققها فى ظهور الوجود الواقعى وفى أطوار التاريخ ، وذلك بواسـطة الإبداع والخلق .

فوجود الأشياء فى الواقع الطبيعى ، (إنمـا هو ثمرة الإبداع الفـكرى له . فالفـكر يبـدع الشىء صورة ومثالا ، ثم يدفعه إلى الصعيد الخارجى حقيقة مطابقة لذلك المثال . فكما أن الوجود الأصلى للشجرة كامن فى نواتها ، والوجود الأصلى للبناء كامن فى خارطته ، والوجود الأصلى للأنغام التى تنبعث من العزف على الآلات المشاهدة كامن فى مدونة اللحن « النوتة » ـ كذلك الوجود الأصلى لأى شىء من الموجودات التى نراها من حولنا ، كامن فى جذورها التى أشرقت قبل كل شىء مثالا وتصوراً فى ساحة الفـكر)[1] .

وهذه الطبيعة بما فيها وما عليها وقد انبثقت عن الفـكرة أو العقل

---

(١) انظر نقض أوهام الجدلية للدكـتور البوطى ص ١٩ .

المطلق على نحو ما مر ، إنما تغايره فى صفاته كلها ، إذ هى متفرقة ومتكثرة ومحدودة البداية والنهاية .

وبانتقال الفكرة المطلقة اللامحدودة من العقل المطلق إلى الطبيعة تصبح مقيدة ومحدودة ، حيث كان وجودها بالفعل ، أو بعبارة أوضح : حيث انتقلت إلى الموجودات الواقعية التى هى مقيدة ومحدودة ، ومن هنا صح القول : بأن الطبيعة هى نقيض الفكرة المطلقة أو العقل المطلق ، وغاية الفكرة بعد تجسدها صوراً واقعية فى الطبيعة أن تحصل على وحدتها الأولى فى الوجود المطلق ، فلا تنفك تسعى إلى تحصيلها كلما مرت بطور من أطوار المعرفة الآخذة فى النمو ، ووسيلتها إلى هذا التحصيل هو العقل المجرد .

وإذا كان هيجل قد افترض أن العقل المطلق هو إحدى مراحل الديالكتيك وأولاها ، وهو ما يرمز له بالقضية ، فإن نقيضها هو الوجود الواقعى ، والعقل المجرد حينئذ هو المركب من القضية ونقيضها .

(فالفكرة فى نظر هيجل انتقلت من ذاتها كعقل مطلق إلى نقيضها وهو الطبيعة كعقل مقيد ، ثم انتقلت من النقيض إلى جامع يلتقى فيه الشىء ونقيضه وهو العقل المجرد الذى يكون فى صورة اتصال العالم بعضه ببعض ، سواء ما يأخذ منه طريقه إلى الظهور أو ما يظهر بالفعل . وهذا العقل المجرد يتمثل فى القانون والأخلاق والفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة .

وإذن فالعقل المجرد الذى يتحقق فى أى واحدة من هذه القيم

العامة المذكورة جامع للمتقابلين ، جامع للفكرة فى العقل المطلق وهو الله ، وللفكرة فى العقل المقيد وهو الطبيعة ، إذ ليس له إطلاق العقل المطلق ، ولا تحديد عقل الطبيعة ، بل فيه إطلاق بالنسبة إلى الطبيعة وفيه تقييد بالنسبة إلى العقل المطلق ، ولذا يعتبر جامع القضية ومقابلها)[1] وانتقال الموجودات على هذا النحو فى الثلاثية الديالكتيكية وهى : القضية ونقيضها ، والتوفيق بين النقيضين فى شىء واحد يجمع بين مزايا النقيضين ، إنما هو عملية تتم فى خط دائرى لا يتوقف دون الكمال لأشياء الوجود وأطواره ، فما أن يصل الموجود إلى مرحلة التركيب حتى يرتد ثانية إلى القضية ويصبح مشروعاً جديداً . لكنه أكثر غناء وثراء ثم يتكرر التناقض وتنتقل القضية إلى نقيضها ، حتى إذا آن الأوان انتهى الأمر إلى المركب من القضية ونقيضها . وهكذا تتكرر هذه الثلاثية الديالكتيكية فى هذا الخط الدائرى . حيث تتحقق كل مرة على صعيد أكمل وأوسع ، (وعلى هذا النمط المتتابع يتطور التاريخ وتتقدم المعرفة والحرية ، لأنها معرفة تأتى من وجوه متعددة ، وتأتى بعد الخلاص من قيود النقائض التى يحد بعضها بعضاً ، فكل نقيضة منها تحد ما يقابلها .

والتناقض على هذا هو دافع الحركة ودافع التقدم والحرية ، إلى أن يبطل التناقض فى الأجزاء باحتوائها جميعاً فى الكل ، حيث لا يوجد شىء خارجة ولا يوجد من ثم شىء يناقضه ، فهو الحرية بغير حدود والمعرفة بغير مجهول . . .

---

(١) انظر حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون لعبد الحليم خفاجى . ص ١٣١ وما بعدها .

وعلى حسب مذهب هيجل هذا يمكن أن يقال : إن الفوضى الأولى فى المجتمعات البدائية تبعتها السلطة المطلقة ، ثم اجتمع من الفوضى والسلطة المطلقة نظام الاستبداد المحدود فى نظم الحكومات الديمقراطية والامبراطورية والمتحدة ، كأنها حلقات الماء التى تحيط كل حلقة منها بالحلقات التى تقدمتها ، ثم تتسع وتتسع ، ولا تزال فى كل مرة قابلة للإحاطة بما قبلها والامتداد إلى ما بعدها .

وتتعدد مظاهر التاريخ عند هيجل ، فتدل عليها الأفكار والفنون ، كما تدل عليها الدول والنظم والقوانين . . وتخلق فينا هذه المظاهر بواعث الرجاء ، ثم تأتى بعدها بواعث اليأس مما كنا نرجوه . فما يقوينا وينهض بعزائمنا اليوم يعود فيملأ نفوسنا باليأس لكى نتخطاه ونتطلع إلى رجاء أعظم وأبقى ، ومن هنا تترقى الأديان والمعتقدات وتترقى المعرفة وشعائر الإيمان . فكل إيمان فى حالة من أحوال المعرفة يتبعه إيمان أعظم منه فى حالة أعلى وأوسع من تلك الأحوال)[1] .

(ى) ونحن هنا لا يعنينا أن نرى ما تنطوى عليه فلسفة هيجل فى جدليته هذه من عيوب ومآخذ ، بقدر ما يعنينا أن نبرز تبعية ماركس والمؤمنين به فى أساس من أهم أسس النظرية الماركسية ، وتأثرهم بهيجل ، حيث استعانوا بقانون التناقض أو الديالكتيك الهيجلى فى تلفيق جدليته ، بل زعموا أنهم صححوا مسار الجدلية التى سار هيجل بها فى اتجاه غير صحيح ، وأنهم قد اكتفوا من الجدلية الديالكتيكية عند هيجل بإطارها وقوانينها ولم يسلموا بمحتواها .

---

(١) انظر الشيوعية والإنسانية لعباس محمود العقاد ص ٧١ .

وها هو لينين يقول فى تعليقاته الفلسفية التى نشرت بعد موته : (أن كتاب رأس المال لا معنى له بغير مذهب هيجل القائم على تطور النقائض أو الثنائية) .

ولم يكن من المنطقى أن يلفق الماركسيون لمذهبهم من بعض أسس ومبادىء هيجل ، فهو صاحب المثالية الحديثة الذى لا يرى وجوداً حقيقياً إلا فى الفكرة ، والذى برهن باستخدامه للديالكتيك على سيادة العقل على الطبيعة بينما لا يرى ماركس حقيقة فى هذا الوجود إلا المادة وظواهرها .

ومن هنا أفرغ ماركس مذهب هيجل من مضمونه المثالى ليصب به مبادئه وأفكاره . ومع صنيعه هذا لا يتورع أن يقول معللا تطبيق جدلية هيجل على المادة : (إذا كان الفكر جدلياً فذلك لأن الواقع جدلى) .

ثم يقول : (ليست طريقتى الجدلية مختلفة فحسب عن طريقة هيجل ، وإنما هى نقيضها المباشر ، فهيجل يرى أن عملية التفكير هى الخالق للعالم الحقيقى والعالم الحقيق ليس إلا المظهر الخارجى للفكرة . أما أنا فأرى من ناحية أخرى أن المثل الأعلى ما هو إلا العالم المادى الذى يعكسه العقل البشرى وتترجمه عبارات التفكير)[١] .

---

(١) انظر حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون — لعبد الحليم خفاجى ص ١٣٢ .

هكذا يمضى ماركس بجدليته فى الإتجاه المناقض لاتجاه هيجل مع إبقائه على الأسس والقوانين الهيجلية . فبينما تتم الثلاثية الجدلية عند هيجل بين الفكر والمادة على نحو ما سبق توضيحه ، فإن ماركس يجعل موضوع الجدلية هو المادة فحسب ، فالرحلة الدائرية ذات الأركان الثلاثة . التى هى القضية . ونقيضها ، والمركب منهما ، لامجال لحقيقتها وانطلاقها فى غير جنبات المادة وظواهرها ، دون أن يستند ذلك إلى أية علة خارجية .

والفكر - كما ذكرنا غير مرة - أحد آثار الحركة الجدلية ، بل إن كل ما فى هذا العالم من نمو وتطور هو نتيجة هذه الحركة أو الرحلة الجدلية التى تتكرر وتطرد بغير إنقطاع أو توقف . وهى تتكرر متجددة محققة خطوة كل مرة من مرات الدفع الديالكتيكى فى سبيل النمو والتطور ولا تسير فى خط ثابت مستقيم لأنها لولبية متصاعدة نحو الإبداع والإنتاج لصور المادة التى هى صور الموجودات بأسرها ولأطوار التاريخ جميعها .

ويتضح ذلك فى تحول الموجودات وتغيرها طبقاً لمراحل العملية الديالكتيكية التى سبق بها هيجل ، فتبدأ فى صورتها البسيطة وهى ما اصطلحنا عليها بالقضية ، وهى هنا كامنة فى أحشاء المادة ذاتها أى خارجة ومستقلة عن الوعى الإنسانى ، إنها إنبثاق مشروع يتجه نحو الأكمل .

ثم المرحلة الثانية : وهى مرحلة النقيض ، أو النفى الأول :

ويتجلى فى الانعكاسات التى تأتى رداً ، أو نتيجة للانبثاق ، أى القضية .

ثم المرحلة الثالثة وهى مرحلة التركيب أو نفى النفى : وفى هذه المرحلة تبلغ تلك الانعكاسات أرقى مستوى ممكن متمثلا فى التأليف بين مزايا كل من القضية ونقيضها ، ثم يبدأ التناقض من جديد حين تتم هـذه المرحلة وتتلاشى حقيقتها .

فتنبت فى أحضانها وتشتق من بنيتها قضية جديدة أكمل وأغنى من القضية السابقة . ثم ينعكس عنها النقيض نتيجة وجواباً ، وعنه ينعكس التركيب ، ثم تتـكرر الدورة فى نمط متصاعد لا يتوقف أبداً .

ويمـكننا توضيح ذلك بمثالين نبدأهما بمثال مبسط :

(إن انبثاق حبة الحنطة فى الأرض عن عوامل داخلية متجهة نحو الإنبات ، هو ما نعنيه بالقضية . فإذا انعكس عن تلك العوامل النبات الأخضر المتصاعد فهو النقيض ، أى النفى الأول . ثم إذا عاد النبات سنبلا متراكباً من الحنطة فذلك هو التركيب أى نفى النفى ، إنه تركيب القضية مع النتيجة التى جاءت معها متوافقة . ثم إن حبات تلك السنبلة ما تلبث هى الأخرى أن يتحول كل منها إلى قضية من جديد . وهكذا دواليك .

وهناك مثال آخر أكثر دقة مما قبله :

وهو أن الخلية فى جسم الإنسان تنبثق من داخلها عوامل تفتتها وفنائها بعد حين .

وهـذه هى القضية ؛ ولأنها تحمل بموجب ذلك نفسه عوامل ظهور خلية جديدة أخرى ، وهـــذه العوامل إذ يبدأ ميلادها هى النقيض .

فإذا انبثقت من تلك العوامل الخلية الجديدة التى تحل محل سابقتها فذلك هو التركيب الذى يسمونه أيضاً بنفى النفى)[١] .

هذا إذن هو الديالـكتيك أو قانون التناقض كما يسميه الماركسية .

ويردون إليه كل شكل من أشكال التطور ، ويربطون بتأثيره السحرى كل الأحداث والوقائع فى هذا الـكون .

---

(١) انظر نقض أوهام المادية الجدلية ص ٣٢ .

قوانين الجدل

ولكن هذا الثالوث الخارق فيما يرى الماركسية إنما يستمد قوته وفاعليته من مجموعة قوانين مادية تتظاهر جميعها وتتساند على دفع الديالكتيك على الفعل المستمر والإبداع المتتابع .

وهذه هي القوانين التي تكون مع الديالكتيك أو قانون التناقض أسرة قوانين الجدل ، ونعني بها قانون الحركة ، وقانون التغير وقانون الترابط .

(ا) فأما قانون الحركة فخلاصته : أن الحركة هي الصفة الذاتية لكل الكائنات والأشياء المادية ، وتفترض الماركسية صدور الحركة من داخل المادة نتيجة لصراع الأضداد والمتناقضات التي تتحد وتتزاحم في كل صورة من صور المادة مهما بلغت من الصغر والضآلة .

وهذه الحركة هي مصدر التطور الأبدي للكائنات ، إذ أنها تسير وتنطلق في خط حلزوني فتحل بذلك مشكلة التناقض والصراع المستمرين .

(ب) أما قانون التغير فخلاصته أيضاً : أنه الانتقال بالحركة الدائمة من التغير الكمي إلى التغير الكيفي . وذلك حين يضاف شرط خارجي إلى الحركة الناتجة من الصراع والتناقض فإن ظاهرة التراكمات الكمية أو ما يسمى بالتغير الكمي تبدأ حينئذ . ثم تتطور تدريجياً حتى يتم تكون الكم الثوري وهو المعنى بتكون القدر الكافي من التراكمات

فينتج عنه حينئذ تغير كيفى مفاجىء فى الظاهرة المادية . فالحجارة التى تتراكم شيئاً فشيئاً فى مجرى النهر ، تتحول عند حد معين من تطورها الكمى إلى كيفية جديدة لم تكن من قبل . إذ أنك تنظر فترى ركام الحجارة وقد أصبح سداً . والسد كيفية جديدة نتجت عن التطور الكمى للحجارة .

والماء الذى تشتد سخونته شيئاً فشيئاً ، تطرأ عليه تغيرات تتعلق بالكم . إذ ترتفع درجة حرارته من ٥٠ إلى ٦٠ إلى ٧٠ درجة وهكذا . ولكنه ما أن يتجاوز المائة حتى يتحول الماء من جراء ذلك إلى بخار ، أى إلى كيفية جديدة ولا يخفى أن جرف الماء فى المثال الأول هو الشرط الخارجى الذى طرأ على الحركة . وهو فى المثال الثانى النار وسيلة تسخين الماء .

(ج) ثم نأتى إلى القانون الثالث وهو قانون الترابط وخلاصته :

أنه نتيجة لترابط الظواهر المادية فإن كل ظاهرة منها تؤثر فى الأخرى الكل يؤثر فى الجزء والجزء يؤثر فى الكل على أن يوضع ذلك فى الاعتبار عند بحث أى قانون .

والقوانين الثلاثة أى بإضافة قانون التناقض إلى القانونين سالفى الذكر تعمل فى إطار القانون الأخير .

وهذه القوانين الثلاثة هى قوانين الجدل التى يتحكم الديالكتيك فى تشكيل الكائنات وترقية أنواعها تحت سلطانها ، وفى رعاياتها .

ومن هنا ترى الماركسية أن المنهج العلمى للبحث فى إطار الفلسفة المادية . هو المنهج الجدلى المتمثل فى مراعاة قوانين المادة ، أو الطبيعة التى تشكل القوانين الجدلية طائفة منها .

وتتلخص خطواته أولا :

(فى البحث عن الأساس المادى فى الظاهرة موضوع البحث ، لتحقق بذلك أسبقية المادة على الفكر وهو القانون الأول للمادة .

ثم بعد ذلك نبحث عن قوانين الجدل داخل هذه الظاهرة ، ونبدأ بالكشف عن قانون التناقض ، ثم نتابع الصراع بين النيقضين أو نزكيه بينهما . وهذا هو مدى الدور البشرى فى الفعل حتى يتحقق التغير الكمى فالتغير الكيفى .

كل هذا من خلال إدراك قانون الترابط .

وبتطبيق هذا المنهج المادى الجدلى على التاريخ ، أى على المجتمعات البشرية باعتبارها ظاهرة مادية يمكن تقسيمها إلى عصور مختلفة من خلال ما يسمى بالتفسير المادى للتاريخ أو المادية التاريخية[1] .

---

(١) انظر حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون ص ١٩ وما بعدها .

المادية الجدلية فى التحلل المنطقى والعلمى

بعد وقوفنا على مفهوم المادية الجدلية يمكننا الآن أن نضع هذا المفهوم تحت التحليل الدقيق للمنطق والعلم بما يسمحنا من موضوعية وحيدة راضين بالحكم النهائى فى كلمتها الأخيرة والفاصلة فى هذه القضية .

وإن رغبتنا لشديدة إلى معرفة ما إذا كانت جدلية المادة حقيقة علمية ثابتة ، أو أنها - كما يقولون - مجرد فرضية لفظية لجأ إليها الماركسيون من أجل تفسير الحركة المجهولة للمادة ، ومن أجل تطبيق القوانين الهيجلية على الطبيعة بصفة عامة .

وجدلية المادة كما تفهم فى ضوء ما سبق توضيحه من قوانين الجدل أو الديالكتيك ، إنما تقوم على أساس أن أجزاء المادة محتوية على أضداد ونقائض متصارعة ، وأن صراع الأضداد هذا هو المحرك للمادة حركتها الديالكتيكية التى تتحول فيها من الكيفيات الأبسط إلى الكيفيات الأكثر تعقيداً . وذلك بقضاء بعض النقائض والأضداد على البعض الآخر كما سبق تفصيله . وهذا الصراع بين الأضداد ومايتتج عنه من حركة وتحول إنما يحدث حدوثاً ذاتياً داخل أحشاء المادة عندما يضاف إليها شرط خارجى على نحو ما تقدم أيضاً .

فصراع الأضداد إذن المتحدة فى الذرة التى هى وحدة الكون وأساس البنية المادية هو مصدر الحركة وباعث التطور فى الطبيعة

بأسرها ، قرر ذلك كارل ماركس وإنجلز وسائر رفاقهم وتلاميذهم من رواد فلسفة المادية الجدلية .

وجدلية الطبيعة والمادة إذن قامت عندهم على هذا الأساس . فهل عناصر المادة تنطوى ذراتها حقاً على الأضداد والنقائض ثم على ضرورة الصراع والتنافر بينها بعثاً للحركة فى صورتها الجدلية فى اتجاه التأليف والتوازن بين ظواهر الطبيعة ؟ أم أن العكس هو الصحيح من أن أصل الحركة ومصدر التطور للموجودات وظواهرها هو التوازن المتمثل فى حركتها حول محور ثابت ، وأن الصراع إنما يحدث بينها بسبب خلل فى هذا التوازن . وحينئذ يصبح الصراع بين الموجودات عائقاً للحركة معطلا للتطور ؟

هل يشبع المنطق والعلم بإجابتها عن هذا التساؤل ؟ الشق الأول منه كما يرغب الماركسيون أم يشبع الشق الثانى ، فينهدم أهم أساس قامت عليه جدلية المادة والطبيعة ؟

الماركسيون يغالطون المنطق :

ولاريب أن الماركسيين يخطئون أو يغالطون على الأقل فى تناول مفهوم التضاد والتناقض ، فيستخدمونه استخداماً غير ما عرف فى فن المنطق لخلق مناخ لذلك الصراع المفتعل بين جزيئات المادة ، ثم بين عناصر الموجودات تبريراً لفلسفتهم الجدلية . فالضدان فى مصطلحات المنطق هما أمران لا يجتمعان وقد يرتفعان ، والنقيضان أمران لا يجتمعان ولا يرتفعان .

فالبياض والسواد ضدان وهما لا يجتمعان فى جسم واحد فى نفس الوقت ، وقد يرتفعان حين يحل محلهما لون آخر . والشيوعى وغير الشيوعى نقيضان لا يجتمعان فى لينين مثلا ولا يرتفعان ، على أساس أن كل إنسان إما تابعاً المذهب الشيوعى وإما غير تابع له بأن يكون له اتجاه آخر إلى أى مذهب آخر أو عقيدة مخالفة . وفى معنى التناقض التضاد بين الحركة والسكون من كل تضاديين الشىء والمساوى له .

ولا يتحقق التناقض والتضاد إلا إذا اتحد النقيضان أو الضدان فى الجهات الثمانية من الموضوع والمحمول ، والزمان ، والمكان ، والإضافة والقوة والفعل ، والكلية والجزئية ، والشرط .

وعلى هذا ، فهل ما تصوره الماديون الجدليون من التضاد أو التناقض كامناً فى جزئيات المادة وذراتها حقيقة أم وهم وخيال ؟

ولنتتبع الإجابة عن هذا التساؤل فيما أوردوه من الأمثلة على التضاد بين الأشياء :

(ا) فقد زعموا أن ثمة تضادا بين الوعى والمجتمع من حيث إن كلا منهما مؤثر فى الآخر ومتأثر به .

والواقع أنه لا تضاد ولا تناقض بينهما ؛ لأن الجهة منفكة ، فالمجتمع يؤثر فى الوعى الإنسانى بما يحتويه من معارف وتقاليد وثقافات وحقائق راهنة .

والوعى الإنسانى يؤثر فى المجتمع بالتوجيه وتصحيح المسار فيما يتعلق بالمستقبل ، فجهة التأثير والتأثر هنا منفكة على هذا النحو .

أو لنقل : إن الوعى الإنسانى بالنسبة إلى المجتمع السابق عليه متأثر ومنفعل ، وبالنسبة المجتمع اللاحق له فاعل ومؤثر فيه . فقد خلط الجدليون فى هذا المثال بين التضاد والتضايف .

(ب) كما زعموا أن هناك نوعاً آخر من التضاد بين القوى المتعاكسة فى الذات الواحدة وهو كذلك تضاد وهمى . إذ يرجع (إما إلى التفاعل الإضافى كمثال الوعى والمجتمع ، وما يتم فى خلايا الجسم ، وضمن جزيئات الخلية الواحدة ، وإما إلى الحركة أو القوة المستوعبة للأخرى كالحركة المضادة لقوى الجاذبية والناشئة ضمن فلكها ، وكتلاقى السالب والموجب فى التركيب والتحليلات الكيميائية . إن القوى الجزئية التى تتحرك بشكل معاكس ضمن نطاق جاذبية ما ، لا يمكن أن تنعت فى ميزان المنطق والعلم بوحدة التضاد . إلا إذا جاز لهـذا الميزان ذات يوم أن ينعت حركة رجل يسرع فوق ظهر سفينة نحو الشرق ، بينما تمخر هى عباب البحر متجهة إلى الغرب . بأنها من قبيل وحدة الأضداد)[1] .

(جـ) التضاد الكامن فى الأشـــياء بين قوتى الجذب والطرد المتصارعتين فى كل شىء ، قال ذلك الماركسيون حينما استندوا فى تفسير الحركة على قوانين نيوتن الذى انتهى إلى أن قانون القصور الذاتى وقانون الجاذبية متناقضان ، فالجسم يظل فى حركته ، أو سكونه خلال خط مستقيم ما لم تؤثر عليه قوة مضادة وهى الجاذبية .

---

(١) نقض أوهام المادية الجدلية د/ البوطى ص ٦٤ .

وبناء على هذا - كما قلنا - قرر الماديون الجدليون أن كل شيء ينطوى على قوتين متناقضتين : قوتى الجذب والطرد .

ولكن العلم الذى لايعرف الكلمة الأخيرة . قد فند هذا الفرض على يد أنشتاين الذى أثبت أن الجاذبية ليست قوة ، وأن القول بتجاذب جسمين ماديين ضرب من الوهم والخداع ، وليس ثمة تضاد بين القصور الذاتى والجاذبية ، بل هما وحدة متكاملة .

(د) أما ذلك التناقض بين مكونات الذرة ، وما نتج عنه من صراع حتمى لحله بواسطة التغير ، فإن العلم فى النصف الثانى من القرن العشرين يدحض هذا التصور الذى تشبث به الماديون الجدليون ، بل ويبطل الفرض العلمى الذى اعتمدوا عليه . وهو أن الجمع بين جزأين ذوى شحنتين كهربائيتين ينتج عنه أنهما يتجاذبان إن كانت الشحنتان مختلفتين ، أى موجبة وسالبة ، ويتنافران إن كانت الشحنتان متفقتين موجبتين أو سالبتين .

هذا ما كان يستلزمه قانون كولومب الذى ثبت عدم اضطراده فى هذا القرن ، فهناك مسافة يبطل عندها هذا القانون وهى جزء من ثلاثين مليون من السنتيمتر وهو ما يعادله $\frac{1}{٨}$ قطر أكبر ذرة .

كما أصبح من بديهيات العلم الآن أن التوازن والتعادل هما محور حركة الذرة وقوام بنيتها . فمكوناتها من الألكترونات والبروتونات متساوية ، ومكوناتها من النيوترونات متعادلة .

ومن ثم يؤكد العلم خلو الذرة من التناقض والتنافر .

وإذا كانت الذرة هى وحدة المادة ومكونها الأساسى ، فلا يمكن

أن يكون التناقض والصراع من الخواص الذاتيـة المـادة كما تصوره الماركسيون .

(هـ) ثم إنه لم يعد التناقض الموهوم قائماً بين المادة والطاقة الذى برر بة الماركسيون جدلية الطبيعة ، وبخاصة بعد أن أثبت العلم فى هذا القرن أيضاً وحدة المادة والطاقة . فلم تظلا شيئين متناقضين ، ولم يصح أن المـادة هى ذلك الشىء الخامل الذى يميز بالـكتلة ، ولم تعد الطاقة الشىء النشيط الذى لا كتلة له .

وإنما أصبحتا شيئاً واحداً ، فما المادة إلا طاقة مركزة ، وما الطاقة إلا مادة تسير بسرعة الضوء . وهكذا تزيل الجهود العلمية التناقض الـكامن فى بنية الطبيـــعة وتفند جدليتها بنفس المنهج العلمى الذى لا إيمـان للماديين الجدليين بسواه . وبات العالم لا يحتاج إلى جدلية الماركسيين فى تفسير حركة الطبيعة ، أو تحول المادة من نوع أو أنواع مختلفة ، بل إن هذا التحول للمادة إلى أنواع أو تركيبات جديدة إنما يتم بواسطة التأثير الخارجى عنها كالتعديل والترتيب فى عدد الألـكترونات والبرتوونات المـكونة للذرة ، أو كاندماج الذرات ، كما إذا أتى بذرتين مختلفتين فى درجة التشبع فأدمجناهما . فإننا بذلك الإدماج نـكون قد كونا ذرة ثالثة من نوع ثالث ، وذلك يتعارض مع الأساس الذى قام عليه القانون المـاركسى ، وهو أن تحول المـادة إلى تركيب أو نوع جديد إنما يتم داخل المادة بطريقة ذاتية .

وينقل بعض الـكاتبين عن مؤلفى أسس الماركسية اللينينية ما اعترفوا به فى هذا الـكتاب من عدم جدلية الطبيعة والمـادة . فقد ذكروا أن المادة فى عالم المرئيات وعالم غير المرئيات ـ الذرى ـ لا يحركها ولا يحدد

مستقبلها التناقض الجدلى فى ذاتها، أى أن المادة فى العالمين غير جدلية. قالوا ذلك فى الطبعة الأولى باللغة الانجليزية من كتاب «أسس الماركسية اللينينية». التى لا تحمل تاريخ نشر ص ٨١ – ٨٢ تحت عنوان: «الحتمية والعلم الحديث». أما الطبعة الثانية من الكتاب سنة ١٩٦٣ وما تلاها من طبعات سنة ١٩٦٤، فقد جاء الحديث تحت نفس العنوان خلواً من العبارات التى وجدت فى الطبعة الأولى أو من بديل لها فى صفحة ٦٩ – ٧٠[1].

وهكذا يفضح تسعة وثلاثون عالماً هم مؤلفوا أسس الماركسية اللينينية مهزلة القول بجدلية المادة والطبيعة، ويرفضون تفسير حركة الكون بقانون التناقض الجدلى الذى هو أساس النظرية الماركسية، ولب فلسفة الماركسيين.

---

(١) انظر حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون – عبد الحليم خفاجى.

التوازن والحب هما محور الحياة فى حركتها وتطورها

إذا كان المنطق والعلم قد فندا اعتبـار صراع الأضداد المتزاحمة فى المادة وأجزائها أساساً لمسيرة المادة فى حركتها الجدلية نحو التطور والتعقد ، فإن المنطق والعلم أنفسهما لا يجدان بدأ من أن يثبتا قيام الحياة بجميع ظواهرها على التوازن والحب والتزاوج والوئام ، وإلا فتى أنتج الصراع والعدوان سعادة أو أماناً أو استقراراً فى حياة الإنسان على مستوى المجتمعات أو الأفراد ؟ .

وهل كان الصراع والحرب والعدوان سبيلا إلا إلى الفناء والخراب والدمار . وبخاصة إذا غلظت الغاية واستفحش الهدف وسعى أنصار الصراع والحرب على أن تتفوق المـادية ، وتموت الروحية ، وتسمو الحيوانية ، وتذل الإنسانية ، وتذوب الأخلاق والقيم فى تخمة البطن وفودة الدم ووفرة الشحم ؟ .

ومن البدهى الذى لا يناقش فيه على المستوى السطحى فضلا عن الفلسفى والعلمى أن الخصب والتكاثر وبقاء النوع أمور متوقفة على الوئام والحب ، متمثلين فى التزاوج بين أنواع الإنسان والحيوان والنبات وأن أنماط الحضارة وصور الحياة المتكاملة أمور مبنية على الاجتماع والتعاون والتكامل ، وعالم المـادة لا يخالف فى قوانينه هذا السنن ولا ينهج غير هذا النهج فى قصة تكوين المادة وعناصرها .

ويؤيد الدكتور عبد المحسن صالح هذه الحقيقة بما أورده من أمثلة

علية تحليلية لكيفية تكون أنواع المادة من الذرات المتآلفة المتجاورة غير المتناقضة أو المتصارعة . فيقول فى كتابه « دورات الحياة » .

الذى يجمع بين الذرات أو يفرق بينها هو قوانين الذرات نفسها ، أو قوانين الألكترونات الخارجية ، وهى أروع وأدق من قوانين الزواج والطلاق عند الشعوب ، وحتى الذرات إذا تقابلت قد يصحب لقاءها ارتفاع فى درجة الحرارة ، كما ترتفع نبضات قلب المحب وحرارته ، وقد تنخفض درجة الحرارة ، وكأن هناك فتوراً فى اللقيا ، ولا يتم اللقاء كما يجب إلا إذا رفعنا لهما درجة الحرارة لنعطيهما فرصة تنشيط فى الألكترونات ، وهنا يرتبطان . وكان لابد للأليكترون أن يدور حتى يتحول المجتمع الذرى إلى صورة مهذبة ، وحتى تفقد بعض العناصر ضراوتها وتدميرها إذا ما اجتمعت فى اتحاد .

ولأضرب مثلا ومثلا :

فلح الطعام الذى تتناوله فى طعامك كل يوم أصله ذرتان واجتمعتا ، ولولا اجتماعهما فى جزىء واحد لأصبح كل منهما شريراً مدمراً مخرباً فى أجسام الأحياء .

ولكن تعال لنفرق بينهما بإمرار تيار كهربائى مثلا ، هنا سيظهر كل على حقيقته وضراوته ، وينشق كلوريد الصوديوم أو ملح الطعام إلى شقين ، ويعود كل منهما إلى حالته الذرية ، فيصبح الكلوريد غاز كلور إذا استنشقه الإنسان أو أى كائن حى مات ، ويصبح الصوديوم عنصراً رخواً لو لامس الماء لارتفعت منه ألسنة الدخان واللهيب ، وأحرق فى هذه الحالة الكائن الحى الذى يحويه . ولكن إذا التق

هذا السام وهذا الحارق أخذ السام من الحارق اليكترونا . أو قل : إنها قبلة سحرية ، وترتفع درجة الحرارة عنـــد اللقيا ، ويتحولان إلى جزىء من ملح الطعام لاهو حارق ولا هو سام .

والماء - كل ماء - يتكون من ثلاث ذرات متحدة ، ولو جئت بماء زلال وأردت أن تفصل ذراته . يخرج لك منه ماردان أو غازان ، أحدهما يحترق بلهب أزرق (الأيدروجين) ، والثانى يساعد على اشتعال النيران أو على الاحتراق داخل أجسام الأحياء (الأوكسجين) . ولكن إذا تقابل المحترق والحارق (يد ، أ) أعنى ذرتين بذرة ، أعطت كل ذرة من الأيدروجين اليكتروناً للأوكسجين . ويتحول الثلاثة إلى جزىء ماء لاهو حارق ولا هو محترق .

وإذا كان قانون المسلمين يبيح الرجل أن يرتبط بزوجة ومثنى وثلاث ورباع ، فكذلك الحال فى قانون ارتباط الذرات ، فالكلوريد يرتبط بالصوديوم فى جزىء ، ذرة بذرة ليعطينا ملح الطعام ، والأوكسجين يرتبط بذرتين من الأيدروجين ليعطيك ماء . والنيتروجين يرتبط بثلاث ذرات من الأيدروجين ليعطيك النشادر (الأمونيا) والكربون (الفحم) يرتبط بأربع ذرات من الأيدروجين ليعطيك غاز الميتان (غاز المستنقعات) .

وقد تصادق الذرة ذرة من بنى جنسها لتكون جزيئاً ، فنجد أن النيتروجين يرتبط بذرة من النيتروجين ليعطينا جزيئاً منه ، والأيدروجين بالأيدروجين ليعطينا جزيئاً منه ، والأوكسجين بالأوكسجين . وهكذا .

وقد ترتبط ذرة بذرة أو بعدة ذرات ، وقد تهجرها إذا لاح لها فى أفق التفاعلات شق جديد ، فتترك ما ارتبطت به من قبل لترتبط بهذا ارتباطاً أكثر وثوقاً من سابقه .

وهناك بعض العناصر تعيش ذراتها فرادى ، ولا يمكن أن تجتمع فى مثنى أو ثلاث أو رباع أو أكثر ، ومنها غاز النيون والرادون .

هذا هو العلم يساند الوحى السماوى فى تقرير حقيقة واحدة فيما يتعلق بتفسير ظاهرة الحياة حركة ونمواً . وذلك بتآلف العناصر وتزاوج الأشياء وانسجام الأنواع لا بالصراع والتناقض والتباغض ، كما يدعى ماركس وأتباعه من أصحاب المنهج العلمى وأهل التجربة والاستقراء .

والواقع أن الصراع بين الأشياء المتضادة ذات الاتجاهات المتباينة حقيقة قائمة حيث قامت الحياة وأنى وجد الأحياء . لكن الذى لا تجوز المكابرة فيه أن أصحاب المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ قد أخطأوا كل الخطأ ، إذ تصوروا انحصار طرفى الصراع بين الأضداد فى طبقتين اجتماعيتين : طبقة الأثرياء وطبقة المعدمين ، بهدف خلاص الثانية من قبضة وتحكم الأولى . وتصوروا كون هذا الصراع هو محور الحركة والنمو للحياة والأحياء .

بل إنه كذلك محور حركة وتطور المادة الجامدة . . إلى آخر ما تقدم توضيحه من دور وفاعلية جدلية المادة ، والتاريخ الإنسانى الذى لجأوا إليه برهاناً على جدلية المادة ماهو بناهض لذلك الإثبات فى حقيقة الأمر ، فما يحتويه التاريخ من تجارب ووقائع حية يدل أكثر مما يدل على شىء آخر ، ويبرهن على أن مثل هذا الصراع الطبقى ليس بضرورة ولا حتمية له .

فهو لم يكن الحل الذى لاحل سواه للتناقض الاجتماعى أو للتفاوت الطبقى حيث ينفسح المجال دائماً لحلول إنسانية أخرى لا تقوم على

سوء العلاقات وإراقة الدماء ، وإنما تقوم على تقديم الصالح من القوانين والتشريعات التى تعطى كل ذى حق حقه . وتعيد الحياة إلى التوازن ، الذى هو مصدر كل جدة وكل ثراء . ولم يحدث الصراع الذى يشهد له الواقع التاريخى إلا حيث يقع الخلل فى هذا التوازن بين المادية والروحية ، ويهيمن أحد الاتجاهين على الآخر وتسود المذاهب المروجة له والنظريات المؤيدة والقوانين الموجهة . وينعكس هذا الخلل على شتى ظواهر الحياة ؛ لأن الإنسان الذى هو عنصر الحركة ومصدر التوجيه على الحقيقة قد فقد توازنه وانحرف عن فلكه الذى شاء له الله أن يدور فيه .

وهذه حقيقة تقررت بالوحى الإلهى وسبق القرآن العلم بها قال تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »[1] ويقول جل شأنه : « كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال »[2] .

قرر القرآن إذن ماجاء العلم مؤكداً له من أن الصراع والتفرق بين الناس ليس هو القطب الثابت الذى تنتهى إليه ظواهر الحياة ،

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٣ .

(٢) سورة الرعد الآية : ١٧ .

وإنما ذلك القطب الثابت الذى تنتهى إليـه حركة الحياة جميعها هو التجمع والتآلف ، أو بلفظ جامع لأمثال هذه المعانى هو التوازن . وهذا ما يشهد به الواقع التاريخى الذى استند إليه الماديون الجدليون لإثبات صحة الجدلية المادية القائمة على صراع الأضداد الكامنة فى أحشاء المادة والتى جعلوا لها تأثير السحر أو تأثير القوى الغيبية بصفة عامة فى الوجود . وهو ما أخذوه على الفلسفة المثالية ، وتورطوا فيه حتى ليصح القول : أن المادية الجدلية تعد فلسفة مثالية ؛ لكنها تميزت عن الفلسفات المثالية بأنها مثالية مادية تقدس المـادة وتفسر بها شتى أنواع الموجودات .

العلم وحقيقة المادة :

ونود الآن أن نحتكم إلى العلم مرة أخرى لحسم قضية المادة التى قدسها الماركسيون وخلعوا عليها كثيراً من أوصاف الألوهية ، إذ حكموا بأزليتها وسر مديتها ومن ثم قالوا بأسبقيتها على الوعى والفكر ، بل إنهما كسائر الموجودات من نتاجها وإبداعها كما بينا ذلك مفصلا فيما سلف من المباحث . فلماذا قدس الماركسيون المـادة وحكموها فى كل موجود ؟ .

ولا يستعصى الجواب عن هذا التساؤل على أحد ممن لهم إلمام بالفكر الماركسى ، فما قدسوا المادة على هذا النحو إلا أنها هى الشىء الوحيد الذى يقع تحت الحس وقد كان هذا هو مفهوم المادة وحقيقتها فيما يرى ماركس وزملاؤه بل وفيما يسود الأفق الفلسفى والعلمى فى القرن التاسع عشر . وهذا التحديد لحقيقة المادة لا يخرج كثيراً عن

المنحدر إلى عصر ظهور الماركسية من قمم الفلسفة الإغريقية ، فسواء أخذت المادة مقابلا للصورة كما كان عليه الأمر عند أرسطو أو فهمت فى مقابل المثل والعقل المطلق كما رأى أفلاطون أو حددت فى مقابل الفكر من ناحية والصورة من ناحية أخرى كما ذهب إليه ديكارت أو جعلت جوهر الحياة ومقوم الموجودات مادية كانت أو معنوية ، وهو ماساد على أيدى الفلاسفة الوضعيين من أمثال كونت وفيشته . ثم بعد ذلك ماركس وأمثاله ممن خصوا المادة بالاعتبار الأسمى والقيمة العليا حتى وصل بهم الأمر إلى تأليهها وتقديسها كما سبق .

أقول : سواء كان هذا أو ذاك ، فإن القدر المشترك بين سائر التحديدات لمفهوم المادة حتى وقت ظهور الفلسفة الماركسية هو كونها متعلق الحس والإدراك فى الواقع الخارجى . وقد ساندهم فى التعويل على هذا التحديد لحقيقة المادة ، الواقع العلمى الذى لم يتجاوز هذا القدر من التحديد خلال القرن التاسع عشر بصفة عامة وفى أواخر هذا القرن وأوائل القرن العشرين تقدم العلم فى هذا المجال خطوة غيرت ما كان عليه العلماء والفلاسفة من فهم لحقيقة المادة مما جعل أتباع الماركسية يخرجون بتعريف جديد لها . وهو أنها أصبحت عبارة عن الوجود الموضوعى خارج الذهن ، ويعنى ذلك أن المادة هى الموجود المستقل تمام الاستقلال عن وعى الإنسان . والقول بهذا لا يقل تجوزاً أو مغالطة عن ذلك القول الذى يدعى أن المادة من خلق وإبداع الوعى الإنسانى .

فلا يسوغ إطلاق القول بتمام الاستقلال للمادة عن الوعى مع بداهة دوره الإيجابى فى علاقته بالمادة تأثيراً فيها وصياغة لأشكالها

وأنماطها وتوجيهاً لعلاقاتها بالحياة ، كما لا يتسنى إطلاق القول : أن المادة من صنع الوعى وإيجاده إلا على هذا النحو من الفهم المنحصر فى التوجيه والصياغة .

وقد سبق لنا مناقشة هـــذه القضية بالتفصيل فى مطالع هذا الموضوع .

لكن الذى نحب أن نلفت إليه هنا : أن سبق المادة على الوعى والفكر الذى ترتب على إمكانية استقلال المادة وموضوعيتها لا يسوغ القول أو الاعتقاد بقدم المادة وأزليتها ولهذه القضية وقفة أخرى .

ومن جاء القرن العشرين بالاكتشافات العلميـة المتوالية فى مجال الذرة والكهرب تجاوز العلماء كل ما عرفه القدامى ووقفوا عليه من مفهوم للمادة فلم يعد يستساغ أن تعرف المادة بما يقع تحت الحس ولا بمجرد الوجود الموضوعى المستقل عن الذهن ، ولا بكونها صورة أو صوراً مختلفة من الطاقة ، ولا بكونها مركب من شحنات كهربائية موجبة وسالبة . فإن حدثاً كتفجير الذرة فى هذا القرن أبطل كل تعريف يمكن أن يضبط حقيقة المادة ، فإن انحلال عناصر الذرة يعنى تمام فنائها حيث تختفى فى الأثير حين تفقد كل خصائص المادة ، بل أخص خصائصها وهو الثقل .

وإذا كان الأثير أمراً وراء المادى والمحسوس ، فقد اكتنفه من الغموض وعدم إدراك حقيقته مالم يكتنف أمراً كالروح أو الشبح .

ولذلك قيل : إن الأثير خرافة ابتدعت لإخفاء الجهـــل المثقف للعلم الحديث .

ماذا بقى إذن للماركسيين من مميزات لحقيقة المادة إلههم ومعبودهم، وقد خذلتهم فى أهم ما يتشبثون به ويعتبرونه المصدر الوحيد للإيمان وهو إقرار الحس وبداهة الواقع ؟ .

وها هو العلم المادى والواقعى يصدمهم ويسفه أحلامهم بقراره الذى لا يجرءون على تحديه أو رده حين قال : إن حقيقة المادة هى وراء كل معلوم وفوق كل مضبوط أو محسوب .

والأستاذ العقاد فى كتابه القيم عقائد المفكرين ، يرد على هؤلاء الماديين من ماركسيين وغيرهم ، ممن يقيمون مذاهبهم الفلسفية والاجتماعية على اعتبار أن المادة وحدها هى قوام الوجود ومصدر كل موجود ، فيقول :

حدثت فى السنوات الخمس الأخيرة من القرن التاسع عشر حوادث علمية غيرت كل صورة من صور المادة عرفها الأقدمون .

فقد عرف الكيماويون قبل ذلك أن عناصر المادة أكثر من أربعة ، وأنها ليست محصورة فى النار والتراب والهواء والماء . وعرفوا أن ذرة الهيدروجين أخف العناصر ليست هى أصغر جسم من أجسام المادة ينتهى إليه التقدير . عرفوا الكهرب الذى تحسب ذرة الهيدروجين جبلا ضخماً بالقياس إليه .

ثم تقدموا فى معرفة الكهرب والذرة حتى أفلتت المادة كلها من بين أيديهم ، ولم يبق منها غير حسبة رياضية — حسبة رياضية كانوا يحسبونها مثلا فى الدقة والضبط والعصمة من الخلل ، فإذا هى فى النهاية

حسبة لا يضبطها الحساب إلا على وجه التقريب أفلت من المادة كل شيء ثابت أو كانوا يحسبونه مضرب المثل فى الثبوت والحقيقة .

فاللون شعاع ، والشعاع هزات فى الأثير ، والوزن جاذبية ، والجاذبية فرض من الفروض .

والجرم نفسه متوقف على الشحنة الكهربية وعلى سرعة الجسم فى الحركة ونصيبه من الحرارة ، والحرارة ما هى ؟ حركة ، والحركة فى أى شيء ؟ فى الأثير - والأثير ماهو ؟ فضاء أو كالفضاء ، وكل وصف أطلقته على الفضاء فهو بعد ذلك مطابق لأوصاف الأثير .

حتى الصلابة التى تصدم الحس أصبحت درجة من درجات القوة ، نقاش بالحساب . ويعلم الحاسب أنه حساب قابل للخطأ والاختلال .

فهذه الصخرة القوية صلبة جامدة ، يضربها الضارب بيده فترده فيقول نعم . هذه هى الحقيقة التى لامراء فيها .

فماذا لو كانت يده أقوى ألف مرة أو ألف ألف مرة من يد الإنسان القوى بالعضل والعصب . إن حقيقة الصخرة تفقد تحت يده برهانها فلا يحسه . أو يحسه ولا يتحدث عنه كما يتحدث عن الحقائق التى تصدم المنكرين .

وتقدم العلم بالكهرب والذرة مرة أخرى ، فإذا المادة كلها كهارب وذرات ، وإذا بالذرات تنفلق فتنطلق شعاعا كشعاع النور . هل هذا الشعاع موجات ؟ هل هو جزيئات ؟ قل هذا أو قل ذاك ، فهذا وذاك فى ميدان التجربة سواء .

وعاد العلماء التجريبيون إلى القوانين الطبيعية التى تحكم الحرارة والحركة والضوء وكل ما فى عالم المادة من كهارب وذرات فوجدوا لها قانوناً واحداً وهو الخطأ والاحتمال .

وفى وسعنا الآن أن نصل من خـــلال ماسبق إلى هذه الحقيقة الواضحة ، تلك هى انهيـار أهم أسس المذهب الماركسى ، حين يضع العلم المـاديين الجدليين على شفا تلك الهاوية المجهولة القاع . وليس أمامهم خيار إلا سقوطهم مع مبادئهم وفلسفتهم فيها إلى غير رجعة .

فلم يعد يسلم لهم القول بمادية الحياة وظواهرها بعد ما جهلوا كل ما عولوا عليـه مما كانوا يحسبونه خصائص ومقومات لها . ولم يعـد فى حوزتهم من ذلك إلا تلك الحسبة الرياضية التى ليس لها نصيب من الجزم واليقين .

وبعـدما فضح العلم كذلك خرافة الجدلية وأكذوبة الديالكتيك سواء فى الطبيعة الحية أو الجامدة . هذه الخرافة التى هى قوام مذهبهم كله . والتى بردوا بها كل دعواتهم الهدامة وفسروا بها ماضى الإنسانية ووجهوا بها مستقبل العالم ومصيره .

وقد كان يكفينا أن نحجم عن مناقشة المذهب بانهيار أساس أسسه على هذا النحو لو لم تكن مع خصم دأب على أساليب المغالطة والتزييف وبرع فى الخداع وافتراء الأكاذيب ، فلم يكن لنا بد من مناقشة ما يمكننا مناقشته من القضايا ذات الصلة بما التزمناه من خط منهجى ، حتى نأتى على كثير من أباطيل المذهب وتناقضاته قدر مايمدنا الله به من طاقة وجهد .

التفسير المادى للتاريخ

حين طبق كارل ماركس القوانين الجدلية على تفسير التطور التاريخى للمجتمعات الإنسانية والأدوار الحضارية ، يكون بلا ريب عالة على نظرية هيجل فى تفسيره للتاريخ أيضاً ، إلا أنه أسقط فى مسلكه هنا مسألة الفكر والروح فى استقلالها عن المادة كما استبعدهما من قبل ، حيث طبق جدليته هذه على الطبيعة المادية فى مسيرتها نحو التطور الدائم .

فهو كما أسلفنا قوله لا يرى الكون فى حقيقته شيئاً آخر وراء المادة وإذا كان كل شىء بما فى ذلك الروح من مخلوقات المادة .

وإذا كان الفكر والوعى لا يعنى أكثر من شكل راق لها فإن من المستساغ لكارل ماركس وتلامذته أن يقولوا : إن حركة التاريخ ورحلة المجتمعات الإنسانية مع التطور الحضارى فى كل أنماطه وصوره بما فى ذلك بالطبع مختلف النظريات الفكرية والعلمية من سياسية واجتماعية وقانونية ودينية ؛ ما هى إلا محصلة أو عائد لتطور القوى المادية ونمو النظم الاقتصادية ، لكن الأساس والأصل - كما سبقت الإشارة إليه - فى دفع حركة التاريخ نحو الرقى والتقدم الحضارى للإنسان والوقائع والأشياء بصفة عامة فيما يتصور هيجل هو الفكر وحده أو ما يسميه بالعقل المطلق أو الروح العالمية ، كلها ألفاظ تعنى فى النهاية الله ، الذى يوجه ويقود النمط الحضارى الخاص بكل دور من أدوار التاريخ ، متمثلا ذلك فى سائر التصورات والمبادىء والنظريات التى يصبها العقل المطلق فى العقول الإنسانية التى يستخدمها فى قيادة دفة التطور الحضارى للتاريخ الكونى فى رحلته الطويلة التى يقوم بها من بداية ظهور الطبيعة

حتى يستكمل بها فى نهايتها ذاته ، ويحقق وحدته الأولى ، ووسيلته فى ذلك خلق الصراع والحرب بين الموجودات والنظريات والأفكار ، أو بين الأدوار التاريخية والحضارية ، ثم عقد الصلح بينها فى مزيج مكون من مزايا وصلاحيات كل من المتحاربين فى تلك الدورة الثلاثية المتكررة أبداً المتصاعدة نحو الرقى . وهى لا تزال تتردد فى هذا التكرار وذاك التصاعد بين القضية ونقيضها . والجمــع بينهما فى المزيج الحضارى الجديد فى كل مرة نحو الـكمال والسعة والتجويد ، طبقاً للتصور الجدلى الهيجلى الذى رأى فيه ماركس والماركسيون فرصتهم لتفسير ماديتهم الطبيعية والتاريخية .

وقد افترض الماركسيون من جهة أخرى أن هذه الجدلية التاريخية والاجتماعية إنمـا هى من أفضل الشواهد والأدلة على صحة ما تشبثوا به من جدلية المادة . وخضوعها فى حركتها لقانون التناقض وصراع الأضداد .

والصور الجدلية التى يبنى عليها ماركس تفسيره المـادى للتاريخ وتطوره هى : أن طبقة من الطبقات فى مجتمع من المجتمعات الطبقية عندما تتمكن من السيطرة على قوى الإنتاج ووسائله ، ومن ثم تحتكر ضرورات المعيشة ، وأرزاق الناس وتتحكم فى توزيعها .

فإن هذه الطبقة بطبيعة الحال هى التى ترسم نمط النظام الاقتصادى للمجتمع ، وهى التى تصوغ الشكل الحضارى بما تحدثه من قوانين ، وأعراف ، ونظريات ، وأديان ، وأخـلاق . تؤكد به هيمنة هذا النظام وتعمقه وتوجهه . وعندما تحس الطبقة الأخرى التى تحتاج إلى الطبقة المسيطرة ، وتحصل أسباب معيشتها فى ظل نظامها بالقهر

والاستغلال ، وتشعر بالتسلط والتسخير بعد أن يبلغ النظام الاقتصادى المهيمن مداه فى هذا القهر و الظلم والتسلط ، ويأخذ القلق والاضطرب والإحساس بالمهانة طرقها إلى نفوسها ، فإنها حينئذ لا تجد بدأ من النهوض للثورة على هذا النظام والمهيمنين عليه ، حيث يطالبون بنظام اقتصادى مغاير يكون أكثر ملاءمة لمصالحهم من النظام القائم .

وإذا رمزنا للنظام القائم بالقضية ، فإننا نرمز بالنقيض لثورة الطبقات المستضعفة ومطالبتها بنظام وعلاقات إنتاجية جديدة تتفق وتتلائم مع مصالحها الاقتصادية وضرورتها المعيشية . ذلك النقيض الذى تولد من بنية النظام الاقتصادى القديم ، وخرج من أحشائه .

وإذا كانت القوانين والأديان والنظريات والأعراف القائمة لا تساند ولا تؤيد إلا النظام الاقتصادى القائم ، فمن الطبيعى أن تطالب القوى الرافضة له والثائرة عليه بطائفة جديدة من القوانين والنظريات والأديان والأعراف تتناسق وتتوائم مع نظامها الاقتصادى الجديد الذى تطالب به ، ويدخل النقيضان فى صراع يطول مداه أو يقصر حتى يتم لطبقة المستضعفين إسقاط هذا النظام الاقتصادى والقضاء عليه . وقيام نظامها الجديد . وتضع المبادىء والنظريات والدين والعرف وسائر الأفكار التى ترضى عنها وتوافق نظامها ، وقد تستبقى بعض العناصر الصالحة للنظام القديم فتمزجها بما ترتضيه من العناصر التى تخدم نظامها الجديد .

وهذا الدور هو ما يرمز إليه بجامع القضية ونقيضها .

وهكذا تتكرر هذه الأدوار تحت سلطان هذه الجدلية بموجب الصراع القائم بين الأضداد ، طالما كان هناك احتكار طبقى لأسباب العيش وضرورات الحياة .

الأمر الذى ينتج عنه لا محالة علاقات إنتاجية بغيضة ، تتسم بالتسلط والظلم من قبل الطبقة المسيطرة ، والحقد والكراهية والعبودية من جانب الطبقة المحتاجة والمستضعفة .

وعلى هذا ، فإن الصراع الطبقى والاجتماعى يظل يدفع المجتمعات الإنسانية فى حركتها وتطورها من القضيـــة إلى النقيض إلى التأليف بينهما فى تركيب حضارى جديد . ينقلب بعد فترة زمنية إلى قضية ثم إلى نقيض ثم إلى مركب منهما فى الدورة الجدلية المتصاعدة حتى ينتهى الأمر بالمجتمعات الإنسانية ، وتطورها الاقتصادى والاجتماعى ، إلى مجتمع يخلو من الطبقات ويؤول الأمر كله فيه إلى طبقة الفقراء والمستضعفين فلاسيطرة على قوى الإنتاج لطبقة ضد أخرى .

بل السيطرة عليها وعلى أسباب المعيشة وتوزيعها بالعدالة والإنصاف للطبقة العاملة أو « البروليتاريا » . ثم تختفى كل مظاهر القهر والاستغلال والحقد الطبقى وما إليها حين ينتهى الأمر إلى الشيوعية المطلقة . ويطبق ماركس هذا التصور الجدلى على واقع المجتمعات الإنسانية فى تطورها هذا إلى هذه الغاية ، فيقرر تبعاً له أن المجتمعات الإنسانية قد بدأت بالمشاعية التى لا ملكية فيها لأحد .

ثم استولى السادة على وسائل الإنتاج باستخدام الأرقاء والمسخرين الذين هم فى حكم العبيد .

ثم ذهب هؤلاء السادة وجاء بعدهم الفرسان أرباب الإقطاعيات الذين يسخرون الزراع كما كان أسلافهم يسخرون الأرقاء .

ثم جاء بعدهم تجار المدن وأصحاب الأموال البرجوازيين ، أو الطور

الأول من أطوار رأس المال . ثم جاء الطور الثانى من أطوار رأس المال مع تقدم الصناعة ، ونشوء الصناعة الكبرى فى عصر البخار والمخترعات الحديثة .

وتقائض التاريخ الإنسانى على هذا تلتقل من عصر المشاعية البدائية ، إلى عصر الرق ، إلى عصر الإقطاع ، إلى عصر البرجوازية إلى عصر رأس المال الأخير — وهنا تلتهى النقائض لانتهاء عصر الاستغلال .

ففى عصر الرق يستغل السادة عمل العبيد ، وفى عصر الإقطاع يستغل الفرسان عمل الفلاحين والصناع ، وفى عصر البرجوازية يستغل أرباب الأموال عمل الأجراء ، وفى عصر الصناعة الكبرى تنحصر الأموال شيئاً فشيئاً بين أيدى القلة الصغيرة من أصحاب المصانع والشركات حتى يستنزفوا ثروة المجتمع ، فلا يبقى فيه غيرهم وغير المسخرين لهم محرومين من كل شىء إلا السلاسل والأغلال .

ويثور هؤلاء على سادتهم يأساً من كل خير يأتيهم من المجتمع الرأسمالى ، فيزيلونهم ويقبضون بعدهم على أزمة الإنتاج بغير استغلال وبغير تسخير ، وهذه هى غاية التاريخ الإنسانى التى تبطل فيها النقائض ، ولا تبقى فيها غير طبقة واحدة ينتهى بعدها صراع الطبقات ، وينتهى عندها كل صراع فى الحياة الاجتماعية ، إذ كانت وسائل الإنتاج هى مدار الصراع كله فى أوائل حركات التاريخ .

فى هذا العهد يؤول كل شىء إلى كل إنسان ، فلا يوجد من يملك أرضاً أو مالا يستأثر به دون سائر أبناء المجتمع . ويظل شعار المجتمعات الإنسانية أبداً . من كل أحد حسب قدرته إلى كل أحد حسب قدرته

إلى كل أحد حسب حاجته ، ولا سيطرة ، ولا دولة ، ولا نزاع ، ولا حروب[١] .

بل إن رقابة الدولة وهيمنة الحكومة تبطل فاعليتها آخر الأمر ، أى بعد مرحلة البناء وفترة الانتقال التى تبقى مدة طويلة من الزمن ، يبلغ فيها التحول الاشتراكى مداه فى جميع اتجاهاته الاجتماعية والسياسية والعقدية ، فتمضى الحكومة وتمضى معها دكتاتورية البروليتاريا ، حيث لم تصبح ثمة حاجة إلى سلطانها أو حمايتها حيث تستقر حركة التاريخ بالوصول إلى مرحلة الشيوعية المطلقة التى تختفى معها كل مظاهر الظلم دون عودة ، وحيث يتحقق معها لجميع الشعوب كل أحلام الحرية والسلم والعدالة والسعادة الأبدية .

تلك هى حتمية الجدلية التاريخية التى فسر بهـــا ماركس حركة التاريخ كما فسر بها حركة المادة ، ورأى أن من المحال لأية قوة أن تعوق مسيرة التاريخ الجدلية نحو غايتها هذه ، بل لا مناص للعالم كله بقسميه الطبيعى والاجتماعى من السير وفق مشيئة هذه الحركة الثلاثية فى تطوره وارتقائه .

نستطيع أن نؤكد هنا ومن خلال ما سبق ، أن المحور الذى تدور حوله الحياة كلها ، والأساس الذى يقوم عليه تطور الحضارات وتقلب التاريخ إنما هو إنتاج الضرورات المادية والحاجات المعيشية وتوفيرها وتوزيعها . وما يستتبعه ذلك من صراع الطبقات .

ولا وجود فيما يرى الماركسية للمبادىء الخالدة من دين وأخلاق

---

(١) انظر الشيوعية والإنسانية لعباس محمود العقاد ص ٧٣ .

وتصورات تكون حقاً وصدقاً فى ذاتها ، بل إن الخط الحيوى الذى ترسمه الإنسان هذه القوى المادية فى تصور ماركس أن يتبع أولا طريقاً تقتضيه مصالحه الذاتية ، وتدعو إليه مطامعه الاقتصادية ، ثم يختلق ديناً وفلسفة للأخلاق ونظاماً للأفكار والنظريات ، ليعمق بها هذا الطريق ويحكمه وييسره بنجاح ويثبت للناس صحته ، ومما يطابق الفطرة والعقل معاً فى نظر ماركس أن طبقة من الناس إذا وجدت طريقاً آخر يحقق مصلحتها الاقتصادية ، فلها أن ترفض نظامها الاقتصادى السابق وترفض معه جميع ما يقوم عليه هذا النظام من التصورات الدينية والأخلاقية والقانونية والمدنية ، وتخترع بدلا منها عقائد ومبادىء جديدة أخرى تلتئم مع مصلحتها الاقتصادية .

يقول ماركس : إن الصراع للأغراض الذاتية المادية هو من عين ما تنشده الفطرة ، وأن الطريق الوحيد لإبقاء التاريخ الإنسانى أن تتنازع وتتصادم وتتكالب مختلف طبقات الناس فيما بينهما لتحقيق أغراضها ومصالحها الذاتية المادية ؛ لأن الإنسان ما قطع حتى الآن مرحلة من مراحل التاريخ إلا متخاصماً متقاتلا بعضه مع بعض ، وإن ليس عليه الآن إلا أن يواصل قطع مراحل التاريخ بنفس المقاتلة والمصارعة ، وإن كان هناك أساس للتوفيق بين مختلف أفراده فإنما هو تكتلهم لأجل الأغراض الاقتصادية البحتة ، فكل من كانوا متكتلين على هذا الأساس لابد لهم من أن يتحولوا إلى طبقة خاصة تشن الحرب على جميع ما يخالفها من الطبقات[1] .

---

(١) انظر الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة المودودى ص ٣٠ .

مآخذ على المادية التاريخية

١ — مبدأ النقيض يطبق فى دائرة المجتمع :

هذه هى أهم الجوانب الفكرية لتفسير كارل ماركس المادى للتاريخ الذى أراد به تطبيق جدليته المادية على تحول المجتمعات الإنسانية بناءاً على أنها خاضعة كغيرها من أشياء الوجود لمبدأ النقيض . حيث تجاوز فى استخدامه حدود التصور الذهنى فيما يرى فيشته ، وحدود الفكرة كما هو عند هيجل . فأخضع له كل شىء من طبيعيات وعضويات وجماعات وقيم ، فكل شىء ينطوى على معول فنائه ، والتحول إلى النقيض هو مصير الأشياء بأسرها ، والمجتمعات الإنسانية التى هى مجال لتطبيق هذا المبدأ يحمل كل مجتمع منها فى رحلته مع التطور جراثيم نقيضه ، وبخاصة تلك المجتمعات التى قامت على النظام الطبقى الذى يستلزم أنماطاً من العلاقات الشائنة من الاستغلال والحقد تلك العلاقات التى تكون عوامل الصراع الطبقى ، المفضى إلى الانهيار والزوال .

وماركس وإن أراد أن يبرهن بجدليته التاريخية على صحة مبدأ النقيض ، كأساس فلسفى إلا أنه فوق ذلك يعنيه أن ينتهى إلى نتيجة حتمية من وراء ذلك هى : أن سائر المجتمعات التى تقوم على النظام الطبقى من ملكية وإقطاعية ورأسمالية قد انهارت فى الماضى وستنهار فى المستقبل كضرورة لتطبيق مبدأ النقيض ، أو الجدلية التاريخية .

ويعز على ماركس أن يخضع المجتمع الشيوعى لحتمية جدليته

التاريخية فهو المجتمع الذى لا يتحول إلى نقيضة ؛ لأنه المجتمع الذى يخلو من الصراع الطبقى وبواعثه ، ولكن من حيث التطبيق الفلسفى لمبـــدأ النقيض الذى يقضى بتحول الأشياء إلى نقائضها ، والأشياء ونقائضها إلى جامع بينهما تنتخب فيه أصلح العناصر ويطرح منه فاسدها فى دورة تتكرر إلى مالا نهاية ، يصبح استثناء المجتمع الشيوعى من هذا القانون تحكما يعوزه التبرير الفلسفى .

وهذا فى الوقت الذى شق على الماركسيين قصداً منهم إلى ترسيخ الكفر والإلحاد أن يستثنوا من حتمية جدليتهم التاريخية القيم والأديان السماوية التى قامت على ثبوتها كل الشواهد التاريخية والعقلية والفطرية .

وأصبحت الأديان طبقاً لهذا القانون عناصر حضارية غير صالحة لتوجيه الجماعات والنظم الراهنة ؛ لأنهـا ما وجدت فى عصورها إلا لتوجيه وتأييد النظم الاقتصادية والأنماط الحضارية فى مجتمعاتها غير صالحة لهذا الدور فى مجتمعات سابقة أو لاحقة . شأنها بالطبع شأن سائر المبـادىء والتصورات الإنسانية فهى من اختراع الجماعة لتأييد نظامها الاقتصادى الخاص بها والاعتقادات بثبـات الأديان وسائر التطورات والقيم اعتقاد فى وهم أو فى شىء مجاف للواقع .

وبعبارة أخرى : أصبح كل نبى من الأنبياء وما حمله إلى الناس من دين وشريعة مجرد دعوى للمدنيـة الرائجة فى عصره ، وكم تلاه من أجوبة للمدنيات المتتابعة حتى عصرنا هذا . ومن السخف والحماقة فيما يزعمون أن نجعل لمدنيـة راهنة جواباً عفت عليـه القرون ونالت منـه الأزمان .

هكذا يضيق بالماركسيين استثناء الدين من حتمية جدليتهم التاريخية بكل ماله من أثر وفاعلية فى توجيه الملايين من بنى البشر وقيادتهم إلى كل ماهو مثالى وفاضل من أنماط الحياة يستمدون كل قوة وكل طاقة من أول أسسه وأهم أصوله الذى هو توحيد الإله وإفراده بالعبادة والسلطان . وإنكار الخضوع لأى كائن سواه يخضع لقانون من قوانين الأرض مهما كان حجمه وأياً كانت قوته . فالكل صغير أمام هيمنته والكل ضعيف تحت سلطانه فلا تجبر ولا قهر ولا تسلط فى مجتمع المؤمنين بالله . ولا خوف ولا عبودية ولا استذلال إلا من الله ولله . إذ هو الذى يملك وحده كل ما يشغل الإنسان ويستولى على اهتمامه فى الحياة ، وماذا يشغل الإنسان ويهمه ؟ .

إنما يتحكم فى مطامع الإنسان الحيوية ويقوده فى مسعاه ويحدد غايته ثلاثة أشياء لا رابع لها . هى : الحياة والموت والرزق .

والمؤمن بالله ينطلق فى مسيرته كلها فى قوة خارقة من اعتقاد أن هذه الثلاثة بيد الله وحده . فلماذا يظلم أو يقهر . ولمن يستذل أو يحتاج من بنى جنسه ، والكل محتاج إلى الله فى حياته ومصيره وأسباب معاشه ؟ .

هذا هو مصدر قوة الدين وأصل فاعليته . وهذا هو سر تأثيره فى ملايين البشر خلال القرون المتطاولة ، وهو قوام الحضارة التى أسسها المسلمون الأوائل فى نصف قرن من الزمان . فهل تحقق حلم ماركس فى نفس المدة الزمنية وقام المجتمع الشيوعى الذى يحقق القوة والحرية والسعادة للفقراء والمظلومين ؟ .

والكل يعرف الإجابة ، والماركسيون أنفسهم لا يجيبون إلا بالنفى . والواقع يصدقهم . وحينئذ فما الأساس الذى قام عليه استثناء الماركسيين للمجتمع الشيوعى الذى لم يحقق حلم ماركس فى قانون التناقض من تحوله إلى النقيض إلا نفس الأساس الذى رفضوا بناءاً عليه استثناء الدين السماوى الذى قامت عليه كل البراهين وأيدته كل الوقائع .

ذلك الأساس هو كما ذكرنا الرغبة بجرد الرغبة المدفوعة بالحقد والبغض اليهوديين الذين جريا فى دم ماركس ونبتا فى لحمه واستقرا فى نفسه وملكا عليه قلبه وعقله .

الحقد والبغض فى الدين وعلى الدين هما مادفع ماركس إلى الرغبة فى القضاء عليه لجعله إحدى نتائج منطقه ، بل أهمها كما صرحت بالنقمة على الأديان والسخرية منها أقواله وأقوال أتباعه كما سنورده فى موضعه من هذا البحث .

ومحق الأديان والقضاء على سائر النظريات الاجتماعية والاقتصادية المغايرة لنظريتهم هو أحد جوانب مخططهم الإلحادى التخريبى الذى وضعوه ضرورة تاريخيـة لا مناص من وقوعها على أساس جدليتهم المـادية ، الأمر الذى دفعهم إلى التوسع فى تطبيقها على الأشياء ، والجماعات الإنسانية والقيم الأخلاقية والأديان السماوية .

فادعوا أن تحولها أمر منتظر وضرورى ، وما تحول إليـه من النقيض أو المركب هو الحالة الأفضل ، وهم فى سبيل تنفيذ هـذا المخطط حينما يدعون إلى تغير الجماعات الإنسانية وانهيارها ، قصداً إلى قيام الجماعة ذات الطبقة الواحدة العمالية ، فإنهم يسعون إلى القضاء

على أصحاب العمل الذهنى وأصحاب رؤوس الأموال وأصحاب المزارع الواسعة مالارستقراطية المالية أو الوراثية .

وحينما يدعون إلى تغير القيم والأديان . فإنهم يمضون إلى هدم المثالية والأديان والمعانى الأخلاقية والتقاليد والأعراف فى نفوس الأفراد والجماعات[1] .

٢ - قانون التغير والدعوة إلى صراع الطبقات :

وقد كان بمثابة قوة الدفع لهذا المخطط التخريبى والإصرار على تنفيذه أن أضافوا إلى مبدأ النقيض عنصر الثورة المفاجئة والانقلاب المباغت الذى يحدث حتما فى الأشياء والقيم والأديان والجماعات على حد سواء .

عندما يصل تحولها وتغيرها التدريجى إلى درجة معينة طبقاً لقانون التغير فى الحكم الذى يستتبع لا محالة التغير فى الكيف والنوع على مامر توضيحه .

فقد رأوا ضرورة حدوث هذا الانقلاب فى القيم والجماعات على هذا النحو قياساً على حدوثه فى الأشياء الطبيعية .

وبالرغم من ادعائهم أنهم لا يحرضون على الثورة فى المجتمعات ، وإنما يؤمنون بضرورته وليس الأمر عندهم أكثر من الانتظار والترقب للوقوع .

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى . د . محمد البهى ص ٣١٩ .

والحقيقة أن هذا المبدأ يعد أكثر من إيحاء للشعوب فى المجتمعات الطبقية والرأسمالية بالثورة التى لا تتوقف ، بل إن فى أقوالهم ما هو دعوة صريحة إلى هذه الثورة التى يرونها حقاً مشروعاً ، بل واجباً على هذه الشعوب المستضعفة التى تحيا تحت وطأة التسلط والظلم والاستغلال بل لا يقف نشاطهم فى هذا السبيل عند حد الأقول والتصريحات .

وإنما يتجاوز ذلك إلى المؤامرات والخطط والمكايد التى لا يهدأون عن القيام بها فى كل بقعة صالحة لنشاطهم من العالم .

وسواء كان الانقلاب المفاجىء فى المجتمعات الطبقية والرأسمالية ضرورة جدلية كما أضافوها إلى مبدأ النقيض عند فيشته وهيجل ، أم كان من صنعهم وصنع أعوانهم فإنه لا يخرج عن كونه مبدأ لتخريب المجتمعات ومصدراً للقلق وعدم الاستقرار الاجتماعى ، وهو ما يسعون إلى بثه ونشره فى تلك المجتمعات تحقيقاً لغاياتهم التى تهون دونها كل غاية وأملا فى إدراك مآربهم الذى يتضاءل أمامه كل مأرب ، وغايتهم هذه ومآربهم هذا والوصول إلى قيام الدولة الشيوعية ، والسيطرة على العالم والتحكم فى مصائر شعوب الأرض ، وإلا فهل ظفروا فى مجتمعهم حتى الآن بسلامهم المنشود ؟ وهل تحقق الأمن والرخاء وتوفر الاستقراء لشعوبهم حتى الآن ؟ .

والإجابة السلبية التى ليس لديهم سواها ، التى يشهد عليها كل منصف على وجه الأرض تجلى حقيقـــة هدفهم وتكشف عن خبث طويتهم وتترجم المرض النفسى الذى كان يعانيه زعيمهم ماركس ، وهو من أم

العوامل إن لم يكن أهمها على وجه العموم فى انبثاق هذا المبدأ وسائر مبادئ وأسس نظريته الأكذوبة .

ولا ريب أن ما كان يعانيـه كارل ماركس من فقر وشعور بالمهـانة وحقد طبقى ، بالإضافة إلى ولائه العميق لليهود وغـــير ذلك من علله الاجتماعية والنفسية هو ما حدا به أن يشوه العلاقات الاجتماعية بين العامل وصاحب العمل أياً كان نوعه ، وأن يراها منحصرة فى علاقات القهر والتسلط والاستغلال ، من جانب . والحقد والكراهية والكيد من جانب آخر .

هذه هى رؤية ماركس السقيمة لنوعية العلاقات التى يمكن أن تحدث ولا يمكن حدوث غيرها بين طرفى العمل فى المجتمعات الرأسمالية على وجه الخصوص ، أو المجتمعات التى تقوم على أساس طبقى بسبب السيطرة على قوى الإنتاج ، ولم يكن هدف كارل ماركس من تحديد هذه النوعية للعلاقات الاجتماعية ، إلا أن يمهـد أساساً لتطبيق جدليته على تطور المجتمع — فالتحول والنمو لهذه العلاقات الشائنة بين أصحاب العمـل والعمال ، يهيء — الجو للانقلاب المفاجيء وثورة العمال على أصحاب العمل . وفى غير هـذا المناخ لا ينشأ صراع الطبقات الذى هو أساس التحول والتطور الاجتماعى . ويبدو هذا المنطق طبيعياً من مثل ماركس الذى يحمل بين جنبيه هذه النفسية المعتلة .

فإذا ما أضيف إلى علله السابقة علة الكفر والسخط على الأديان ، فإنه يمكننا الظفر بوجه لتصوره هـــذا العلاقات الاجتماعية على هذا النحو .

وقد كان فى وسعه أن يرى إمكان تصورها على نحو أفضل لو أنه حاول أن يدرس المجتمعات المتدينة بغض النظر عن الأمثلة السلبية منها التى كانت تقاس مساوىء الكنيسة المنحرفة ، ولو قام كارل ماركس بدراسة موضوعية وأمينة للمجتمع المسلم بخاصة ؛ لأدرك أن تشريعات هذا المجتمع وقوانينه قد نظمت العلاقات الاجتماعية بين المسلمين على أسس إسلاميـــة وفطرية من التراحم والتعاون على البر والتقوى . والتكافل الاجتماعى والعدل والتسامح والمحبة والإنصاف ، ونحو هذه العلاقات المستمدة من دينهم الذى دفع إليها من خـــلال الكلمة المقدسة فى صورة الأوامر والنواهى الإلهيـة لتحديد حدود الحلال والحرام . .

أو من خلال التربية العملية التى تحقق الإنسان إنسانيته ، وتجعل منـه مصدراً لنشر السلام والرحمة والأمان فى الأرض ، وعنصراً فى كيان المجتمع الفاضل الملتزم بحدود ربه .

ولكن كارل ماركس الذى كفر بكل الأديان تعبيراً عن نفسه المنحطة وولاء لأسياده وأساتذته اليهود من أمثال موشيه هيس فيلسوف اليهودية وواضع أسس فلسفتها النظرية والذى أشاد به فيلسوف الشيوعية الأول وأعلن أنه قدوته ومثله الأعلى فى الحيـاة . وأنه يتفق فى آرائه ومبادئه وعقيدته المنحرفة مع آراء ومبادىء وعقيدة ذلك الهيس .

فليس بعيداً من حيث النظرة الموضوعية والواقع الفكرى والعقدى لماركس أن يكون سخطه على الأديان وبخاصة على الدين الإسلامى

تعبيراً عن النوايا والمخطط اليهودى ، ولاسيما وأن من المعلوم أن اليهود يمارسون نشاطهم فى هـذا المجال من خلال عقيـدة سرية ، ولو أن ماركس يكفينا ويوفر علينا جهد استنباط مثل هذه النتيجة ، فى التنويه بولائه لموشيه هيس وغيره من زعماء اليهود . وكما فى تناسق أقواله هو وغيره من أقطاب الشيوعية المنكرة للأديان ، والمحقرة لشأنها ، مع أقوال اليهود التى صرحوا فيها بأن نشر الإلحاد إنما هو إحدى وسائلهم ليتمكنوا من صب تعاليمهم ومبادىء دينهم فى نفوس الناس نهاية الأمر .

ونسوق هنا كلمتين لـماركس ولينين ، وكلمة يهودية تثبت هـذه النتيجة . قال ماركس : (لا إله والحياة مادة) .

وقال لينـين عام ١٩١٣ : (ليس صحيحاً أن الله هو الذى ينظم الأكوان ، إنما الصحيح هو أن الله فـكرة خرافية اختلقها الإنسان ليبرر عجزه ، ولهـذا فإن كل شخص يدافع عن فـكرة الله إنمـا هو شخص جاهل وعاجز) .

هذان القولان لـماركس ولينين من عدد غير قليل لهم من الأقوال التى تنفث كل سموم الـكفر والإلحاد ، تتفق - كما قلنا - مع أقوال اليهود الصريحة فى ذلك نورد منها هنا للموازنة كما وعدنا ماجاء فى البروتوكول الرابع عشر من قولهم : (ولهـذا السبب يجب علينـا أن نحطم كل عقائد الإيمان .

وإذ تـكون النتيجة المؤقتة لهذا هى إثمـار ملحدين ، فلن يدخل هذا فى موضوعنا ، ولـكنه سيضرب مثلا للأجيال القادمة التى ستصغى

إلى تعاليمنا على دين موسى الذى وكل إلينا بعقيدته الصارمة واجب إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا)[١] .

هكذا إذن نستطيع أن نصل إلى أن حقد ماركس وسخطه على الأديان إنما هو جزء أساسى فى مخططه الذى يهدف من ورائه إلى أن يتسلط الشيوعيون والمؤمنون به على العالم ويتحكموا فى مقدرات الشعوب ولو بواسطة التخريب وإراقة الدماء وإشاعة الذعر والخوف فى جنبات العالم ، ولا يكلفهم شططا أن يبذلوا فى مقابل ذلك شعارات تجعلهم دعاة للسلام والعدل والحرية ، وهكذا إذن يسوغ منطقياً أن يكفر ماركس بكل الأديان ليتسنى له بناء نظريته التى ينقذ بها البشرية فى زعمه الخرافى ؛ لأن اعترافه بالأديان أو حتى مجرد وقوفه الحيادى منها يفوت عليه تنفيذ برنامجه ولا يمكنه من وضع نظريته الاجتماعية ؛ لأن الأديان إنما تحقق كل ما ادعاه وكل ما يمكن أن يدعى غيره من العدالة والحرية والأمان ، بل وكل المثاليات التى يعجز عن تحقيقها غير الأديان من المذاهب والعقائد التى تنتجها عقول الناس .

ولا يعنينا بعد ذلك أن يكفر ماركس والماركسيون بكل الحلول والتفسيرات التى تقدمها الفلسفة المثالية والروحية للنمو الحضارى والتطور التاريخى ، فليس بعد الكفر ذنب .

فهم لايرون إلا حلا فريداً هو الذى قدمه لهم زعيمهم ومعبودهم

---

(١) الخطر اليهودى - بروتوكولات حكماء صهيون لمحمد خليفة التونسى ص ١٨٤ .

ماركس . ذلك الحل المبنى على الدعوة إلى صراع الطبقات وتقاتل الشعوب ، والدعوة إلى الثورة والانقلاب الذى يحدث حتما فى مسار التغير طبقاً لمبدأ النقيض الذى رأى أن أهم دائرة لتطبيقه هى المجتمعات الإنسانية . وقد عرفنا سوء اتجاهه وعفن خياله فى تصوره ضرورة هذا الحل وحتميته بناء على حصره العلاقات الاجتماعية بين أى طبقتين فى أى مجتمع يقوم على أساس من الرأسمالية أو الملكية فى نمط لا إنسانى من العلاقات .

منهجهم فى قضية ثبات القيم :

والتطور اللانهائى من حال سيئة إلى حال أفضل منها الذى هو مصير الحضارات والقيم والأديان والأشياء المادية والذى هو القيمة العليا والغاية من الحركة وصراع الأضداد إنما يستند فيه الماركسيون إلى نظرية التطور التى وضعها دارون .

وإذا كان لهم فيما مضى ما يسوغ استنادهم إلى هذه النظرية لتبرير الصراع الطبقى والتحول الدائم فى كل شيء ، فمن غير المقبول فى القرن العشرين وإلى ما شاء الله أن تبقى لهم فيها حجة أو يقوم لهم تبرير ، وبخاصة بعد ما فقدت هذه النظرية قيمتها العلمية . ولم تعد تتجاوز دائرة الفرض العلمى المشكوك فى صحته أمام كثير من ملاحظات العلماء ومآخذ المفكرين على قيمتها فى تفسير التطور للأنواع والقيم والمبادىء . .

وعلى تقدير ثبوتها فى يوم من الأيام كنظرية علمية ، فإن مجال تطبيقها الذى اختاره دارون يبدأ بعد النشأة الأولى للكائنات الحية .

أما النشأة نفسها ، فقد أنكر دارون أو توقف فى قضية أنها كانت بطريق التولد الذاتى من المادة الميتة ، وأقر أولم يمانع هو وكثير من أتباعه فى أن تكون نشأة الحياة على الأرض بإرادة خالق عالم حكيم .

فتشبث الماركسيين بها بعد ذلك لم يصبح إلا من قبيل التناقض الفلسفى والعلمى فى الأحكام ، أو من قبيل المغالطات التى يتغيون من ورائها نشر الإلحاد وبث التخريب والإفساد فى الأرض .

وكثيراً ما عول على هذه النظرية فى تبرير وحشيتهم وتخريبهم دعاة الحروب وأعداء السلام .

فالحركة الفاشستية قد بررت إجرامها وقضائها على بعض الأجناس البشرية بأن ذلك أمر طبيعى وضرورى للتطور طبقاً لأكذوبة الانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح ، وبهذا المنطق الغابى يبرر أصحاب الشركات التجارية الضخمة فتكهم بالشركات الصغيرة ، وهكذا أصبح الاستناد إلى النظرية الداروينية فى التبرير والتفسير مجرد مغالطة حمقاء للوحشية والفساد مجافية للإنسانية بعيـــدة عن كل دعاوى التقدم والسلام والإصلاح .

وبهذه المغالطة أو بهذا التناقض فى تطبيق الماركسيين لجدليتهم على حركة المادة والتاريخ يبررون الدعوة إلى القضاء على الاستقرار فى المجتمعات وحضاراتها ، والتزييف والتشويه لكل ما هو حق .

وكل ماهو ثابت وكل ما هو خالد فى الحياة . وبخاصة دعواهم أن القيم والمبادىء والأديان ما هى إلا أمور نسبية ، وهى الدعوة

التي تهون دونها كل دعوة لهم . فلا يرعب الماركسيين ويخرب آمالهم أكثر من فكرة الثبات للأشياء .

فثبات العقيدة الدينية المرتكزة على الإيمان بالخالق وتوحيده وإفراده بكل كمال . وثبات القيم والمبادىء التي هي الدستور الموجه للعلاقات والمعاملات بين الأفراد في المجتمعات المتدينة ، والمرشد لنموها وتطورها في ظل المشاعر السامية والغايات العليا التي تنتهي إلى عمارة الكون وفق ما يرضى الخالق ، ويتفق مع قوانينه وسننه وأديانه .

ومن هنا طفق الماركسيون يجهدون ويجتهدون في ترسيخ الإيمان بجدليتهم المادية للقضاء على كل ثبات في الوجود إلا ثبات تلك الجدلية .

فليس هناك فيما يتصورون ثبات لإيمان بشيء إلا إيمانهم بجدليتهم المادية ، ولا صرامة لقانون في توجيه الحياة وحركتها إلا لقوانين تلك الجدلية ، والكفر والمروق الذي يستأهل أشد أنواع العقاب وأقسى أنماط العذاب التي تصل إلى حد الإبادة للكافرين والمارقين فيه . هو ذلك الكفر بمبادئهم ومخططاتهم وهداتهم من أمثال — ماركس — ولينين — وستالين .

وليس ذلك من مستلزمات منطقهم المبني على المغالطات والتناقضات فحسب .

وإنما لا يتورعون عن كشفه وإعلانه في سفور وتبجح في إعلامهم وأبواقهم وأروقة دعايتهم

فقد هاجمت ذات يوم بعض الصحف العـــالمية موجة الإلحاد فى الاتحاد السوفياتى وقالت : إن هذا شىء مخالف لطبيعة النفس البشرية .. وكيف يتسنى للإنسان أن يعيش دون حقيقة يؤمن بها ويعمل من أجلها ؟

فخرجت صحيفة « برافدا » الناطقة بلسان الشيوعية والمعبرة عن سياسة الهيئة الحاكمة هناك فقالت : ومن قال إننا لا نؤمن بشىء ؟ إن من يقول بذلك يتجنى علينا ولا يذكر حقيقة وضعنا .

نحن نؤمن بثلاثة أشيـاء : كارل ماركس ، ولينين ، وستالين ، ولا نؤمن بثلاثة أشياء : الله ـ الدين ـ الملـكية الخاصة[1] .

وهل يمكن بعد ذلك أن ينطلى مثل هذا التناقض والتخبط فى التفكير على المؤمنين بالماركسية ؟ وسواء كان هذا تناقضاً أو مغالطة فلا ينبغى أن ينخدع به مفـكر فضلا عن باحث أو عالم .

وهاهى الماركسية تأخذ بمنهج الفلسفة المثالية فى ذات الوقت الذى تنكرها وتشتد نقمتها عليها .

وهاهى تنـكر الدين والإيمان فى حين تتخذ لها المادية الجدلية ديناً مقدساً وتجعل من واضعيها وزعمائها أنبياء معصومين من الخطأ .

وهاهى تنكـر كل ثبات فى الأشيـاء بينما ترى ثبات مذهبها ضرورة وحتمية .

وإذا كانت القيم والمبادىء والأديان قضايا نسبية فيما يدعيه المراكسة

---

(١) انظر حرب الأكاذيب : عباس العقاد .

فإن لكل عاقل أن يسألهم ويسأل المفتونين بمذهبهم عن التطور الجــدلى .

هل هو قيمة نسبية عندهم من حيث هو مفهوم فلسفى ؟ ، وقد قرروا فى غير مواربة أن التطور الذى هو غاية الحركة إنما هو القيمة التقدمية والمستقبلية للأشياء والجماعات .

وهل مثالية دولتهم الشيوعية المنشودة ومجتمعهم الفاضل تعد قيمة نسبية أيضاً من وجهة النظر الفلسفية ؟ وهم الذين يقررون أن المجتمع الشيوعى إنما هو أسمى وأرقى المجتمعات الإنسانية بأسرها من حيث القيمة .

وهل عصمة أقطابهم وفى مقدمتهم ماركس ، والتسامى بهم عن الخطأ وصدقهم الذى لا يتصادم مع الواقع يوماً فيما يعتقدون قيمة نسبية أيضاً ؟ .

فهم إن كانوا أوفياء لمذهبهم أمناء على منهجهم وقرروا أن هذه القيم من قبل القضايا النسبيـــة كغيرها من القيم . فقد باتت حتمياتهم ونبوءات ماركسهم أموراً فى دائرة الاحتمال المرجوح لاسيما وأنها لم يتحقق منها شىء حتى الآن بالرغم من محاولات التفسير والتأويل والتعديل المتتابعة لمبادىء وآراء أئمتهم المعصومين أو المعصوبين .

وإن لم يقروا بنسبيتها وكابروا فى القول بثباتها وثبات غيرها من قيمهم فقد وقعوا فى التناقض ، وسقطوا فى أحابيل الكذب والتزييف .

وهم قائلون بل مصرون على القول بثبات هـذا النمط من القيم متجاهلين أو جاهلين كل مايعوق إنجاز رغبتهم وأهوائهم ، وإن خالفت هذه الرغبة وتلك الأهواء النتائج الحتمية التي يفضي إليها منطقهم الجدلي ،

بل إن تطبيقهم لمبدأ النقيض على القيم والأديان قياساً على تطبيقه في المادة والمجتمعات ، ماهو إلا رغبة كذلك .

فزوال القيم وانتقالها إلى النقيض ثم إلى الجامع للشيء ونقيضه انتقالا دائماً ، وهو أهم أسس فلسفتهم الجدلية إنما يحقق لهم رغبتهم في الاحتفاظ بالأوضاع التي يطلبونها في الجماعة في دائرة الأسرة وفي علاقة أحد الجنسين بالآخرة وفي علاقة الفرد بالدولة فتقاليد الأسرة في نظرهم وفضائل الجنس وحرية الفرد كما تريد أن تنظر إليها - ليس لها اعتبار ثابت : قيمتها اليوم تتغير عن ذي قبل ويجب أن تتغير ويجب أن يكون الجديد أفضل من القديم في الوقت نفسه ، والدعوة إلى الحيوانية في علاقة الجنسين بعضها ببعض ، قد تكون مبدأ أخلاقياً ونظام تبني الدولة للأولاد الشرعيين وغير الشرعيين على السواء قد يكون نظاماً أخلاقياً ، بعد أن يعتبر نظاماً اجتماعياً .

ورق الفرد قد يكون مبدأ أخلاقياً كذلك ، فإذا تم ووقع في المجتمع أحد هذه الأمور فهو أفضل ؛ لأن الحال الجديدة التي ينتقل إليها الشيء بحكم مبدأ النقيض - أدخل في القيمة والأفضلية[1] .

وهكذا حين تنكر الماركسية ثبات القيم وثبات المقاييس العامة للأخلاق تطبيقاً لمنهجهم الجدلي على القيم كغيرها من الأشياء فإنهم ينساقون للرغبة ويحكمون بالنوايا الخبيثة ، وهم كذلك كما رأينا حين

---

(١) انظر الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي ص ٢٢٣ .

يخالفون نتائج هذا المنهج فى اتفاقهم على قيم ثابتة لهم ، ولا يعنيهم أن تعود فلسفتهم بالإنسان إلى دركات الحيوانية والفوضى والإحباط الخلق ، كما لا يعنيهم أن تصبح فلسفتهم فلسفة تبرير ورغبة وهوى لا فلسفة تعنى بالبحث عن الحقيقة وتحديد مقاييسها العامة ؛ ليس ذلك فى هـذا الجانب فقط . فسترى أن ذلك هو الأساس فى كل جوانبها .

٣ — الدين مخدر العقول :

ومن الواجب علينا أن نعطى الدين أكثر اهتماماتنا فى هذا البحث باعتبارنا مسلمين أولا ، ودعاة إليه ثانيـاً ؛ نلتزم بالوقوف فى وجه كل التيارات المعادية للإسـلام بوجه خاص نكشف عن المغالطة والتهافت ونجلى عن نوايا السوء التى تنطوى عليها المذاهب والاتجاهات التى يتبناها زعماء هذه التيـارات الإلحادية للنيـل من الإسلام خاصة والأديان السماوية عامة .

ورفض المـاركسية للأديان لم يـكن فقط استلزاماً لتطبيق فلسفتهم الجدلية المـادية على التاريخ والمجتمعات الإنسانية كغيره من الظواهر الاجتماعية التى يجب أن تتحول دائماً إلى النقيض على نحو ما أكدناه غير مرة ، وإنما تجاوزت نظرتهم إلى الأديان النطاق الفلسفى والبحث العلمى كذلك إلى حد أصبحت معه بلا أدنى مبـالغة حملة مكشفة من الكراهية والعداوة التى فاقت كل كراهية وعداوة ، سابقة أو لاحقة لـكل ما تعتنقه الشعوب من أديان ، ولـكل ما تحتويه هـذه الأديان من عقائد وتشريعات وقيم . فلقد تجاوزت هـذه الحملة الإلحادية كل

أساليب الطعن والسب والدعايات الموجهة عـلى مختلف المستويات بدءاً من نظريتهم الفلسفية إلى كتبهم التوجيهية إلى مختلف الأجهزة الإعلامية من إذاعة وصحف ومؤتمرات وتجمعات ، وكأنهم لا عدو لهم ولا عائق فى سبيل مسيرتهم الدموية إلا كل ما يسمى ديناً هو ومن يعتنقونه من بنى آدم ، أينما كانوا ومتى وجدوا .

وقد ولدت هـذه الحملة قوية عنيفة على يد كارل ماركس نفسه ، فـكان لسائر أقطابهم من زملائه وتلامذته فيه القدرة والمثل الذى يجب أن يحتذى فى المانفستو الذى وضعه ماركس وزميله إنجلز عام ١٩٤٨م والذى أصبح بمثابة كتابهم المقدس ، كتب ما يحدد نظرته صراحة إلى الأديان فى قوله :

(إنها الأفيون الذى يخدر الشعب لتسهل سرقته ، وإن الدين وسيلة الإخضاع الروحى ، كما كانت الدولة وسيلة الإخضاع الاقتصادى) .

حدد ماركس نظرته إلى الأديان فى هذا النص بأنها لم تكن أكثر من وسيلة فى أيدى الحـكام من الإقطاعيين والرأسماليين ، ورجال الدين يستخدمونها لتحقيق أغراضهم ومآربهم الذاتية ، إذ يجعلون منها مسكناً لثورات الشعوب ومخدراً لعقولهم وعواطفهم حتى يتمكنوا من الظفر بطاعتهم باسم الواجب الدينى أو الوساطة والـكهنوت .

فباسم الدين يحرم عـلى الشعب فى ظل الحكومات الثيوقراطية الخروج على الذى اختاره الله له ولا يجوز عصيانه ولا مخالفة تعاليمه ، كما لا يجوز التمرد عـلى تعاليم الـكنيسة التى تؤيد الحـكام بمبادئها

الكهنوتية ، وفى ظل هذا الانحراف الدينى وباسمه يصبح فى وسع الحكام والباباوات والمسيحيين أن يستغلوا المحكومين ويستنزفوا جهودهم وأموالهم وعواطفهم لمصالحهم الشخصية وأغراضهم الاقتصادية.

وحسب الشعوب المظلومة المستغلة حينئذ أن ينتظروا ما أعده الله لهم من ثواب ونعيم وجنة فى الحياة الأخرى ، إذا كان فى تمردهم وثورتهم على حكامهم وباباواتهم ما ينتظرهم فى آخرتهم من العذاب والخلود فى جهنم .

هذا ما وصم به كارل ماركس الأديان والمتدينين من السوء والفساد ، واعتبارها مظهراً من مظاهر الرجعية ، والتخلف فى حياة الشعوب .

وماركس فى بغضه الشديد للأديان على هذا النحو قد كان صدى لبيئته وتكوينه الوراثى والنفسى والثقافى ، فهو نتاج تلك الأسرة المستهترة بالأديان وابن ذلك الرجل الذى ترك اليهودية إلى المسيحية ، كما يسجل تاريخه رغبة فى كسب مادى وليس اقتناعاً بما فى الدين البديل من حق وصواب .

وعقليته ما هى إلا ثمرة لثقافة وتعاليم جامعة فى برلين نهلها على على أيدى أساتذة ناقمين على الدين المسيحى ورجاله ، أو مفكرين طبع فكرهم بالإلحاد واللعنة للأديان من أمثال زميلى الدراسة وأستاذيه فى هذا المجال : باكونين ، وفيوزباخ . الذين خرجا على مثالية أستاذهما

هيجل وهاجماه وسفها فلسفته . وكان من الطبيعى أن ينهج نهج ماركس فى هذا السبيل الخاوى من الروحية والأخلاق ، سائر الشيوعيين عـلى شتى مستوياتهم كما ذكرنا .

فهـذه صحيفة تركمانسكايا اسكرا ، فى ١ كانون الأول عام ١٩٥٧ تذكر فى عددها هذا :

(أن العقيدة الدينية الإسلامية هى القوة المظلمة التى لا تزال تفسد العقول ، وحياة الشعوب ، وتعيق النمو ، وتقف كأى حاجز فى طريق السعادة والنور والمعرفة . هذا وإن الطقوس الدينية لا تزال لاصقة ثابتة ، كما أن الديانة لم تتوقف عن كونها مادة الأفيون لدى بعض الناس) .

وفى برنامج المؤتمر السادس الدولى الشيوعى الذى انعقد فى سنة ١٩٢٨ ما يأتى :

(الحرب ضد الدين — أفيون الشعوب — تشغل مكاناً هاماً بين أعمال الثورة الثقافية ، ويلزم أن تستمر هذه الحرب بإصرار وبطريقة منظمة) .

وعلى هذا النحو تمضى آراء ماركس وكلماته فى هذا الصدد كغيرها من الآراء والـكلمات مبادىء مقدسـة لا يدخر الشيوعيون وسعاً فى نشرها وإذاعتها بل وترجمتها فى الواقع العملى بأ كثر الأساليب التواء ودهاء ، وأشد الوسائل فتـكا ومضاء ، وربمـا ساغ لبعض المتعاطفين مع ماركس أن يتلمسوا له بعض المبررات والمعاذير فى عدواته للدين ،

من حيث انحراف طبيعته النفسية والعقلية ، وانجرافه أمام موجة الإلحاد الطاغية التى سيطرت على الأفق الفلسفى فى القرن التاسع عشر .

وإذا كان لنا أن نسلم بهذا جدلا فإنه لا يسوغ لهؤلاء أن يبرروا أو يعذروا ، ولا يجوز لنا كذلك أن نسلم جدلا لأتباعه من الشيوعيين لا سيما بعد زوال النفوذ الكنسى وانفصاله عن السياسة وافتضاح أمر الشيوعيين ، وانكشاف مغالطتهم وتناقضاتهم فى جدليتهم وواقعهم أن يرددوا كلام أئمتهم ، ويدينوا بتعاليمهم الجوفاء وبالرغم من ضراوة الحملة الإلحادية التى يقودها الشيوعيون وغيرهم من أعداء الإنسانية على المتدينين للقضاء عليهم وعلى مجتمعهم وحضارتهم ، فإن دين الله مازال فى شتى بقاع الأرض ينشر الأمن والمحبة والسلام بين معتنقيه من الشعوب « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .. الآية »[1] .

فأى عذر يمكن التماسه للشيوعيين فى هذه العداوة للدين وليس لها فى الحقيقة من موجب ولا سبب إلا التعبد بتعاليم وتوجيهات أئمتهم وفى مقدمتهم كارل ماركس .

وإذا كان ثمة بعض مظاهر الحيدة والبعد عن روح الدين وجوهره من قبل الحكام أو رجال الدين فى زمان ماركس أو قبله أو حتى الآن ، فكل عاقل فضلا عن باحث أو متخصص يدرك أنه لا لزوم فى العقل بين فساد المعتنقين لأى دين وفساد ذلك الدين ، ولا ارتباط بين المنتسبين لدين وبين بطلانه .

---

(١) سورة التوبة الآية : ٣٢ .

وإذا كان فساد بعض المتدينين وانحراف بعض المعتنقين لأية عقيدة أو أى مذهب دليلا على فساد الدين أو بطلان العقيدة والمذهب . فماذا يرون فى انحرافهم الذى لايخفى على كل واحد من المتتبعين لسيرتهم السياسية والاقتصادية ؟

ماذا هم قائلون فى تخليهم عن تطبيق المبادىء والتعاليم مختارين أو مكرهين ؟ فإذا كان ذلك لخلل فى المذهب أو فساد فى النظرية . فمن العبث والحماقة أن تظل ثقتهم فى مذهبهم وعصمة أئمتهم من كل خطأ ، على مستوى الإيمان واليقين بحيث لا يدانيهما فضلا عن أن يساويهما إيمان ويقين بأى مذهب أو أية عقيدة أخرى . وما كان هناك أى موجب أو داع .

كما أن من حقهم حينئذ أن يندموا ويأسوا أشد الندم وأمر الأسى ، على ما بذل فى سبيل هذا الإيمان من تضحيات جسام ، وما أريق حوله من بحار الدم وعبر إليه من جبال الجثث والأشلاء .

وإذا كان الأمر يعود فى الحقيقة إلى عدم التلازم بين حقية المذهب وتطبيقه فى الواقع ، فمن المغالطة والتناقض أن يصح هذا لهم ولا يصح ولا يكون مقبولا فى جانب الدين ، ومع انكشاف تهافتهم على هذه الصورة ما زالو ينعتون الدين مرة بأنه مخدر ، وأخرى بأنه أفيون الشعوب ، وثالثة بأنه عائق فى سبيل التقدم والتطور ، أو وسيلة لفرض الرجعية على الشعوب . . . إلى آخر النعوت التى لا يدعون فرصة للدعاية ضد الدين وأسرفوا فى ذكرها .

وإذا تناولنا هذه النعوت التى يرمى الشيوعيون بها الأديان وواجهناها بحقائق الإسلام على وجه الخصوص إتماماً للحجة ، وزيادة

فى الإلزامات ، فهل نجد هذه النعوت بل المطاعن تصمد أو تقوم أمام حقائق الإسلام ؟

وهل الإسلام فى حقيقته أو كان فى واقعه التاريخى يوماً وسيلة يستخدمها الحكام الرجعيون من المسلمين لتخدير الفقراء من أبنائه ليصبروا على فقرهم ويخنعوا فى بؤسهم فيسهل استغلالهم وتتيسر سرقة جهودهم وعواطفهم ؟

ومن هنا يمكن انطباق بقية الأصناف كأفيون الشعوب والتحجر والرجعية على الإسلام فأول حقيقة يمكن أن تواجهنا فى هذا الصدد هى أن الإسلام قد جاء بتشريعات وقوانين تقود حركة الحياة وتصحح مسار الإنسان وتؤكد سيادته على ما سواه من عناصر الوجود ، وتلقى على كاهله مهمة خليفة الله فى أرضه ، ومسئولية عمارة الكون ، قال الله تعالى : (وإذا قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) الآية[١] . وقال تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم آمناً — يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)[٢] . . . وقال : (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . الآية)[٣] .

وفى هذه الآيات وأمثالها من القرآن يحدد الإسلام مسئولية الإنسان وهى مسئولية على نفس الدرجة من مكانته ومنزلته بين الموجودات فى

---

(١) سورة البقرة الآية : ٣٠ .

(٢) سورة النور الآية : ٥٥ .

(٣) سورة هود الآية : ٦١ .

هذا العالم ، فهو مسئول أمام الله عن عمارة هذه الأرض وتنظيم مسيرة الحياة ، وتسخير ما أودعه الله فى الطبيعة من قوانين واكتشاف ما فيها من أسرار ، ونشر ظلال الأمن والسلام على كل جنبات الكون ، وهى مسئولية لا يضطلع بها الإنسان عبثاً ، أو جزافاً ، ولكن لما زوده الله به دون غيره من مواهب وقدرات تؤهله لهذا الدور العظيم فى رحلة الحياة .

فالإنسان هو الذى يتفرد بقدرات التأمل والتفكير والموازنة ، والاستنباط والتمييز بين الخطأ والصواب ، وبين الخير والشر ، والتوقع وحرية الاختيار بين النظائر والأضداد .

ومن هنا ناط به الإسلام كل تشريعاته وألزمه كل تكاليفه التى هى فى نفس الوقت دستور حركته وتقدمه وينبوع حضارته .

ولم يكن من حق الإنسان فى هذه المكانة التى وضعه الإسلام فيها أن يتنصل من تبعاته ، وإن بلغت منه مشقتها وألا يتملص من مسئوليته أمام شرع الله مهما أثقلت كاهله ، وإلا فعليه أن يستعد لعقاب الله ويتوقع شديد عذابه . وليس لعاقل فضلا عن منصف أن يزعم أمام هذا التصور أن الإسلام يمكن أن ينطوى على سلبية ، أو يدعو بروحه أو بتشريعاته إلى خنوع واستكانة وتكاسل ، أو يدعى أن ديننا يمكن أن يكون وسيلة فى أيدى الأغنياء لتخدير الفقراء والمعدمين بإضفاء الشرعية على غنى الأغنياء وفقر الفقراء بحجة أن الله خلق الناس درجات مختلفة . وعلى ذى الدرجة الوضيعة أن يخنع ويستسلم لقدر الله وتصريفه .

كما أن لصاحب الدرجة الرفيعة أن ينعم بفضل الله عليه ، ويعتقد أن من حقه أن يأمن على مكانته وثروته من طمع الضعفاء ، وتطلع المعوزين .

فهذا زعم وادعاء وراء التصور الحقيقى لحدود الله التى رسمتها ، وأوضحتها تكاليف الإسلام وتبعاته ومسئولياته التى تساوت أمامها الجماعة الإسلامية كل على حسب قدره ووضعه .

فالحكام الذين يلون أمر المسلمين تتحدد مسئوليتهم فى تنفيذ وتطبيق قوانين الله وأحكامه التى جاءت فى شريعته ، والقرآن والسنة ، وسيرة محمد ﷺ وأصحابه هى مصدر توجيههم ومنبع حركتهم وقوتهم .

وبتطبيق الحكام المسلمين وولاة أمورهم أحكام الله وشريعته على المحكومين تتحقق بالضرورة فى الجماعة المسلمة أسمى قيم العدالة ، والإنصاف والمساواة فى فرص العمل والرزق والعلم كل على قدر مواهبه وإمكاناته .

كما تتحقق القوة والمنعة للأمة المسلمة بإعدادهم وتهيئتهم للدفاع عن حماهم ، والزود عن بلادهم بخير الوسائل الممكنة لذلك بدون حدود ولا قيود حتى يتمكن المسلمون من صد كل أنماط الغزو الحاقد على الحق والعدل والسلام ، ويكون فى وسعهم إخافة أعدائهم وإرهابهم ، وتتم بذلك عزتهم ومنعتهم ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ليصبح من واجبهم كذلك أن ينقضوا ويثوروا على كل ألوان الظلم والباطل وعبودية الإنسان فى شتى بقاع الأرض تحقيقاً لرسالتهم ونهوضاً بمسئوليتهم . قال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم .. الآية)[1] .

ولا تنحصر القوة فى الخيل والدرع والسيف والرمح ، بل يجب أن تكون القوة ملائمة لكل عصر مستمدة من جنس ما يصل إليه

(١) سورة الأنفال الآية : ٦٠ .

اختراع الإنسان وصناعته فى كل زمان بما يحقق لهم هذه المهمة ، وبما تفرض عليهم هذه المسئولية . قال الله تعالى : (تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه .. الآية)[1] .

وعلى هذا فإن الإسلام يقرر فى صراحة ووضوح أن حكام المسلمين يصبحون متجاوزين لحدود الله ، إن هم قد صدر منهم أدنى تفريط فى جانب من جوانب مسئوليتهم ، والأمثلة كثيرة فى هذا المجال ، وهى أكثر من أن تكون فى متناول العرض والسرد .

وحسبنا هنا أن نرى الإسلام يلزم ولاة الأمور بالعدل فى تنفيذ أحكام الله فى مجال الحقوق والواجبات على السواء . فى توازن دقيق فى ظل القرآن ، والسنة ، واجتهاد العلماء . وعلى هذا الأساس يجب أن يتم توزيع الحقوق فى المجتمع الإنسانى مادية كانت أم أدبية كما يجب تطبيق الثواب والعقاب .

ومن الظلم والتجاوز لحدود الله أن يحيد ولى الأمر عن العدل فى علاقاته بأفراد الأمة وطوائفها بسبب ميول شخصية ، أو هوى ، أو محاباة للبعض دون البعض نظراً لمنصبه ، أومركزه المادى ، أوصلة قرابة ، أو بغض وكراهية لفرد ، أو طائفة ، كل ذلك ينأى بولى الأمر عن هذا الميزان الإلهى الذى يتغياه الإسلام فى تأكيد حق الحياة والعزة والتقدم لأفراد وطوائف المجتمع الإنسانى .

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط

---

(١) سورة الطلاق آية : ١ :

ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)[١] . وقال : (يا الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً . فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً)[٢] .

هذا هو الأساس فى تطبيق حكم الله وهو مسئولية كل ما يلى أمراً من أمور المسلمين على وجه العموم .

والجرم الذى يستأهل أشد أنواع العقاب من الله ومن المسلمين هو الانحراف عن تنفيذ قوانين الإسلام بالعدل والقسطاس فى إعطاء الحقوق ، وتأكيد الواجبات فى جزئية من جزئيات الحياة إلى حد أنه قد يخرج مرتكبه عن انتمائه لدينه ، ويدخله فى نطاق الكفر بالله ، ويكون ذلك إذ يرى عدم صلاحية القوانين الإلهية لتنظيم المجتمع وتوجيه الأمة . وأن من الضرورى استبدالها بغيرها من القوانين التى يضعها الإنسان ؛ والقرآن يقرر هذا ويؤكده . قال تعالى :

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[٣] أو الظالمون أو الفاسقون . أحكام ثلاثة فى آيات ثلاث يستحقها من يقصر من حكام المسلمين فى تنفيذ قانون من قوانين الإسلام على حسب الدوافع والمقاصد المختلفة للحكام فى هذا السبيل .

---

(١) سورة المائدة آية : ٨

(٢) سورة المائدة آية : ٤٤ .

(٣) سورة النساء الآية : ١٣٥ .

هذا ما قام عليه المجتمع الإسلامى فى حياة النبي ﷺ ومن التجوز فى التمثيل أن نذكر من كلماته الخالدات (يا بنى هاشم اعملوا فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا بنى عبد المطلب اعملوا فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا فاطمة اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً) .

(إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) .

وقد نهج الخلفاء الراشدون نهج النبي بكل أمانة وصدق بعد أن لحق بربه وأتم تبليغ رسالته كما أرادها الله أن تكون .

فها هو الصديق أول الخلفاء الراشدين يقول فى أول خطبة له بعد توليه الخلافة : « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له » .

ويقتص عمر بن الخطاب من أحد أبناء عمرو بن العاص إذ كان والياً له على مصر لواحد من أبناء المسلمين ويجعله يضربه بالسوط قائلا فى عبارته المشهورة الرجل « اضرب ابن الأكرمين » . وحين سأل الناس أن يدلوه على عوجه ، فقال له أحدهم : « والله لو علمنا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا » فحمد الله أن جعل فى المسلمين من يقوم عمر بسيفه .

وهذه أمثلة من أقوال وأفعال الخلفاء الراشدين وعلى منوالهم نسج

سائر حكام المسلمين فى حياة الدولة الإسلامية التى امتدت رقعتها من المحيط إلى الخليج ، وهى لا تمثل شيئاً ذا بال إلى جانب ما حفلت به مآثرهم فى الحكم من أسمى آيات العدل والإنصاف والأمانة فى تطبيق قوانين الإسلام وأحكامه مما أعاد للإنسان إنسانيته وكرامته ، وهيأت لتاريخ الإنسانية أن يظفر بأرقى حضارة وأسمى نهضة كانت منبعاً للمعرفة والنور والقيم لأكثر شعوب العالم تحضراً الآن .

هـذه بعض حقائق الإسلام فى موقفه من تنظيم المجتمع وتوجيه المسلمين ، ولو درسها بموضوعية ونزاهة أقطاب الشيوعية ابتداء من ماركس وإنجلز ولينين وستالين وغيرهم من رواد وتلامذة لما ساندتهم الأمانة العلمية ولما سوغ لهم المنطق السديد أن يتشدقوا بهـذه الأقوال الخاوية فى حق الأديان ، ولما أصدروا هذه الأحكام الجائرة على الحضارة الإسلامية بوجه خاص ، اللهم إلا أن تكون الرغبة والأحقاد والعداوة لذات العداوة ، وإلا فهل يمكن لدارس يتسم بالنزاهة والأمانة لدين كدين الإسلام أن يصفه بعد هذا التصور بأنه مخدر أو أفيون استخدمه الحكام الرجعيون لتخدير الشعوب وتنويمها لتسهل سرقتها وليتيسر استغلالها ، ألم يحرم الإسلام السرقة والاستغلال ؟ ألم ينكر كل ألوان الظلم والجور والاحتكار ؟ ألم يجعل الإسلام كل ذلك ونحوه من التجاوز لحدود الله ؟ ومن الجرائم القانونية التى تستتبع لمقترفها عقوبات محددة ويوجب على المسلمين عدم التهاون فى تنفيذها فضلا عما توعده الله به من العقاب والعذاب الشديد فى الحياة الآخرة ؟

وأمام هذه التساؤلات التى إن جهل جوابها وجواب غيرها أقطاب

الشيوعية الأوائل فلا يجوز لأتباعهم والمؤمنين بهم فى كل جهة من العالم أن يجهلوا شيئاً منها ، وعليهم أن يتصفحوا تاريخ الإسلام ويدرسوا أحكامه وقوانينه حتى يكون تفسيرهم للتاريخ مبنياً على الاستقراء العلمى، وحتى يتسنى لهم الوصول إلى النتيجة اليقينية من خلال هذا الاستقراء ، ولا يكون تفسيرهم للتاريخ حينئذ مجافياً للواقع فيما يتعلق بموقفهم من الأديان عامة والإسلام خاصة .

والحق أن مثل هذا المنهج العلمى لا يعنى أعداء الإسلام والشيوعيين بوجه خاص منهم مع ادعائهم بأنهم لا يؤمنون بغير المنهج العملى ولا يبنون تفسيرهم للتاريخ إلا على أساسه .

نعم لا يعنيهم أن يبنوا هذه النتيجة على المنهج العلمى فى استقراء تاريخ الأديان ودراستها لأنهم فضلا عن رغبتهم فى التنصل من تبعات الأديان ومسئولياتها يرون فى الدين الإسلامى عائقاً وعقبة لا فى سبيل التقدم الحضارى للإنسان كما يدعون كذبا ، وإنما فى سبيل تنفيذ مخططهم ، وتحقيق أحلامهم الشيطانية .

ومن هـــذا التناقض بين دعوى المنهجية فى تفسير التاريخ وإلقاء الحقائق والأحكام عن مجرد الرغبة والهوى فى حق الأديان ، يتضح لكل إنسان حقيقة خوفهم من يقظة الإسلام وصحوة المسلمين .

الأمر الذى لا يتحرجون فى التصريح به علانية فى مثل ما قاله أحد زعمائهم مولوتوف فى خطبة له : (لن تنتشر الشيوعية فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز وإلا إذا قضينا على الإسلام) .

وإذن فليست المسألة هي رجعية الدين أو حيلولته للتقدم والتطور الحضاري بقدر ما هي مسألة حيلولة الدين لتقدمهم هم نحو تحقيق مطامعهم في السيطرة على العالم واسترقاق البشرية ، فإن دعوى الإصلاح والعدالة وإنصاف الدهماء لم تعد تنطوي على أحد من الناس لا سيما من يتتبع مغالطاتهم ومن تتاح له الفرصة للكشف عن تهافتهم الفكري وتخبطهم بين الواقع المؤلم في دولتهم وقلق شعوبهم وبين أحلامهم الخداعة .

ومن اليسير كل اليسر على كل أحد يتتبع مذهبهم ويدرس مبادئهم أن يظفر بهذه النتيجة ، أعني أن خوفهم من صحوة الإسلام والمسلمين الذي قد يكون مبنياً على اعتقاد منهم في قوة هذا الدين وفعاليته ، هو الذي حدا بهم إلى أن يصبوا جام سخطهم ونقمتهم عليه وأن يخصوه بالنصيب الأوفر من المقاومة والاستنكار .

أساليبهم في محاربة الدين

وقد اتبع الماركسيون مختلف الأساليب في تنفيذ مخططهم الإلحادي للقضاء على الإسلام بالذات حسب مقتضيات الظروف .

ومن أبرز هذه الأساليب :

(ا) أسلوب الدعاية التي لجأوا فيه إلى وسائل مختلفة كالمؤتمرات والتجمعات التي أثاروا فيها حفيظة الغوغاء من أتباعهم على الدين في خطب وتصريحات نارية تنال من قدسيته وتسفه معتنقيه ، وقد عرضنا طرفاً منها . ونعرض الآن ما جاء في المؤتمر الروسي عام ١٩٢٠ م

على لسان لينين خطوب المؤتمر من قوله : (إن تهذيب الشبان وتعليمهم يجب أن يتوخى تلقيحهم بالأخلاق الشيوعية ، ولكن هذه الأخلاق ليست مستمدة من وصايا إلهية لأننا لا نؤمن بالله) .

وأجهزة الإعلام فى مجال الدعاية ضد الدين هى وسيلة لا تقل فى أهميتها عن المؤتمرات والخطب ، وقد عرضنا بعض النماذج منها ومن واجبنا أن نعرض منها طرفاً آخر هنا ، ففى مجال الصحف نشرت صحيفة سوفتسكيا برافدا عام ١٩٥٤ (أن الاعتقاد بالله هو تراث القدامى الجهلة) .

ونشرت عام ١٩٥٨ (أن واجبنا يقضى بأن نوجه حملة كفاح عقائدى صحيحة ضد الدين) .

ونشرت باكنسكى بابوشى ، فى ١٧ كانون الأول ١٩٥٨ : (لو كان الله موجوداً لما سمح أن ننبذ الدين) .

نشرت صحيفة العلم الأحمر بتاريخ آذار ١٩٥٩ : (من الطبيعى أن الصراع بين الإلحاد والإيمان بالله لم ينته بعد ولابد من توجيه الجماهير نحو استئصال جذور الإيمان بالخرافات والجن والآلهة بصورة أعمق مما حدث حتى الآن) .

ثم ها هى محطة إذاعة موسكو فى ٣ نيسان ١٩٥٨ تذيع ما نصه : (إن جميع الديانات متشابهة حيث إنها كلها باطلة ، كما أن وجود الميول والاتجاهات المختلفة جعل الوحدة منها تطرد الأخرى) .

ولم يكن نصيب السينما فى مضمار الدعاية لتشويه الدين أقل من نصيب المؤتمرات والصحافة والدعاية ، فكثيراً ما استغل الشيوعيون

أفلامهم فى هذا الاتجاه . ومن هذه الأفلام على سبيل المثال فيلم : « سقوط برلين » الذى صنعه الكرملين نفسه ، وفى غير منظر كنت تجد الجيش الروسى فى ميادين الحرب يبتهلون إلى ستالين قائلون : انصرنا يا ستالين ، لن نهزم ما دام ستالين معنا سننتصر لأن ستالين معنا .

هؤلاء الرجال بالملايين وهم فى حالة تجعل الإنسان يتجه إلى خالقه يطلب منه العون والنصر يتجهون صوب الكرملين ويدعون ستالين(١) .

(ب) كما استخدم الشيوعيون فى حربهم مع الدين أسلوباً آخر لا يقل عن سابقه ضراوة وهو تقنين ودسترة الحرب وإضفاء الطبعة الرسمية عليها بجعلها تشريعاً قانونيا فى دستور الحكم ، وقد لجأوا إلى ذلك بعد نجاح الثورة الشيوعية والقضاء على حكم القياصرة حتى يتم لهم تجريد المسلمين والمسيحيين من أخطر أسلحتهم فى هذه المعركة وهو دينهم وعقيدتهم وقد كانوا حينئذ يعدون بعشرات الملايين ، ومازال عددهم يتضاعف باستيلاء روسيا الشيوعية على كثير من دول المسلمين فى آسيا الصغرى .

كان القضاء على الدين فى نفوس هؤلاء المسيحيين والمسلمين هدفاً وهو من الأهمية بحيث يستحق التسجيل ضمن مواد الدستور الشيوعى فكبلوا بذلك الحرية الدينية وحصروا الدعاية للدين فى أضيق حدود ممكنة ، وفصلوا الكنيسة عن السياسة وعن دور التعليم من مدارس وغيرها ، بل جردوا مناهج التعليم من كل ما يتصل بتدريس التعاليم

---

(١) الشيوعية والإسلام لعباس العقاد - أحمد عبد الغفور عطار ص ٦٥ .

الدينية واحترامها مستعيضين عن ذلك بتلقين الأطفال والشباب فى المدارس وسائر المؤسسات التعليمية مبادىء الكفر واحتقار الأديان .
وتطبيقاً لهذا المنهج بادروا بعد قيام الثورة مباشرة بإصدار مرسوم ٢٣ يناير سنة ١٩١٨ المشهور معلنا فصل الكنيسة عن الحكومة وفصل المدارس عن الكنيسة .

وأدمجوا ذلك فى دستور سنة ١٩١٨ وفى تعديله الصادر عام ١٩٢٥ بالنص الآتى : ضماناً لحرية الضمير لدى العمال تعد الكنيسة منفصلة عن الحكومة والمدارس منفصلة عن الكنيسة . ولكن حرية الدعاية الدينية واللادينية مكفولة للجميع .

ثم يتقدمون خطوة جديدة فى الاتجاه السلبى نحو الدين ، فتستبدل عبارة حرية الدعاية الدينية فى تعديل سنة ١٩١٩ للدستور بعبارة : حرية إقامة الشعائر الدينية وحرية اللادينية مكفولتان للجميع .

فواضح أنهم فى هذه العبارة يحاولون الحد من النشاط لصالح الدين ويضيقون حدود الحرية فى ممارسة التدين ، فيحصرونها فى مجرد إقامة الشعائر ، بينما يطلقون النشاط الدعائى فى العمل لترويج اللادينية والتحلل فلا يصبح ثمة مجال للممارسة الدينية إلا بين جدران المساجد والكنائس فى حين تكرس الإمكانات المختلفة للدعاية اللادينية بلا قيود ولا حدود .

وهذا الاتجاه الدستورى يتأكد بين مواد قانون الحكم الراهن وهو الذى وضع دستوره ستالين عام ١٩٣٦ ، والنص الذى يتضمنه كما جاء فى المادة ١٢٤ هو لكى يستمتع المواطنون بحرية الضمير تفصل الكنيسة فى الاتحاد السوفييتى عن الدولة ، والمدرسة عن الكنيسة ويكفل لجميع

المواطنين حرية العبادة الدينية كما تكفل لهم حرية الدعوة ضد الدين .

والقضية إذن ليست فى الحقيقة قضية حرية المتدينين فى القيام بالعبادات والشعائر داخل دور العبادة فقط كحق من حقوقهم وإن غلفت بنصوص دستورية . فإن الأمر لا يعدو مجرد دعاية للمخادعة . وإلا فإن طوائف المتدينين تعتبر عناصر منبوذة لا حق لهم فى التمتع بالانتماء إلى الحزب الحاكم أو بأى موقع هام فى الدولة ، لأنها عناصر رجعية ومتخلفة بل إنهم يحسبون فى عداد الأعداء للثورة الشيوعية . ومن حق الدولة أن تتعقبهم ، وتواصل بث القلق والخوف فى نفوسهم ، فتحرض عليهم الشرطة لتقتحم بيوتهم فى أى وقت وأن تتعامل معهم بالأسلوب المناسب . فتنص المادة ٥٨ من قانون الاتحاد السوفيتى على تصنيف المتدينين فى باب أعداء الثورة . إلى آخر ما يلزم أعداء الثورة من معاملة .

ثم يجهز على هذه الحرية الدينية إجهازاً تاماً من حيث الواقع الفعلى أن المتدينين يعجزون كل العجز عن توجيه أبنائهم توجيهاً دينياً أو يصلوهم بالإيمان أو يورثوهم مبادئه وقيمه .

فإن من المحذور .كما تنص على ذلك المادة ١٢٢ من قانون الجنايات . تلقين الأطفال الأحداث العقائد الدينية ، سواء فى مدارس الحكومة أو المدارس الخاصة أو المعاهد التعليمية المختلفة . وجعلت كل مخالفة فى هذا الشأن جريمة تستوجب الحبس الإصلاحى مع الأشغال مدة لا تزيد عن سنة . ولا ينفق المرء بعد هذا كثيراً من الجهد فى أن يدرك تناقض الماركسيين فى هذه القضية أيضاً بين دعوى الحرية الدينية للمتدينين من مواطنى الاتحاد السوفيتى وبين الواقع الاجتماعى لهؤلاء الذين يعانون

فيه هذه الألوان من الاضطهاد والتجريم القانونى والتربية الإلحادية لكل جيل قادم . ولا عناء فى الخروج من ذلك بنتيجة هامة فوق هذا وذاك . وهى أن هذه الدعاية للحرية الدينية التى يخدعون بها العالم ، قد يكون المقصود من ورائها نوعاً من التأثير السلبى على نفسية المتدينين ، حينما يتيح لهم الشيوعيون أن يعبدوا الله ويصلوا فى إطار هــــذه الحرية المطوقة بالاضطهاد والضغط المقنع وغير المقنع حتى يظلوا شاعرين بأنهم يحملون وزر نبذهم وهوانهم ، فيضطرون إذا رغبوا فى العيش الآمن والتمتع بسائر الحقوق أن يتخلوا عن دينهم ، هكذا بدون إكراه ظاهر .

ولا يبقى بعد ذلك إلا أن يظل الشيوعيون مزهوين بمظاهر التسامح وإتاحة الحريات الدينية وغير الدينية مهما دبروا وكادوا للدين وقطعوا الصلة بينه وبين أسباب الحياة ليذبل وتزوى مبادئه شيئاً فشيئاً إلى أن يفارق الحياة ، ونسوا أن رب الدين قد تكفل بحفظه . قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] .

ولا يمكن أن ينطلى كذبهم هذا أو ينخدع بمغالطاتهم تلك إلا مخادع أو مغالط . وما أكثر المخادعين الكذابين الذين لا حيلة لهم فى طمس معالم الحق وإطفاء نور الحقيقة إلا أساليب الكذب والخداع .

وكذب الشيوعيين وخداعهم من ذلك النوع التافه الذى لا يصدر إلا عن السذج والبلهاء من الناس .

(ح) ولا يبقى للباحث عن عداوة الشيوعيين ومداهمتهم للأديان

---

(١) سورة الحجر : الآية ٩ .

والمتدنيين دليل أو برهان فوق ما قدمناه ، إذا هو وقف على تلك الحقيقة التاريخية التى لا تخفى على أحد أو شعب أو دولة فى العالم ، شرقه وغربه ، إلا من فتن بمغالطاتهم أو رغب فيهما من الحاقدين على الدين ، والحالمين بالقضاء عليه فما قاموا به من الأساليب الوحشية ضد المسلمين فى تلك الدول الإسلامية التى سقطت فى أيديهم دولة تلو الأخرى فى أواسط آسيا وشمالها يدحض كل شبهة ويفحم كل عنيد فى هذا الصدد .

فالمثقف العادى فضلا عن الباحث والعالم بحقائق التاريخ الإسلامى يعرف أن الإسلام قد دخل . هذه المنطقة ونعمت شعوبها بمبادئه واصطبغت مجتمعاتهم بصبغته وتكلموا لغته على اختلاف قومياتهم ولغاتهم ، لم تعتنق هذه الشعوب الإسلام فحسب ولم تسعد بمبادئه وتشريعاته فحسب ، وإنما قامت بدور تاريخى فى بناء الحضارة الإسلامية وإثراء التراث الفكرى للمسلمين فى شتى أشكاله وأنماطه .

ومن سوء حظ هـــذه الشعوب الإسلامية أن كانت بلادهم من نصيب الاستعمار الروسى القيصرى ومن بعده الشيوعى . فقد استولت روسيا على الأورال — استرخان — سيبيريا — القرم — القوقاز — التركستان ، أى الشمال الشرقى من العالم الإسلامى أجمع .

وهذه المنطقة أصبحت تكون تسعة أعشار الاتحاد السوفيتى .

وقد بلغ تعداد سكانها تحت وطأة الحكم الروسى لها نحو المائة مليون مسلم وانعدام العوائق الطبيعية والموقع الجغرافى لهذه البلاد

بالنسبة لروسيا وانصراف الأقلام والكتاب فى آسيا وإفريقية لمناهضة الاستعمار الغربى وعدم تنبه الدول الأوربية التى كانت فى ذلك الوقت تتحفز كذلك لاستعمار الشرق ، كل ذلك وغيره قد أتاح أكبر الفرص أمام انقضاض الروس على هذه المنطقة والسطو عليها بلداً إثر آخر .

والأمر الذى لا ينكر أن المسلمين فى هذه البلاد لم يقصروا فى أداء واجبهم السياسى والقومى والدينى تجاه هذا الغزو ، فقد قاوموا الغزاة بكل ما أوتوا من إمكانات ، ودافعوا عن كل شبر من أرضهم ، وضربوا فى سبيل ذلك أروع أمثلة البطولة والفداء .

ولكن انهيار القوى والجيوش الإسلامية فى هذه الدول كان أمراً طبيعياً ونتيجة منتظرة يبررها عدم التكافؤ بين إمكانات وقدرات المسلمين ، وبين إمكانات الغزاة الشيوعيين وبخاصة بعد تلك النهضة الوليدة التى لم يكادوا يظفرون بها بعد نجاح الثورة الشيوعية والقضاء على القياصرة ، إذ خيل المسلمين فى هذه الجمهوريات أنهم قد أصبحوا بمنجى حقيقى من أبغض وأسوأ أنماط الحكم الذى تفنن القياصرة خلاله فى إذلال المسلمين ، ومحو شخصيتهم ، والعمل على بتر صلتهم بدينهم ، وقوميتهم ، وحضارتهم ، وتاريخهم ، ولم يدعوا وسيلة أو أسلوباً يمكن أن يستخدمه مستعمر حاقد على الإسلام والمسلمين ، طامع فى ثروات وخيرات هذه البلاد إلا استخدموه تنفيثاً عن هذا الحقد ، وتحقيقاً لنوازع السرقة وتطلعات السطو والاغتصاب .

فلم يكن غريباً أن يستغل هذا الوضع البلاشفة الشيوعيون بعد انقلابهم ضد القياصرة ويستنهضوا عزائم هذه الشعوب المهينة ويعدوهم بما طال انتظارهم له من تحرير بلادهم وعود كيانهم ودينهم ، ومنحهم شخصيتهم وقوميتهم التى غطاها ضباب القياصرة الكثيف ، وفرح المسلمون وهللوا لما نالوه من استقلال سياسى ووطنى ، وممارسة لحياتهم التى عادت إليهم ينعمون بها فى ظل دينهم وسلطانهم ، واعترفت دول العالم المجاورة لهم باستقلالهم وسيادتهم ، كما اعترفوا هم بهذا الفضل للشيوعيين فلم يقصروا فى نصرتهم وعونهم ضد النظام القيصرى المتداعى ، ولكن استقلال الشعوب الإسلامية فى هذه الجمهوريات الجديدة المتحررة على أيدى البلاشفة ، لم يكن فى الحقيقة إلا جزء من برنامجهم الاستعمارى وما لجأ البلاشفة إلى منح هذه الشعوب حريتها وسيادتها إلا ليضمنوا تأييدها ويظفروا بمعونتها لتأكيد انتصارهم على النظام القيصرى الرجعى وتمكين سلطانهم ، وبخاصة بعدما افتقدوا النصير من جهات أخرى ، فلم يكد يمضى وقت طويل على حلم الحرية لهذه الشعوب ، حتى بدأ البلاشفة فى تنفيذ برنامجهم على دولهم ونظمهم ، ولم يكد ييأس البلاشفة من إضفاء الصبغة الحكومية على النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذه الدول ؛ ولاسيما بعد أن تكشفت نواياهم للمسلمين حتى وجد البلاشفة أن لا سبيل إلى تنفيذ هذا البرنامج إلا بغزو هذه البلاد مرة ثانية غزواً عسكرياً ، وإخضاع شعوبها لروسيا الشيوعية .

ولم تكد تمضى سنوات ثلاث حتى تمكنوا من إخضاع المنطقة جميعها من شاطىء المحيط الهادى إلى جبال أورال .

وتبددت أحلام هذه المنطقة الإسلامية مرة أخرى ، ووجدوا أنفسهم وقد أصبحوا فريسة لعدو أشد خطراً ووبالا على حياتهم وحريتهم ودينهم ومصيرهم من سابقه ، ولم تجد المسلمين أمام جحافل البلاشفة ووحشيتهم مقاومة أو استبسال .

فما كانوا ليستردوا إمكاناتهم ، أو يعدوا قواتهم خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة التي ما تجاوزت العام الواحد بكثير ، وقد عاشوه بين التصديق بحقيقة استقلالهم الموهوم والتكذيب به ، في ذات الوقت الذي كانت جيوش الشيوعيين على مستوى كبير من التعليم والتدريب ، وعلى درجة كبيرة في مجال التسلح بأحدث أنواع الأسلحة من طائرات ودبابات ومصفحات .

— ومنذ هيمن البلاشفة على نظم هذه البلاد وقبضوا على مصائرها وهم لم يضيعوا أقل وقت في تنفيذ برنامجهم الشيوعي في بلشفة شعوبها وهودينها وطمس معالم تاريخها . وقد سلكوا في سبيل ذلك كل مسلك ، وفعلوا من أجله كل ما يمكن أن يفعله شيطان رجيم ، ولا يمكن أن يتصور المرء أسلوباً من أساليب الشر والإجرام قد غفل عنه الشيوعيون ضد شعوب هذه المنطقة وضد قوميتها وتاريخها ودينها .

ولا غرابة أن يحدث هذا من عدو لا يكره شيئاً قدر ما يكره الدين والمتدينين ، ولا يبغض ديناً مثلما يبغض الإسلام والمسلمين هذا فضلا عن عداوته لكل من لا يقبل الشيوعية ديناً ومذهباً في أقصى مناطق العالم ، فضلا عن دول مجاورة له ، أو دول قد أصبحت بالفعل ضمن

نفوذه وتحت سلطانه السياسى . وفى سبيل تنفيـــذ البلاشفة لمخططهم الشيطانى على إذابة الكيان الإسلامى بل محوه لجأوا إلى الإبادة الجماعية للمسلمين بكل وحشية وبلا رحمة يمكن أن تتصور ممن افتقدوا كل معانى الرحمة ، ونفى شعوب بكاملها من أوطانها وإحلال شعوب من الروس والسلاف والأكران محلها ؛ ليقطع الصلة بين المسلمين وبين قوميتهم وتاريخهم . وقتـل رجال الدين أو الحيلولة بين بعض من يبقون عليه منهم ، وبين ممارستهم لحقوقهم السياسية أو أنشطتهم الدينيـة بنفيهم أو سجنهم والحـكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة . وهدم دور العبـادة أو إحالتها إلى أماكن للهو والمنتديات أو استطبلات للخيل وإلغـــاء المدارس الدينيـة ، وتحريم التعليم الدينى ، وتحريم ممارسة المسلمين للأحكام الدينية فى مجال الأحوال الشخصية ، فضلا عن تحريم ممارسة زعمائهم السياسيين لحقوقهم السياسية إذا نجوا من القتل أو النفى .

وتوضيحاً لتلك الصورة الوحشية وتوضيحاً لبعض ملامحها التى تحرك فى قلب ناظرها الأشجان والأحزان ، وتوقظ فى نفس كل مسلم مشاعر الأسى والألم لـكل مقـدس وغال من تاريخ المسلمين فى هذه البقاع مما جنت عليه أحقاد البلاشفة وشوهته جرائمهم .

ويجدر بنـا لـكل هـذا أن نسوق بعض التفاصيل الواقعية لتلك الجرائم ممثلة فى أساليبهم المجردة من الأخلاق فى كل معيار من المعايير عبر تاريخ العالم .

وأعنى بتلك الأساليب ما أشرت إليه قبل قليل مما اتبعه الشيوعيون

فى طمس الشخصية الإسلامية فى هذه البلاد والفتك بالمسلمين . وهذه هى فى إيجازها على النحو الآتى :

١ — الإبادة الجماعية أو نفى جزء من الشعب أو الشعب كله من وطن آبائه وأجداده إلى سيبيريا أو إلى مناطق أخرى حيث يفقدون الصلة بوطنهم الأصلى ويضيعون بمرور الزمن .

(أ) قتل الشيوعيون فى التركستان وحدها سنة ١٩٣٤ مائة ألف مسلم من أعضاء الحكومة المحلية والعلماء والمثقفين والتجار والمزارعين .

— وفيما بين سنة ١٩٣٧ — ١٩٣٩ ألقت روسيا القبض على (٥٠٠ ألف) مسلم . وعدداً من الذين استخدمتهم فى الوظائف الحكومية ، ثم أعدمت فريقاً وأرسلت فريقاً آخر إلى مجاهل سيبيريا .

— وقتلوا سنة ١٩٥٠ سبعة آلاف مسلم ونفوا من التركستان سنة ١٩٣٤ ثلاثمائة ألف مسلم .

— وقد هرب من التركستان منذ سنة ١٩١٩ حتى اليوم مليونان ونصف مليون من المسلمين .

— وفى سنة ١٩٤٩ هرب ألفان من التركستان الشرقية ولاقى حتفه من هذا الفريق الهارب (١٢٠٠) وهم فى الطريق إلى الهند .

— وفى سنة ١٩٥٠ هرب من التركستان (٢٠٫٠٠٠) من المسلمين التجأوا إلى البلاد الإسلامية فى الشرق الأدنى .

— ومن سنة ١٩٢٢ — ١٩٣٤ مات ثلاثة ملايين تركستانى جوعاً !

نتيجة استيلاء الروس على محاصيل البلاد وتقديمها إلى الصينيين الذين أدخلوها إلى تركستان .

- ونتيجة لقانون مزج الشعوب فى الاتحاد السوفيتى نفت روسيا (٤٠٠,٠٠٠) مسلم تركستانى إلى أوكرانيا ، وأوسط روسيا فاندمجوا فى تلك الشعوب وفقدوا وطنهم الأصلى .

- وفى سنة ١٩١٥ ألقى القبض على ١٣٥٦٥ مسلم فى التركستان ، وأودعوا المعتقلات .

- أبادوا فى القرم سنة ١٩٢١ مائة ألف مسلم بالجوع وأرغموا خمسين ألف مسلم على الهجرة فى عهد (بلاكون) الشيوعى الهنغارى الذى نصبوه رئيساً للجمهورية القرمية الإسلامية .

- وفى سنة ١٩٤٦ نفوا شعبين إسلاميين كاملين ، وهما شعب جمهوريتى القرم وتشيس إلى مجاهل سيبريا وأحلوا محلهم الروس .

- وقد قلد الشيوعيون فى شرق أوربا رفاقهم فى الاتحاد السوفيتى فأبادوا فى يوغوسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ٢٤ ألف مسلم (١٥ ألف من مقاطعة طـــوزلا ، و ٣ آلاف فى مدينة سراييفو ، و ٦ آلاف من ماكيدونيا وكوسوفا - أتوا بهم إلى مدينة دوبرونيك ثم أبادوهم) .

٢ - هدم المساجد وتحويلها إلى دور اللهو ، واستخدامها فى غايات أخرى وإقفال المدارس الدينية .

(ا) وقد بلغ مجموع المساجد التى هدمت أو حولت إلى غايات أخرى فى التركستان وحدها ٦٦٨٢ جامعاً ومسجداً منها أعظم المساجد الأثرية مثل منارة مسجد كالان فى مدينة بخارى ، وكته جامع فى مدينة قوقان ، وجامع ابن قتيبة ، وجامع الأمير فضل بن يحيى ، وجامع خوجه أحرار فى مدينة طشقند .

— ومجموع عدد المدارس والكتاتيب التى أقفلوها فى التركستان يبلغ ٧٠٦٢ مدرسة منها ديوان بيكى مدرسة فى مدينة بخارى ، وبكلربك مدرسة ، وبران حان مدرسة فى مدينة طشقند وغيرها من المدارس التاريخية التى كانت يوماً ما مناهل للعلم والعرفان .

(ب) وفى القرم طمسوا معالم الإسلام بما فيها الجوامع الأثرية فى مدينة باغجة سراى عاصمة القرم الجميلة مثل جامع حان ، وجامع طوز بازار وجامع أصما قويو وغيرها جميعاً .

(ج) وهدموا فى مدينة زغرب فى يوغوسلافيا جامعاً عظيما شيد رمزاً لوحدة عنصرى الشعب الكرواتى المسلمين والكاثوليك .

— وأغلقوا فى مدينة سراييفو الأكاديمية الإسلامية العليا للشريعة الإسلامية ، وجميع المدارس الدينية باستثناء واحدة فقط أبقوا عليها للدعاية .

٣ — قتل رجال الدين أو نفيهم أو الحكم عليهم بالأشغال الشاقة ، أو حرمانهم من الحقوق السياسية ، بل والحقوق الإنسانية ، وإيجاد أية عقبة أخرى تحول بينهم وبين مزاولتهم لمهنتهم .

(ا) لقد قامت روسيا بعدة حملات على رجال الدين المسلمين فى التركستان وغيرها من المناطق الإسلامية الشاسعة المندمجة فى إمبراطوريتها الحمراء ، وقتلت كثيراً منهم ، ومن ضمنهم فضيلة الشيخ برهان البخارى قاضى قضاة ، وفضيلة الشيخ خان مروان خان ، مفتى بخارى ، والشيخ الجليل عبد المطلب داملا ، والشيخ محسوم متولى ، والشيخ عبد الأحد دار خان ، والشيخ ملا يعقوب ، والشيخ ملا عبد الكريم ، وغيرهم كثيرون .

(ب) وكذلك عملوا فى القرم حيث أضافوا إلى وحشيتهم مع رجال الدين ، حرق المصاحف الكريمة فى الميادين العامة .

(ج) وفى يوغوسلافيا قتلوا مفتى كرواتيا فضيلة الشيخ عصمت مفتيتش ، والعالم الفاضل الشيخ مصطفى يوصولا جيتش .

— وحكموا بالأشغال الشاقة مدداً مختلفة على ١٢ عالماً دينياً بعد محاكمة صورية فى مدينة سراييفو ، منهم فضيلة الشيخ قاسم دوراجا شيخ علماء البوسنة والهرسك ، وفضيلة الشيخ عبد الله دروبسيو فتش ، وكلاهما من علماء الأزهر الشريف .

٤ — (ا) قتل الزعماء السياسيين ، أو نفيهم من أمثال ذلك أن الشيوعيون قتلوا فى التركستان الشرقية سنة ١٩٣٤ الحاج خوجة نياز رئيس الجمهورية ، ومولانا ثابت رئيس مجلس الوزراء ، وشريف حاج قائد مقاطعة آلتا ، وعثمان أوراز قائد مقاطعة كاشغر ، ويونس بك

وزير الدولة ، والحاج أبو الحسن وزير التجارة ، وطاهر بك رئيس مجلس النواب وعبد الله داملا وزير الأشغال . وغيرهم كثيرون لا يتسع هذا المقام لذكر أسمائهم .

— وكلما أحس الشيوعيون ببوادر أية حركة قومية أو إسلامية بين التركستانيين قاموا بحملة التصفية ، وهى حملة يراد بها القضاء على كل من تحدثه نفسه بما قد يخالف تعاليم آلهة الشيوعيين : ماركس ولينين وستالين .

(ب) وفى القرم قتلوا سنة ١٩٢٨ ولى إبراهيم رئيس الجمهورية مع جميع وزرائه ، وفى سنة ١٩٣٠ قتلوا محمد قوباى رئيس جمهورية القرم مع هيئة وزرائه جميعاً ، وفى سنة ١٩٣٧ استدعوا إلى موسكو إلياس طرحان رئيس جمهورية القرم أثناء محاكمة المارشال تحاتشنفسكى وأعدموه رمياً بالرصاص مع أعضاء حكومته .

(ج) وفى يوغوسلافيا حكمت محكمة أسلوب فى ماكيدونيا سنة ١٩٤٧ على سبعة عشر زعيما ألبانياً من الألبانيين المقيمين فى يوغوسلافياً . وفى نفس السنة حكمت محكمة بريشتينا على ٢٧ من الأعيان الألبانيين ثلاثة منهم بالإعدام والباقى بالأشغال الشاقة ، وفى سنة ١٩٤٩ أى بعد انفصال يوغوسلافيا من دول الكومنيفورم حكمت محكمة سراييفو على ١٣ زعيما من المنتمين إلى جمعية الشبان المسلمين المنحلة ، أربعة منهم بالإعدام والباقى بالأشغال الشاقة .

٥ — منع المسلمين من التمتع بالنظم الإسلامية فى دائرة الأحوال

الشخصية ، فقد ألغيت المحاكم الشرعية فى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتى ، وفى يوغوسلافيا نشرت بعض الجرائد الصادرة فى سراييفو بتاريخ ٢٢ مارس سنة ١٩٤٦ قانوناً بإلغاء المحاكم الشرعية فى جميع أنحاء يوغوسلافيا ، ومعنى ذلك خروج الأسرة الإسلامية من دائرة توجيه الشريعة الإسلامية إلى دائرة القوانين الشيوعية التى تنادى بالإباحية التامة ، وبانحلال الروابط الطبيعية بين أعضاء الأسرة الواحدة .

هذا إلى جانب نهب البلاد الإسلامية ، ونقل ثروتها إلى مقاطعات أخرى ، وتمزيق أوصال كل بلد إسلامى واحد ، وخلق قوميات مستقلة على أساس لهجات لغة واحدة بقصد تشتيت المسلمين من نفس الجنس واللغة ، وخلق منازعات مصطنعة بينهم ، كما قسموا تركستان إلى ستة جمهوريات على هذا الأساس الواهى[1] .

وعلى كل باحث موضوعى يرغب فى الكشف عن حقيقة الشيوعية والوقوف على تنافر مبادئها مع مبادىء الأديان ، ونقمة الشيوعيين لا مبرر لها فى الحقيقة غير مبرر الحقد والخوف من فاعليتها وأثرها النفاذ فى نفوس الأفراد وتوجيه المجتمعات .

على كل باحث موضوعى يهدف إلى إصابة هذه الغاية أن يلم بجانب كهذا الجانب الذى عرضناه الآن من برنامجهم الهدام الذى نوعوا فيه الأساليب وشعبوا فيه الميادين لضرب الدين بل سحقه من قاموس الوجود

---

(١) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر — الشيخ محمد الغزالى .

وما عرضناه من هذه الجوانب لا يعدو أن يكون نموذجاً مبسطاً من مجموعة نماذج هي في غير متناول الحصر والإحصاء ، طبقاً لما يسمح به نطاق هـــذا البحث الذى نجنح فيه إلى العمومية والشمول ، ولا نلتزم بنواحى السرد التاريخى ، وقد كشف القناع عن هذه القضية فى مئات الكتب والمؤلفات ، للعرب وغيرهم من المسلمين وغير المسلمين .

هل حقاً لأن الدين أفيون ؟

وعلى الباحث أيضاً بعد إشباع نهمه من براهين الإثبات وحجج التأكيد لقضية العداوة بين الشيوعية والأديان أن يتساءل معنا :

لمـاذا كل هذه الحرب التى بلغت من الضخامة والضراوة ، والتى لم يشن غير الشيوعيين قبلها أو قريباً منها على الأديان ، والتى استجمع لها الشيوعيون أقصى ما يمكن أن يستجمعوه من قوى وإمكانات فى جيوش مدربة على التخريب ، وأجهزة إعلام وأقلام وتشريعات ، ومناهج تربية ، ومؤامرات ينفث فيها الشيطان كل سموم الشر ويمدها بشتى عناصر الرذيلة والفساد ؟ !!

وليس من المستساغ فى عقـــل مهما كانت ضآلته فى الفهم أن تكون الإجابة أن هذه الحرب الهمجية على الدين من قبل هؤلاء الملاحدة لمجرد دعواهم أن الدين مخدر أو أفيون .

والمتدين لا سيما المسلم الذى عرف حقيقة الإسلام وتربى فى حماه

وصاغ حياته وفق منهجه ، لا يسعه إلا أن يهز الرأس ويلوى العنق سخرية واشمئزازاً لمثل هذا الجواب وفى وجه تلك الدعوة الباطلة . أما غير المتدين من الماديين أو المتحللين من ضوابط الدين والأخلاق ، من عشاق المذهب الشيوعى ، فإنه لا يجدى مع أمثال هؤلاء دفاع ولا تنفعهم حجة إلا أن يكون من بينهم من يحاول أو يتقي بمجرد الظفر بمعرفة الحقيقة ، ولا ريب أن من كانت وجهته الحقيقة ومقصده الصواب فى إثبات هذه الدعوى ، فما كان له أن يقنع على أى درجة من القناعة بأن هذه الحرب بهذا الحجم من الضراوة والوحشية يمكن أن تشن على الأديان لمجرد أنها أفيون أو مخدر للفقراء والمعوزين يتشغلون بها فى سكرتهم وغفلتهم عن ما فى هذه الحياة من معاناة ومكابدة ، لأنهم لا يتوقعون خيراً أو نعيما فيها . وإنما يعقدون كل الآمال على الحياة الأخرى فيما أسكرتهم به الأديان من وعود ومكافآت وخلود فى الجنة وحور عين وسرر وذهب وحرير .

وتتلاشى قناعة الراغب فى قناعة الطامح إلى الحق ، حين يضع يده على هذه البدهية الدينية التى لا تقبل المناقشة أو المكابرة ، وهى أن الأديان السماوية وبخاصة الدين الإسلامى فى منهجه وجميع تشريعاته لا يرفض من أتباعه ، ولا يبغض منهم سلوكاً فوق ما يرفض ويبغض منهم السلبية أو الخنوع والاستسلام ، أو الفوضى وتجاوز الحدود ، كما هو الشأن فى آكل الأفيون أو المتعاطى لأى نوع من مشتقاته ، أو لأى مسكر .

فالسلبية والاستسلام للكسل والنوم وعدم الاكتراث بتبعات الحياة

والتخفف من الأعباء والمسئوليات ، وغير ذلك من معانى السلبية هى أبرز ما يظهر من علائم السكر وأعراض التخدير على متعاطى المخدرات .

ومن أوليات ما بنى عليه الدين من أسس أن جعل أتباعه عناصر مسئولة بكل ما للمسئولية من معنى ، فالمتدين مسئول عن كل ما يصدر منه من أخطاء خلقية أو اجتماعية .

وهى مسئولية يتسع نطاقها بحيث لا تساويها فى هذا المجال مسئولية الفرد غير متدين أو فى مجتمع لا يعترف بالدين ، فليس فى وسع المتدين أن يتنصل منها ، حتى وهو بمعزل عن المجتمع والقانون فيما بينه وبين نفسه حيث تتاح الفرصة للتحلل والهروب من المسئوليات .

أما ذو الدين فهو وحده الذى يعرف أنه لا يمكنه الهرب من مراقبة ربه الذى يحيط علمه بالسر وما هو أخفى من السر .

وليس بذى قيمة ولا بال أن يهرب صاحب الدين بخطاياه وذنوبه فى مسئوليته من المجتمع ومن القانون ، ما دام هذا الضمير اليقظ المسئول.

ومن قبيل الحرام على أفراد المجتمع الذى يعتنق الإسلام أن يفرط المسلم فى شىء من ماله ونفسه ودينه وعقله وعرضه .

فالإخلال بالعقل والتفريط فى صحوه وتنبهه بواسطة المسكرات جرم قانونى فى المجتمع الإسلامى ، وذنب دينى وخلقى يستحق فاعله عقاباً رادعاً فى المجتمع وعذاباً شديداً فى الدار الآخرة .

والأديان كلها تحرم الخمر لهذا السبب وغيره .

والإسلام يلعن شاربها وبائعها وحاملها وعاصرها ومعتصرها وكل من له صلة بترويجها فى المجتمع ؛ ويحذر على أتباعه بنفس الدرجة من التحريم التناول لأى مسكر أو مخدر ، من كل ما يخل بالعقل أو يؤثر على وعيه ويقظته حرصاً منه على الاحتفاظ بقوة أتباعه العقلية والجسمانية والروحية ، فهم خلفاء الله فى الأرض ، والذين وكل إليهم نشر الدين وإشاعة نور الإيمان .

ومن أوجب واجبات المسلمين الدينية وأهم أركان رسالتهم فى مجتمعهم الذى لا يقف عند حدود الزمان والمكان أن يسحقوا الظلم فى كل وكر من أوكاره ما وسعهم ذلك ، وأن يدفعوه عن أنفسهم وعن سائر بنى الإنسان ويقاوموا الفساد والرذيلة فى أى بقعة من بقاع الأرض حتى يحرروا الإنسان من عبوديته وخضوعه لأية قوة من القوى ولكل ظاهرة من الظواهر .

والمسلمون فى مجتمعهم يطيعون حكامهم ما أطاعوا الله ورسوله ، فإن انحرف الحكام وحادوا عن جادة الدين ، فلا طاعة لهم على المسلمين « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وفرض الإسلام للزكاة فى المال وفتحه باب البر والصدقة ، وجعله ذلك حقاً للفقير على الغنى ، ورفضه وتحريمه كل ألوان الترف والإسراف والاحتكار والاستغلال والغش والسرقة وكل ما يعبث بأموال المسلمين ورفضه كذلك أن يكون المال حكراً أو دولة بين الأغنياء ، ورفضه كذلك وتحريمه للبطالة والتواكل ودفع أتباعه إلى كل أنماط العمل

القائمة على كل مناهج العلم . بما يتسنى للمسلمين معه أن يحققوا غايتهم التي أعدهم الإسلام لها وهي نشر الإيمان بالله والعدالة والإنصاف والسلام على ربوع العالم قاطبة .

كل ذلك وغيره جاء به الإسلام ليواجه مشكلة الفقر والعوز في المجالين النظري والواقعي . وهو حل لا يفوقه حل ، وعلاج لا يطاوله علاج لمثل هذا الداء الذي زعمت الماركسية أنها ما قامت وقعدت إلا لأجل علاجه ، وما أثبتت نجاحاً حتى الآن في أي تجربة مما قامت بها لعلاجه أو استئصاله .

فهل في وسع عاقل مؤمن أو غير مؤمن ، متعصب أو موضوعي أن يزعم مع هذه الحقائق والمبادىء الدينية والإسلامية على وجه الخصوص ، أن يبقى معه مسكة من تصديق بدعوى الماركسية . أن الأديان أفيون أو مخدر ؟ .

وهل يمكن أن يتوفر لطلاب الحقيقة في هذه القضية أقل قدر من القناعة بأن الشيوعيين قد جندوا كل هذه الجنود وشهروا كل هذه الأسلحة للقضاء على سلطان الأديان وآثارها في توجيه الأفراد والمجتمعات لمثل هذا التبرير الفاسد ؟ .

وهل يبقى بعد ذلك قائماً ذلك الزعم الذي لا يملون من التصريح به وتأكيده ، وهو أنهم وحدهم الذين يحملون على عواتقهم أعباء الدعـــوة إلى الإصلاح الاجتماعي ، وينفردون دون سواهم ببرامج

الإنقاذ للمطحونين وخلاص البائسين ليرد إليهم حقهم فى الحياة بل حقهم فى سيادة العالم ، والحقيقة التى لا حقيقة بعدها .

إن الماركسيين سواء أكانوا جهالا أو مغالطين فى مثل هذا الزعم — وما أكثر مزاعمهم من هذا القبيل — أنهم لا ينطلقون فى حربهم الضروس ضد العقائد الدينية والمقدسات ومجاهرتهم بالعداوة للرسل والأنبياء وكل الكتب المقدسة . إلا من مجرد الرغبة فى الكفر والإلحاد . شأن كل الذين أعمتهم المادية الجاهلية عن ضياء الحق وشمس الحقيقة .

ولكن ماضر شمس الضحى فى الأفق طالعة
ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

اثنان من تناقضاتهم :

ولا يعوزنا هنا أيضاً أن نكشف عن واحدة جديدة من مغالطاتهم ، وعن تناقض جديد . بين مذهبهم وواقعهم الذى لايزال يكشف لناشد الحق كل يوم عن أكاذيبهم الحمقاء ، فحين قامت الحرب العالمية الثانية . اعترف الشيوعيون بفاعلية الدين وأثره فى تثبيت العزائم . وعدم الاكتراث بالأخطار ، فهادنوه وعاهدوا رجال الدين فى التعاون والمؤازرة ، وأوقفوا حملاتهم ضد الأديان حتى أدركوا خطورة ذلك على أحلامهم ومخططاتهم حينما طفقت الشعوب الروسية تعود إلى التدين ، وتؤم دور العبادة ، فعادوا إلى تجديد الحرب ضد

الأديان والمتدينين وأقاموا متحف الدين والإلحاد مرة أخرى . وهو متخف يوظفونه للدعاية ضد العقائد والأديان . وأصبحت مرة أخرى أفيوناً ومخدراً ورجعية ووسائل سرقة واستغلال .

ونضيف إلى هـــذا التناقض الذى يسقط فى خزيه دعاة العلم والضرورات الجدلية تناقضاً لا يقل منه خزياً وافتضاحاً . وهو واقع هذه المرة بين وصفهم للدين بأنه أفيون أو مخدر ، وبين مذهبهم المادى الذى يرفضون معه كل مذهب وكل دين فى واقعه التطبيقى .

فهذا الوصف فى حقيقته كما ثبت ذلك غـير بعيـد من بحثنا هـذا لا يمكـن أن ينطبق على الدين بمنهجه الإيجابى الحيوى الذى يحمل المتدينين المسئولية عن كل ما يفعلون وما يدعون فى سرهم وعلنهم . أمام ضميرهم وربهم قبل مجتمعهم .

فالشعور بالمسئولية والسكر نقيضان لا يجتمعـان ، وما المسكر والمخدر والأفيون حقاً وفى واقع الأمر إلا مذهب المـاركسيين عن جميع نواحيه .

لأنه يرفع عن الضمير شعوره بالمسئولية ويغريه بالتطاول والبذاء على ذوى الأقدار والعظماء . إنه يرفع عن الضمير شعوره بالمسئولية لأنه يلقى بالمسئوليات كلها على المجتمع ، ويقول ويعيد للعجزة وذوى الجرائم والآثام أنهم ضحاياه المظلومون . وأن التبعة كلهـا فى عجزهم وإجرامهم واقعة عليه . ويتمم عمل السكر بحذافيره حين يطلق ألسنتهم بالاتهام على كل ذى شأن ينظرون إليه نظرة الحسد والضغينة ، ويعز عليهم أن يساووه بالعزيمة والاجتهاد .

ولو أنك نظرت إلى فعل السكرة فى المخمور لم تجدها فى نفسه شهوة تستهويه غير هذا الشعور بإسقاط المسئولية ، وهذا التطاول على أعظم عظيم ، كما يقول كل سكران غابت به السكرة عن حقائق الأشياء . وما كان للماركسية من سحر يستهوى السفلة إليه غير هذا السحر الذى يبذلون فيه الدراهم ، ويجدونه فى الماركسية جماً بغير ثمن ، وعليه المزيد من التغرير بالعقول وشفاء أدواء الحسد والانتقام سكرة رخيصة لا أكثر ولا أقل[١] .

عود غير حميد :

هكذا لا تنتهى حملة الشيوعيين الضارية على الدين ، وإن بدى أنهم يهادنونه تظاهراً أو اضطراراً فى فترات زمنية غير طويلة تحت ظرف من الظروف كالذى أشرنا إليه قبل قليل ، وكهذا الاتجاه لبعض المفكرين الماركسيين الذين عرفوا بالمعدلين أو المراجعين من أمثال : «كاوتسكى وماخ وكارل أدلر» ، فقد أتاح هؤلاء وغيرهم فرصة الرجوع إلى الدين باتجاههم هذا .

إذ رأوا أنه لا ضرورة للربط بين المادية التاريخية كمنهج لتفسير التطور الحضارى للمجتمعات الإنسانية ، وبين المادية الجدلية كأساس فلسفى لها .

ومن الممكن إذن أن تحل الاشتراكية الأخلاقية محل الاشتراكية

---

(١) أفيون الشعوب — عباس العقاد ص ٩ وما بعدها .

العلمية . ولذلك أمكن لمناخ أن يربط بين الإشتراكية والدين ، وأن يتاح للحزب الاشتراكى الديمقراطى فى ألمانيا الغربية أن يجعل الدين جزءاً من برنامجه الذى أعلنه فى نوفمبر سنة ١٩٥٩ [١] .

الغاية تبرر الوسيلة :

ولكن هذه الاتجاهات لتلك المحاولات إزاء العودة إلى الدين والاعتراف بضرورته الاجتماعية لم يكن لها من أثر عند المتزمتين والمتعصبين من الشيوعيين إلا ردة الفعل العنيفة التى تتمثل فى بذل الجهد المضاعف لفرض الكفر والإلحاد على الشعوب التى تقع تحت طائلتهم ، وتكثيف الحرب ضد العقائد السماوية ؛ لأن فى الاعتراف بها الحيلولة كل الحيلولة بينهم وبين تطبيق نظريتهم المادية .

والسماح لأى بادرة مضادة فى هذا الصدد مهما ضئل حجمها هو اعتراف منهم بالفشل والإخفاق . بل لا يعنى الشيوعيين فى حقيقة الأمر أن إلى تعترف شعوب العالم كله ، أو يجمع علماء الاجتماع والمشرعون ، بل وأصحاب المذاهب على ضرورة الدين لنمو المجتمعات وتطور الحضارات الإنسانية . بل ولا يعنيهم كذلك أن يتصادم الواقع فى مجتمعهم ذاته مع مذهبهم ومبادئهم وآرائهم .

فكل ما يعنيهم فى الحقيقة هو المعنى إلى غاية واحدة هى السيطرة على شعوب الأرض بأسرها ، والقبضة على مقدراتها ومصائرها دون

---

(١) أسس المجتمع الإسلامى والمجتمع الشيوعى د/ زيدان عبد الباقى ص ٥٢ .

أن يدعوا فى سبيل ذلك كل وسيلة ممكنة من إفساد فى الأرض وتخريب وتدمير لكل ماقدسه من قيم ومعتقدات .

فالشرور والإباحيات والخداع والغش والرشـــوة والإحتلال والتزييف والتشويه للحقائق ، الدينية والإجتماعية والعلمية كلها وسائل مشروعة لا ينبغى للشيوعى المخلص أن يكف عن استخدامها لتحقيق الشيوعية . تلك الغاية التى تبرر كل وسيلة . وفى هذا الصدد يقول لينين : (يجب على المناضل الشيوعى أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل . فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية . يجب أن يكون مفهوماً أن الشيوعية غاية نبيلة ، وأن تحقيق الغاية النبيلة يتطلب فى كثير من الأحيان استخدام وسائل غير نبيلة ، ولهذا فإن الشيوعية تبارك شتّى الوسائل المناهضة للأخلاق مادامت هذه الوسائل تساعد على تحقيق أهدافنا الشيوعية) .

فأى عاقل مستقيم التفكير ، سوى الوجدان ، سليم الفطرة والطبع ، يمكن أن يرى نبلا فى غاية تقوم على هذا المنطق الفاسد والفوضوى والعارى من كل نبل والمتجرد من كل خير ، وهل يقوم على الباطل حق ، أو يقوم إصلاح على إفساد وفساد . وليس ثمة من سخف وتضليل وعبث بالعقول ، أشد من سخف ولا أسوأ من تضليل ولا أتفه من عبث الشيوعيين ، عندما يحاول أحد أئمتهم تبرير الإجرام والفتك والتخريب وكل ما يوقعونه بالشعوب والمجتمعات بقياس ذلك على ما يضطر الناس إلى قبوله والتسليم به مما تلحقه بهم الظواهر الطبيعية كالزلازل والأعاصير من فناء ودمار .

وما أشبه هذا فى السخف والتضليل والعبث بمن يقول لإنسان : وعى اقتلك ، ولا ضرورة للمقاومة ما دمت حتما ستموت ، فهل يستساغ مثل ذلك المسلك إلا فى باب الهذل والعبث أو الحماقة والجنون ؟ .

إن ذلك هو منطق ستالين فى قوله لضحايا الشيوعية : (إنكم لا تستطيعون الهرب من الكوارث الطبيعية كالزلازل والعواصف التى تقتل الملايين فتقبلونها صاغرين . فكيف لا تقبلون عمليات التطهير التى تقوم بها السلطات الشيوعية للفاظ على هذا المبدأ الذى سيقدم لكم الخير)[١] .

من أسباب تقمتهم على الإسلام :

ومنطقى بعد ذلك ألا تستغرب عداوة الشيوعيين للأديان وسائر القيم الروحية ، وأن تكون هذه العداوة إحدى وسائلهم الوضعية للوصول إلى غايتهم .

ومنطقى كذلك أن تشتد عداوتهم تلك للدين الإسلامى على الخصوص ، وأن يروا فيه عدوهم المخيف ؛ إذ هو الدين الذى لايدع شئون الدولة للدولة ، ويفصلها عن شئون الدين كما هو نهج المسيحية التى تركت ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

فالإسلام عقيدة ونظام اجتماعى يتصدى بنهجه لحل المشكلات الاجتماعية التى يدعى الشيوعيون أن غايتهم هى التصدى لحلها .

---

(١) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام لفتحى يكن ص٢٦ وما بعدها .

وحيث يرون الإسلام وقد استوعب بمنهجه الشمولى علاج الأدواء الاجتماعية الواقعة منها والمفترضة فى المستقبل علاجاً يقوم على أساس تقديم البدائل ، فضلا عن هيمنة الإسلام الروحية على النفوس والمشاعر وعداوته لكل اتجاه مادى يقوم على إنكار الجوانب الوحيدة ويكفر بوجود الخالق ، ويرى فى مقاومة أمثال هذه المذاهب والاتجاهات نوعاً من الجهاد الواجب .

من هنا لم يكن عجيباً أن يصب الشيوعيون كل هذه الويلات على الإسلام والمسلمين كلما سنحت لهم الفرصة إلى ذلك .

ولم يكن عجيباً أيضاً أن يصاب الشيوعيون بموجات الذعر والهلع من نفوذ الإسلام الروحى وسلطانه المتحدى . وبخاصة كلما تخلو عن واحد من مبادئهم وما أكثر ما تخلوا هذه من المبادىء وما أكثر ما ارتدوا عن مذهبهم فأقروا حق الملكية والميراث ، وأقروا نظام الأسرة وقيمها ، كما أقروا قيمة الفوارق فى الأجور والأوضاع الاجتماعية ، وغير ذلك من الفصل بين الجنسين فى دور التعليم ، وقيمة الوطنية وأثرها فى النهوض بالدولة ، مما يؤذن بسيادة النفوذ الإسلامى فى العالم ، وإخفاق المذهب الشيوعى .

وهذا أمر مؤيد بالواقع ومفروض على زعماء الشيوعية أن يعترفوا به رغماً عنهم .

وهو أمر كذلك بقدر ما يدفعهم إلى مزيد من الكيد للإسلام والمسلمين بقدر ما يدفعهم إلى الخوف من منافسته فى مستقبل البشرية دون أن تفلت من ذلك شعوبهم . أكثر مما يخافون منافسة دين أو مذهب

آخر، دون أن تفلت من ذلك الديمقراطية التى لاشك فى معاداتهم لها لأنها لا تعنى بصياغة النظم الاجتماعيـــة من حيث التطبيق الإيجابى كما هو منهج الإسلام ويقظة المسلمين، وإقبال أبنائه فى العصر الحديث على خوض مجال المعرفة والعلوم فى شتى نواحيها وتوجيهها فى خدمة العقيدة والمجتمع الإسلامى.

كل ذلك وغيره إنمـا يقض مضجع الشيوعية، ويجعلها تعيد النظر فى الوقفة بعد الوقفة من هذا العدو الوحيد وليست الشيوعية بأشد خطراً عـلى الإسلام ممـا واجهه خلال القرون المتطاولة منذ أطل عـلى العالم برسالته ومنهجه حتى ذلك العصر الذى لم تحقق فيه الثورة الحمراء إلا مزيداً من التخاذل والفشل فى حتميتها ونبوءاتها.

والحتمية الوحيدة هى أن تذهب الشيوعية كما ذهبت من قبل كل المذاهب التى عادت الإسلام، وسيبقى الإسلام بمنهجه ودولته؛ لأنه الدين الخاتم والشريعة الباقية الخالدة كما أراد الله لها أن تـكون.

وهذه الحتمية تقررها عقيدتنا نحن المسلمين، ويسجلها قرآننا المعصوم ويؤكدها الواقع التاريخى لمسيرة الإسلام.

الدين ضرورة اجتماعية وإنسانية:

ويكاد يتفق علماء الاجتماع فى العالم على أن الدين ضرورة اجتماعية، ولم يجدوا غضاضة فى تعريف الإنسان بأنه حيوان متدين.

فلم يكن الإنسان فى غنى عن التدين بوجه عام، حتى فى أكثر مراحل

التاريخ غلواً فى القدم ، وأكثر أنماط المجتمعات غلواً فى البدائية ، وتلك نتيجة انتهى إليها كذلك الباحثون فى تاريخ الأديان والمتخصصون فى دراسة الأديان المقارنة . والدين شأنه فى ذلك شأن بقية الخصائص الإنسانية من المشاعر الوجدانية والفنون والثقافة والنزوع إلى الاجتماع . لازمت هذه الأمور وجود الإنسان فنشأت معه وتطورت تطوراً مضطرداً ، إذ هى مقومات الإنسان من حيث هو إنسان . أى من حيث يفترض إنه كائن مستقل بكيانه متميز عن سائر البهائم والحيوانات .

فقد صدر علماء التاريخ والاجتماع فى هـذه الحقيقة عن مجموعة الوثائق والآثار التى ظفروا بهـا مكتوبة ، أو منحوتة ، أو منقوشة عـلى جدران المعابد والمقابر ، إلى غير ذلك من الآثار التى تعطى قدراً لا بأس به من النتائج فى هذا المجال .

وربما لم يتيسر للباحثين عن تاريخ الإنسان فى تلك الحقب البعيدة ، وتلك العهود التى سبقت عصور التدوين والتسجيل لوقائع التاريخ ، وتلك هى مرحلة البدائية ، أو مرحلة النظام القبلى أو ما قبله ، حيث تشاع الملكيات ، وينعدم الصراع والتنافس بين الأفراد .

ومع ذلك ، فلا يسع الباحثين فى هـذا المجال إلا أن ينتهوا إلى نفس النتيجة القائلة : إن التدين ضرورة اجتماعية وأساس من الأسس التى لا غنى للإنسان عنها فى إقامة مجتمعه وبناء حضارته .

فالإنسان لم يكن قط حتى فى أكثر فترات التاريخ بدائية ومشاعية ، حيواناً كسائر الحيوانات تنحصر كل دوافعه الحيوية فى دافع البحث عن الطعام والشراب والمأوى ، وإلا فكيف تجاوز حدود هـذه الطبيعة

الحيوانية ، واقتنص كل هـذه القوى والملـكات من تفـكير ووعى وابتـكار للفنون والآداب ، وتـكوين المجتمعات والحضارات ، وإرادة يرجح بهـا ويختار بين البدائل والأضداد وضمير يحاكم إليه فى ضبط رغائبه وكبح غرائزه وطبائعه ، وقدرة على البحث والتجربة والتحليل والتركيب والموازنة والاستنباط .

الأمر الذى وكل إلى الإنسان وحده توجيه الحياة على الأرض ، ومهمة تحسينها ، وتطوير أنماطها وأوجهها بلا توقف قدر الطاقة ؟ ..

فـكيف قطع الإنسان هـذا الشوط الطويل عبر تاريخ الحياة وحده ؟ بينما أبناء جنسه وإخوان طبيعته الأولى من الحيوانات والبهائم والوحوش وقفوا حيث هم عند النشأة الأولى . فـما بالهم لم يقطعوا نفس الشوط الذى قطعه الإنسان ؟ بل لم يتقدموا إليه خطوة واحدة ، ولا يسكت عن الجواب هنا إلا مكابر أو مغرض .

ويقدم لنا معظم علماء الاجتماع البرهان على نشأة التدين مع نشأة الإنسان بالأحوال الاجتماعية لسكان أمريكا واستراليا القدامى ، وما كانوا يشتركون فيه مع النماذج الإنسانية فى فجر نشأتها من البدائية ، والعزلة عن الأنماط الحضارية ، ودوافع الصراع الطبقى ، فإن هؤلاء السكان مع ذلك لم يتجردوا من التدين ، بل كانت لهم ديانات ومقدسات يعبدونها ويقيمون عليها نظماً اجتماعية . ومن أبرز هذه الديانات ما يعرف بالديانة التوتمية .

والتوتم الذى نسبت إليه هـذه الديانة هو شىء من الحيوان ،

أو النبات أو الجماد ، يقدسونه ويقدسون كل ما يرمز إليه من الأشياء والصور ، وهو ضرب من الوثنية ، كثيراً ما جمحت إليه وإلى أمثاله من القوى والظواهر الطبيعية فطرة الإنسان ، ولم يكن لها من عاصم ولا ضابط فى هذا الجموح والشطط إلا وحى السماء فى شرائع الله الذى أنزلها على أنبيائه ورسله ، ليصححوا المسار ، ويردوا الفطرة الإنسانية إلى الصواب والحق .

لكن التدين من حيث هو كما ثبت لنا الآن : بل كان فطرة فى الإنسان ، كسائر المشاعر الوجدانية والجمالية ، وهو ضرورة اجتماعية لا انفكاك للإنسان عنها فى وقت من الأوقات ، ولا فى مكان من الأمكنة على ظهر الأرض ، بنفس الدرجة التى لا يسع الإنسان معها أن ينفصل من طبيعته الاجتماعية ، أو من مشاعر الحب والتملك والانتماء .

وإذ يصبح هذا أمراً ثابتاً مدعماً بالمنطق والوقائع التاريخية ، فإنه يقودنا إلى نتيجتين :

الأولى : خيبة الأمل التى لا مناص للماركسيين من التردى فيها ، إذ لا مناص من عودة شعوبهم إلى الدين مهما فرضوا عليها الإلحاد ورسخوا فى نفوسهم احتقار الدين . ، وهى نتيجة يقينيه أفضت إليها المقدمات السابقة .

الثانية : هى أن الدين لم يكن شيئاً يستحدثه الإنسان ، ولم يكن ظهوره الفعلى مع ظهور عهد الإقطاع الذين استحدثوه لتبرير نظامهم ، وما ينبثق

عن ذلك النظام من ظلم واستغلال لشعوبهم الفقيرة وليوهموا تلك الشعوب أن سيطرة الإقطاع والكنيسة أثر من آثار المشيئة الإلهية ، فلا تجوز المقاومة ولا يصح الاحتجاج . ورضى الله وثوابه من ثم فى الطاعة والتسليم . وترتيباً على ما حققناه يصبح هذا الزعم مجرد هراء وتضليل ، إذ يتصادم مع الواقع التاريخى والآراء الموضوعية لعلماء التاريخ والاجتماع والأديان المقارنة ، كما يتجافى مع المنطق والعقل .

أهم أسس التعارض بينهما .. العقيدة :

وخلاصة القول : إن الإسلام من بين سائر الأديان هو والشيوعية نقيضان لا يجتمعان ومن الحماقة والتضليل على أقل تقدير أن يدعى أحد فضلا عن مسلم أنهما يمكن أن يتعايشا ويقوم عليهما نظام اجتماعى واحد ، ينفرد المذهب الشيوعى فى هذا النظام بتوجيه الجانب الاقتصادى ، وينفرد الإسلام بتوجيه الجانب الدينى والروحى فيه .

وكثيراً ما سمعنا وقرأنا مثل هذا الباطل والتزييف للحقائق ، وفضلا عما تناولناه آنفاً بالبحث أو تناوله غيرنا من أن الإسلام نظام متكامل لمجتمعه لا ينفرد بجانب دون جانب ، فإن السر فى رفض كل من الإسلام والمذهب الماركسى للآخر لعله يكمن فى اختلاف الأسس النظرية والعملية لكل منهما من حيث المنهج والموضوع ، وهذه حقيقة لا ينبغى أن يغفل عنها ناشد للحق أو طالب للموضوعية .

١ — فالإسلام يبنى مجتمعه الذى لا يقف عند حدود الزمان أو المكان ، على أساس من المواءمة بين الروح والمادة والتوازن الدقيق فى تحقيق مطالب الروح والجسد فى حياة أفراده .

وتوضيحاً لهذا نقول : إن الجانب الروحى الذى تصدى الإسلام لتربيته وتأكيده بل وتصحيحه فى شخصية أبناء مجتمعه يبدأ بقضية الإيمان بوجود الله خالق هذا العالم ، بكل ما يحويه من الذرة إلى المجرة ، وبكل ما ندركه منه وما لم ندركه بعد ، وتلك هى أول وأهم العقائد التى تكون أصول الإسلام وقواعده الإيمانية والروحية .

والإيمان بوجود الله الخالق يجب أن يتضمن تنزيهه وتقديسه ، ثم إفراده بكل تصورات الكمال الذى يليق بإله خالق لهذا الكون البديع ، فالله فى المفهوم الإسلامى يمتنع أن يكون كائناً مادياً أو مشخصاً أو محدوداً بحدود الزمان والمكان ، ووجوده المطلق وجود ذاتى لا يستمد مقوماته من خارج ذاته ، إذ هو أول الموجودات على الإطلاق لم يسبق وجوده بعدم ولا بمن يمده بالوجود ، فهو القديم بلا بداية وهو آخر الموجودات على الإطلاق ، وهو الباقى بلا نهاية ، وهو الظاهر فى آثار قدرته وإبداع مشيئته وحكمته ، وهو الباطن وراء كل محسوس وفوق كل تصور . « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم »[1] ، وهو المستحق للوحدانية فى الألوهية والتفرد بالتقديس والعبادة والمحدث لهذا الكون من عدم وفق مشيئته المطلقة فيما شاء له من البداية والتطور والمصير ، وعلى سنن حكمته الكاملة ، وبمقتضى علمه المحيط بكل صغير وكبير ، وبكل الأسرار والأقدار والأمثال والأغيار .

وهو الواهب للإنسان كل المواهب والطاقات ، والمتحكم وحده فى أقداره ومصيره . والمسخر له كل ما فى هذا الكون له من قوى وظواهر ، ليكتشف أسرارها ويعمل طاقاته وملكاته فى قوانينها

---

(١) سورة الحديد الآية : ٣ .

وسننها — التى أودعها الله فيها — بالنظر والبحث والتحليل والتركيب والكشف والاختراع ليوجهها نحو الخير والحق والسلام . حيث رضى الله ومحبته ومكافأته وجزاؤه ، وهى غاية يذيط الإسلام بأبنائه السعى إليها والعمل الدائب لتحقيقها جيلا بعد جيل وخلفاً عن سلف .

والإنسان دوره فى الإسلام بالرغم من ريادته وتفوقه على سائر مخلوقات الله إلا أنه مجرد مخلوق لله لا يتحرك ولا يعمل ولا يختار إلا ضمن ما أوجده الله من عناصر الوجود ومكونات الحياة وعليه أن يعمل بكل ما أتيح له من جهد ومواهبة ، وعليه أيضاً أن يكل أمر النتائج لكل عمل يقوم به وكل تفاعل يحدث بينه وبين الأشياء والأحياء إلى مشيئة الله وعلمه « وما تشاءون إلا إن يشاء الله والله خلقكم وما تعملون »[1] . وليس ذلك ضرباً من السلبية أو الجبر ، بل هو سمو بالإنسان إلى نمط من الحرية والعصمة من كل سلطان مادى أو غير مادى فى هذا العالم إلا سلطان خالقه ومالك أمره والمهيمن على كل مقدراته « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير »[2] .

والإنسان المسلم فى رحلته مع الحياة يلتزم فى سلوكه بمجموعة من القيم تكون خط حياته المنبعث من الفطرة المستقيمة ، رسمته يد القدرة الإلهية فى قوانين دين الله وأحكام شريعته ، لا يحيد عنه يمنة أو يسرة ، وإلا فقد حاد عن صراط الله المستقيم .

فالمسلم صادق مع نفسه ومع غيره فى شتى ضروب المعاملة ومختلف أشكال السلوك . وفى بوعده إذا وعد ، أمين على ما ائتمن عليه ، مخلص

---

(١) سورة الإنسان الآية : ٣٠ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٨ .

فى عمله لربه ولأمته صبور على كوارث الحياة يستهين بالخطر ويرضى بالقدر — ويعتبر التسليم بالقدر جزءاً من الإيمان ، رحيم بكل مافى الأرض من أحياء ، سمح الأخلاق بشوش الملق ، سخى العطاء ، مبغض للبخل ، عدل فيما يوكل إليه من أحكام ، محب لغيره من الخير ما يحبه لنفسه ، مترفع عن مواطن الشبه ، متعال عن كل مالا يعنيه ، أبى يزود عن عرضه وأرضه بالنفس والنفيس ، قوى النفس والعزيمة لا يعرف الجبن ولا العدوان .

هذه بعض القيم العليا التى حدد بها الإسلام طريق المسلم فى حياته وأقام عليها وبها نظام مجتمعه الفاضل .

وبهذا الخط الفطرى المحدد بمبادىء الإسلام وقيمه ، يتحقق فى المسلم الملتزم به ، ذلك التوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح . فما نظر الإسلام إلى الإنسان بمنهجه هذا نظرته إلى كائن تنحصر ذاته فى هذا الجسد أو الهيكل الخارجى ، إذن لتركه ينطلق وراء غرائزه البهيمية حيواناً أو وحشاً مدمراً لكل ما هو جميل وطيب فى الحياة حيث تنحصر غايته إذ ذاك فى تحصيل مآربه الحيوانية إشباعاً لغرائز الطمع والشراسة والغضب والتسلط والعدوان .

وإذن فلا يجنى ذلك الكائن المسكين إلا الشر والدمار لحياته وآماله ، ولا يسلك فى وجوده إلا مزيداً من الطرق الملتوية والمعوجة لا يصل فيها إلى هدف ولا يعرف له غاية ، « أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »[1] .

نعم يصير الإنسان فى هـذه المتاهات إلى مصير أخس وأحط من

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٩ .

مصير الأنعام والبهائم ، حيث مسخت قدراته وملكاته الروحية والعقلية بل الإنسانية .

والإسلام يعترف بوجـــود الروح ، ويثرى الجانب الروحى فى الإنسان المسلم ، ولـكنه لا ينظر إليه كـكائن روحى يجب أن ينفصل عن طبيعته الجسدية وينعزل عن التعامل مع نواميس الحياة والتفاعل مع شئونه الدنيوية .

إذن لسلك الإنسان من الطـرق ما لا يقـل التواءاً واعوجاجاً ، والإسلام هو الدين الذى رفض الرهبانية والتخلى عن عمارة الأرض ، ونشر مبادىء الخير والعدل والسلام على ربوع العـالم ، وهى رسالته التى استخلف الله الإنسان فى الأرض من أجلها . (إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحاء) كما قال تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين »[1]

وإذن فانحراف المسلم عن خط الفطرة الذى رسمه الإسلام لتقوم عليه حياته كلها من مبدئها إلى منتهاها ، وهذا هو صراط الله المستقيم الذى حـددته أنبياؤه ورسله مرفوض فى الإسـلام ، ومجانب لروحه وجوهره فى عقيدته وتشريعاته . يقول تعالى : « وأن هـذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »[2] ويقول : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الـكتاب والميزان ليقوم الناس

---

(١) سورة القصص الآية : ٧٧ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٥٣ .

بالقسط »(١) ، ومن هنا كان على الإنسان المسلم أن يسلك هذا الطريق الوسط بين الإفراط والتفريط دون أن يسمح لمـــاديته أن تجور على روحانيته ولا لروحانيته أن تطغى على ماديته ، وهـذا هو المنهج الذى يتلاءم مع طبيعته الحاوية لعناصر الحيوانية والملكية .

فالقوانين والنظريات والمبادىء التى تجانب هـــذه الحقيقة ، فتميل بالإنسان إلى يمين هـذا الطريق أو يساره إنمـا وضعت فى واقع الأمر لمصلحة كائن غير الإنسان . وهذا هو الخطأ الذى تردت فيه كل المذاهب والتشريعات الوضعية ؛ لأنها ما وضعت حقيقة إلا استجابة لمقتضيات المصالح والمطامع الشخصية .

ومن هنا كان الرسل والأنبياء وما جاءوا به من شرائع وأحكام هم وحدهم الذين يردون الإنسان إلى هذا الطريق الحق كلـما ندت به ميوله وانحرفت ذات اليمين أو ذات اليسار فأفرط أو فرط وضل سواء السبيل .

ومن لطف الله ورحمته بالإنسان أن بعث له أنبياءه ورسله فترة بعد فترة ، وهو وحـده العالم بما يصلح الإنسان ، وما يوافق طبيعته من الأحكام والقوانين ، وقد اكتملت شريعة الله وتم دينه بالرسالة الخاتمة على يد محمد النبي الخاتم ، فكانت رسالة عامة خالدة لجميع العالمين وإلى آخر الزمان .

والحياة الدنيا فى تصور الإسلام مجرد وسيلة ، ينفق الإنسان فيها

---

(١) سورة الحديد الآية : ٢٥ .

ما وسعه الجهد من العمل والسعى مهما بهر عمله وسعيه العقل وفاقا التصور ، ليستولى بها وبعمله وسعيه فيها إلى الحياة الآخرة ، حيث دار الخلود ومستقر النعيم المقيم فى الجنة . أو العذاب الأبدى فى جهنم .

فذلك بمقتضى مسئوليته التى ألقاها الله على كاهله ، ووضعه أمامها فى اختبار وابتلاء ينتهى بانتهاء حياته ، والعالم كله علويه وسفليه ، أحيائه وجماداته محدود البداية والنهاية ، أبدعه الله من عدم ؛ وساقه إلى عدم . ويقول تعالى : « كل من عليها فان ٭ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »[١].

وبعث الموتى من قبورهم ، والحساب أمام الله والجزاء العادل فى الآخرة عقيدة تحكم المسلم فى سلوكه وعلاقاته بغيره ، وتكسب مهمته فى الحياة قيمتها كلما رأى فى الموت مجرد نهاية مؤقتة لحياته الدنيا ، بعده تبدأ رحلته إلى حياة الخلود والبقاء ، وعليه أن يعد نفسه لهذا الخلود بالتزامه لحدود الله وأحكامه ؛ لأنه صائر حتما إما إلى نعيم مقيم ، وإما إلى عذاب أبدى .

ومن خلال ذلك كله يمكننا أن نؤكد قيام الدين الإسلامى على :

(ا) الإيمان بوجود الله المستحق لكل كمالات الألوهية والمقدس عن كل شوائب المادية ، المتعالى عن كل تصورات الحس ، المتسامى عن كل شبه بكل ما هو مادى ، أو محسوس أو غير مادى ولا محسوس .

(ب) هذا العالم بكل ما يحتويه ما ندركه منه ، وما لم ندرك من مادى وروحى ، من دقيق وعظيم ، من علوى وسفلى ، من إنسان وملك

وشيطان . . . . الخ ، كله من خلق الله وصنعته ، وأوجده الله بعد عدم ، وقضى عليه بالفناء .

(ج) هناك حياة أخرى يحاسب فيها الإنسان ، ويسأل عما قصر فيه ، أو استجاب له فى مهمته التى وكلها الله إليه فى هذه الحياة ، ويجازى عليه بالثواب أو العقاب .

(د) أحكام الله وشرائعه بعث بهـا أنبياءه ، وختم بهم محمداً ﷺ هى التى ترد الإنسان إلى فطرته ، وترسم له الطريق السوى بمـا تمنحه الناس من أحكام وعبادات وقيم عليا ليقيموا عليها حياتهم فى مجتمعهم فى حركته وحضارته وتطوره نحو كل مايرضى عنه ويحبه الله .

وبهـذا الإيجاز لمـا احتوته هـذه الخلاصة نكون قد ألقينا بعض الضوء على بعض الأسس التى قام عليها المجتمع الإسلامى وفقاً لمـا فرضه علينا منهجنا من الإيجاز .

ولعل عذرنا فى هذا القصور هو أننا حاولنا اختيار أبرز الأسس التى تثبت لنا هذه القضية الجزئية ، تلك هى قضية عدم التقاء الشيوعية مع الإسلام عقيدة ومنهجاً فى نمط من أنماط الحياة .

قضية وجود الله :

وعلى ضوء هذا يمكننا أن ندرك بكل وضوح الأوجه العديدة لذلك التناقض الصريح بين الإسلام والمذهب الماركسى فى الأسس التى رأينا الإسلام قد أقام صرحه الشامخ عليها .

ومن أهم الأسس التى قام عليها المذهب المـاركسى : إنـكار وجود الله ؛ لأنه كما هو معلوم واحد من المذاهب المادية الرافضة للإيمان بكل ما يقع وراء الحس والمادة والمحدود . وما دام الإله المعبود فى الإسلام إلهاً غير مادى ولا محسوس ولا محدود ، فإن الفلسفة الماركسية لا تراه حقيقة ضمن الحقائق الثابتة التى تقوم على أساس من التجربة العلمية وفقاً للمنهج العلمى المتمثل فى الملاحظة والتجربة الماديتين .

والماركسيون لا يدعون إنـكار وجود الله بمجرد نتيجة أو لازمة لمنطقهم المـادى هذا وإنمـا لا تفتر هممهم عن تأكيـده فى كل لحظة فى مواثيقهم ومحافلهم كما سبق لنا بيانه .

ومن قبيل زيادة التأكيد للأمر المؤكد أن نسوق فى هـذا الموضع تلك النصوص لماركس ولينين ، وهى صريحة فى إنـكار وجود الله ؛ لأنه ليس بمادة تحس . وما ذلك إلا ضرب من العبث ، أو لون من التخريف فيما زعما .

يقول ماركس : (لا إله والحياة مادة) .

ويقول لينين فيما كتبه إلى ماكسيم جوركى الـكاتب الروسى المعتدل عندما علم أن سبب غيابه عن حضور مؤتمره أنه يبحث عن الإله :

(إن البحث عن الله لا فائدة منه ، ومن العبث البحث عن شىء لم يخبأ ، وبدون أن تزرع لا تستطيع أن تحصد ، وليس لك إله لأنك لم تخلقه بعد ، والآلهة لا يبحث عنها وإنما تخلق) .

ومن أقواله أيضاً : (ليس صحيحاً أن الله هو الذى ينظم الأكوان إنمـا الصحيح هو أن الله فـكرة خرافيـــة اختلقها الإنسان ليبرر

عجزه ، ولهذا فإن كل شخص يدافع عن فكرة الله إنما هو شخص جاهل وعاجز) .

وإذا أنكر الماركسيون وجود الله على هذا النحو ، فمن قبيل التنبيه على معلوم أن يقال : إنهم قد أنكروا كل الحقائق الغيبية الأخرى التى أثبتها الدين كالملائكة والبعث والجنة والنار ، وما فيها من نعيم وعذاب كذلك الجن والروح ، إلى غير ذلك من المغيبات التى جعلها الدين أساساً لحجم إيمان المؤمن .

فالإيمان بما لا يقع تحت الحس إنما يتضاءل إلى جانبه أقصى درجات الإيمان بكل ما هو محسوس ، وقد علمنا أن الماركسيين يرون أن العقل والوعى وسائر المشاعر الإنسانية كلها ظواهر مادية أنتجتها مادة عالية التنظيم والتعقيد هى دماغ الإنسان ، وهى آخر ما انتهى إليه تطور المادة عبر آماد وأحقاب زمنية موغلة فى عمق التاريخ نتيجة للعمليات الجدلية الكامنة فى أحشاء المادة والمنفعلة لظروف البيئة وقوانين التطور التى تخلق أعضاء الكائن الحى ومقومات حياته طبقاً لضرورات التكيف .

والإنسان كغيره من الأشياء والأحياء يوجد بالمادة ويفنى بها .

والشىء الوحيد الأزلى والسابق علـى كل وجود والأبدى الذى لا يفنى هو المادة ، وهذا هو الذى أفضى بالماركسيين ومن هم على شاكلتهم من الماديين إلى الكفر بكل ما ليس بمادى ، ولا متولد من المادى لأنه حينئذ أمر لا ينهض به إثبات أو يقوم به تصور .

والحقائق الدينية المغيبة وفى مقدماتها الإيمان بوجود الله التى لم تثبت بالتجربة العلمية ، ولم تدرك بإحدى الحواس لا يمكن أن تكون فى عداد

الحقائق الموضوعيه ، وأكثر ما يمكن أن يتم إقرار منهم بها هو أن تكون مجرد عقائد شخصية لا تتجاوز التصور الذهنى لمعتنقيها .

والواقع أن هذا الزعم وأمثاله فى جانب قضية الإيمان بوجود الله قد قامت البراهين المختلفة على بطلانه وتهافته .

فإنه ثمة كثرة كاثرة من الحقائق التى تتمتع برضا العلماء ويقينهم من الماركسيين أهل الاشتراكية العلمية وغيرهم . بالرغم من أنها لم يستوعبها الادراك الحسى استيعاباً تاماً ، أو كما يطيب لهم أن نقول : إن هذه الحقائق لم تقع تحت الملاحظة العلمية والتجربة المباشرة ، وكل ما أمكن إجراء التجارب عليه منها هو بعض جوانبها ، أو بعض آثارها .

فالإلكترون الذى بات حقيقة علمية مؤكدة لم يلاحظ بأية وسيلة للملاحظة ولم تحقق وجوده التجربة المباشرة ، وما ثبت بالتجربة هو هذه الآثار التى ندركها فى لمبة تضاء ، أو ماكينة تتحرك ، أو مصانع تدار ، والتى أطلقوا على هذه الطاقة التى أنتجتها ، اسم الأليكترون دون أن يكون فى وسعهم تحديد كنهه أو شكله أو صورته .

ويقال مثل ذلك تماماً فى حقائق الجاذبية ، وكروية الأرض ودورانها على تفاوت فى مدى إثباتها بالمشاهدات والتجارب العلمية ، ونظرية التطور العضوى التى جعلوا منها أساساً لتبرير فلسفتهم المادية ، وتسويغ منهجهم الهدام ، لم تثبت التجربة العلمية حتى الآن جانباً من جوانبها .

ومع ذلك تظل حقيقة تحظى منهم بكل قطعية ، فهل يمكن أن يثبتوا بالتجربة المباشرة ، كيف تنشأ الحياة من مادة لا حياة فيها ؟ حتى يصدق لهم الفرض الأساسى فى هذه النظرية ، ذلك هو نشأة الأصل الأول للأحياء من المادة بطريق التولد الذاتى ، ولم يثبت أحد العلماء فى معمله بالتجربة المباشرة كيف تتحول الأنواع تحولا عضوياً حتى يصبح الفرض كذلك حقيقة يقينية .

ومع ذلك فإن الماديين من الماركسيين وغيرهم لا يتورعون عن الإعلان عن نظرية التطور كحقيقة ثابتة لا يتسرب إليها ريب ولا يخالط الاعتقاد بها تردد .

والديالكتيك الذى يجعل منه الماركسيون مصدراً للحركة والتطور للكون فى جانبيه المادى والحس على السواء ، ويؤمنون به كما لو لم يؤمنوا بحقيقة غيره ، من حيث الثبات واليقين ، ولم يكن مصدر هذا الإيمان إلا بعض فروض وتخمينات فى مجال المادة والأشياء الحسية ، وإلا فأين هو الديالكتيك كشىء واقع تحت الحس قد أثبتته التجربة العلمية المباشرة ؟

فإذا كانت كل هذه الحقائق وغيرها مما يتمتع بقناعة العلماء وجزمهم فى ثبوته لم تقم فى حساب العلم إلا على أساس المشاهدات والتجارب غير المباشرة لبعض آثارها ، أو لبعض جوانبها الظاهرة . ولم يتسن للعلماء حتى الآن إدراك كنهها بواحدة من وسائل الحس كما يدركون المادة بالرؤية ، أو اللمس أو السماع أو الشم أو الذوق .

فمن التخبط والتناقض حينئذ أن يصل إيمانهم بها كما هو حاصل بالفعل إلى درجة الجزم والقطع . في حين أنهم يرفضون الايمان بوجود الله ؛ لأن وجودة سبحانه لم يدرك بإحدى الحواس ولم يثبت بالتجربة العلمية .

ثم لنفرض أن هذه الحقائق التي لا يرتاب العلماء في ثبوتها هي حقائق مسلمة بالفعل بشهادة الحس والتجربة ، فإن سبيلهم إلى إنكار وجود الله حينئذ هو مجرد قياس الغائب على الشاهد . وغير المادى على المادى ، ويثبتون له أحكامه ويطبقون عليه قوانينه ، وهو قياس باطل ، إذ يفترض فيه أن يعتبر بين متكافئين أو متماثلين .

ومن المستحيل أن يتكافأ ، أو يتماثل مخلوق وإله خالق ، وتطبيق هذا القياس يفرض الخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً تجرى عليهما نفس الأحكام والقوانين على السواء ، وهذا تناقض أشد فساداً وأبلغ بطلاناً .

ثم إن عالماً أو غير عالم لا يمكنه أن يزعم أن عدم إدراك الشيء لا دليل على أنه غير موجود ، وإلا فهل أتت بحوث العلماء وكشوفهم على هذا الكون من قوانين وأسرار وحقائق علمية حتى الآن .

ومعنى أن يكون الجواب سلبياً عن هذا التساؤل ، وهو شيء مناص منه ، أن هناك ما لا يحصى من الحقائق ، يلزم العلماء الايمان بها بالرغم من أنها لم تقع بعد تحت طائلة إدراكهم الحسى . وهم لا يستطيعون إنكار هذا الأمر ، ومع ذلك يرغبون كل الرغبة في أن من هذا الأساس مستلزماً لعدم وجود الله ، وكل من كفروا بالله على

مدى التاريخ الإنسانى كله أما أن ينزعوا نفس المنزع ، أو يجدوا فيما يكتشف من القوانين العلمية والسنن التى تفسر ظواهر الكون غناء عن الإيمان بتدبير الله وتصريفه .

ولم يحدث فى تاريخ الفكر الإنسانى على تباين شططه وانحرافه فى هذا الباب وعلى اختلاف مصادره ومناهجه أن استطاع ملحد من الملاحدة أو ضال من الضالين أن يقدم دليلا عقليا أو تجريبيا على إنكار وجود الله ، وفى الجهـــة المقابلة لم يخل زمان من الأزمنة ولا مكان من الأمكنة من جمع من المفكرين والعلماء الذين صدقوا مع فطرتهم ، ودفعوا برؤيتهم الصافية إلى ما وراء كثافة المادة وتشابك الظواهر الطبيعية فقدموا للإنسانية عديداً من البراهين الفطرية منها والعلمية ، تفضى كلها إلى إثبات وجود الخالق المنظم المسير للكون بعلمه ومشيئته وحكمته ، ولم يكثر فى عصر من العصور أن كان العلم فى مختلف فروعه مصدراً لإيمان العلماء التجريبيين بالله قدر ما كثر فى عصرنا هذا .

وإن لم يكن الدين فى حاجة إلى من يؤيده أو من يثبت حقية ما جاء به من حقائق لا سيما فى مجال الإيمان بوجود الله وسائر الأمور الغيبية أو الميتافيزيقية – كما يسمونها – ولكن الماركسيين وهم أكثر الماديين إغراقاً فى ماديتهم ، والملاحدة إغراقاً فى إلحادهم ، يغمضون أبصارهم وبصائرهم عن ذلك النظام وذلك الإحكام الذى يتبدى فى كل الظواهر الكونية وعلاقة بعضها ببعض ، وهو لا يدل على شىء أكثر مما يدل على ما وراءه من حكمة وقصد وإرادة ، ولا يبطل شيئاً أكثر مما يبطل استناده إلى مصادفة أو اتفاق ، فما هو

مصدر هذا النظام الذى لم يلحقه فيما وصل إليه علم الانسان أو فيما لم يصل إليه بعد ، مظهر من مظاهر العشوائية أو الخلل أو العبث ؟

هل يتأتى لعاقل من الماركسيين وغيرهم أن يسخروا بكل عقول الناس وعلومهم ونظرياتهم على طول التاريخ وعرضه حين يواجهون العالم بأن وراء هذه الطبيعة وما حوت من كائنات علوية أو سفلية وما يتبدى فيها من نظام وإحكام ، إنما هى المادة الصماء ، التى لا عقل لها ولا قصد ولا اختيار .

وقد تطورت وتحولت بحركتها وقوانينها الذاتية منذ الأزل حتى الآن إلى كل هذا العالم على هذه الصورة الباهرة فى صنعه الفائق كل تصور ممكن فى نظامه وإبداعه ، هذا العالم نتاج لمادة غير عاقلة بما فيه من أرض وسماء وبحار وجبال وإنسان وحيوان ونبات وكواكب وشموس ونجوم وأقمار ، وبلايين البلايين من الخلائق والأحياء ، والسنن والقوانين التى تحكم الحركة فى كل جوانب هذا الكون وتقوم عليها الحياة فيه ! !

كيف انتجت هذه المادة الميتة المجردة من العقل والحس . وكيف صدرت عنها الحياة فى الكائنات الحية ؟؟ ولا سيما إذا كان من المعلوم أن الماركسية تدعى أزلية المادة وأسبقيتها على الحياة والوعى والعقل ؟

إن نشأة الحياة فى أول موجود حى من المادة الميتة هى الشىء الذى عجز عن إقراره كل علماء الطبيعة والحياة ، حتى أولئك الذين آمنوا بنظرية الارتقاء العضوى ، وفى مقدمتهم تشارلز داروين واضع

النظرية نفسه ، ولم يسعه إزاء ذلك إلا الاعتراف بالعقل الكلى أو الخالق الحكيم سابقاً فى وجوده على المادة والحياة .

ثم لا يعنى ماركس وأتباعه ولا يزعجهم أن يخالفوا أستاذهم دارون فى موضوعيته من هذه القضية مع اعتمادهم على نظريته . ثم يحاولوا حل هذا التناقض بما يسمونه الديالكتيك وقوانينه الجدلية ، وهو حل لا يستند إلا إلى الخيال فى قمة مرض الخيال ، ولا يبرر إلا بالوهم فى أقصى درجات الوهم من الشطط والشرود ، ولا سيما إذا تناقض هذا الديالكتيك بقوانينه وفعاليته الخارقة مع أساس الماركسية القاضى بتأخر العقل والوعى والارادة الحيوانية ، وظهورها فى آخر مرحلة لتطور الموجودات .

وإذا أنكر الماركسيون أسبقية القوة العاقلة فى الوجود على كل موجود كما هو معلوم فمن أين إذن لهذا الديالكتيك كل هذه القوة وكل هذا التأثير وكل هذا الإبداع لكل هذا الوجود فى نشأته وتطوره على هذا النمط من النظام والإبداع الذى لا يقوم إلا على آيات العقل والحكمة والقصد والإرادة ؟

والماركسيون وغيرهم ممن نهج نهجهم إن حاولوا التملص من هذا التناقض فيما يتعلق بنشأة الكائنات لا سيما نشأت الحياة فى أول كائن حى من المادة الميتة ، وبرروا ذلك بالمصادفة والاتفاق ، فإن ذلك لا ينجيهم من التخبط فى الضلال والجهل ؛ لأن مثل هذه المقولة أشد تهافتاً وسقوطاً حين تصطدم كذلك بآيات الحكمة والقصد فى قوانين العالم وسننه التى يقوم عليها نظامه البديع الذى لا يمكن أن يصدر فى نشأته وتطوره وغايته إلا عن مبدع عالم حكيم .

هذا المبدع هو الله الذى ليس كمثله شيء .

وتلك النتيجة هى الصدى الطبيعى لصوت الفطرة الإنسانية التى هى جوهر الإنسان . وكانت نصوص القرآن وآياته المعصومة دائماً منبهة لهذه الفطرة من غفلتها ، وموقظة لها من ثباتها ، كلما اعتراها الخمول والذهول .

يقول الله تعالى : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ »[1] .

ويقول جل شأنه : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون »[2] .

ويقول : « ألم نجعل الأرض مهاداً * والجبال أوتاداً * وخلقناكم أزواجاً * وجعلنا نومكم سباتاً * وجعلنا الليل لباساً * وجعلنا النهار معاشاً * وبنينا فوقكم سبعاً شداداً * وجعلنا سراجاً وهاجاً * وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً * لنخرج به حباً ونباتاً * وجنات ألفافاً * إن يوم الفصل كان ميقاتاً »[3].

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٠٢ — ١٠٤ .

(٢) سورة البقرة الآيات : ٢١ — ٢٢ .

(٣) سورة النبأ الآيات : ٦ — ١٧ .

ويقول : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون ۞ أفرأيتم ما تمنون ۞ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ۞ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ۞ على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فى ما لا تعلمون ۞ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ۞ أفرأيتم ما تحرثون ۞ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ۞ لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ۞ إنا لمغرمون ۞ بل نحن محرومون ۞ أفرأيتم الماء الذى تشربون ۞ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ۞ لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ۞ أفرأيتم النار التى تورون ۞ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ۞ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ۞ فسبح باسم ربك العظيم »[١].

ويقول : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً »[٢].

وكثير غير هذه الآيات من آيات القرآن لا تزال تنبه الفطرة والعقل معاً بما تشير إليه من مقومات النظام وعناصر الحياة . والى أن هذا الكون يجب أن يكون صنعة صانع له تمام الحكمة وشامل العلم وكامل القدرة والتدبير ؛ والرافض لهذه الحقيقة كالماركسيين وغيرهم من الماديين ، رافض فى الواقع لما تقضى به الفطرة والبداهة ، بل رافض كذلك لما تشهد به العادة وينطق به الواقع .

وإلا فهل يتصور على أى نحو من التصور أن يكون جهاز مثل

---

(١) سورة الواقعة الآيات : ٥٧ — ٧٤ .

(٢) سورة فاطر الآية : ٤١ .

الكمبيوتر الذى مهما بلغ من إعجاز صنعته ، فلن يبلغ حداً ذا خطر عظيم فى نسبته إلى نظام تركيب مخ الإنسان .

هل يتصور أن يكون هذا الجهاز قد وجد تلقائياً بدون أن يمر بسلسله طويلة المدى من التجارب والتصميمات ، وتطوير الآلات والماكينات وإنفاق العشرات من الملايين .

بل إن الطفل فى سنه المبكرة يمكنه أن يدرك الإجابة عن هذا السؤال حين يطرح تساؤلاته البريئة على والديه ، ومن بينها — من بنى بيتنا هذا — ومن حاك لى ثوبى — ومن صنع طعامنا ؟ — إلى آخر هذه التساؤلات التى يدرك فيها الطفل بفطرته أن وراء كل صنعة من صنعها ، وأنه لا يمكن أن يكون شىء ما يقع عليه بصره من غير أن يكون له موجد قصد وجوده على هذه الصورة .

فكيف يتصور دعاة العلم من الماركسيين أن لا يكون لهذا العالم صانع .

خلق أم مصادفة ؟

ولإن كانت المادية قد مسخت طبيعتهم الإنسانية وأطفأت فى نفوسهم نور الفطرة ، فماذا قال لهم علمهم المادى الذى قطعوا فيه شوطاً جعلهم فى مقدمة كثير من شعوب الأرض ؟ ماذا قال لهم عن حقيقة هذا العالم ونظامه وقوانينه ، وعن ضبطها وحسابها الذى فاق كل تصور للضبط والحساب ؟

هل تقبل حسابات العلم ومقاييسه أن لا يسبق مثل هـذا النظام الذى لا تقاس إليه ما تفتقت عنه عبقرياتهم وعبقريات غيرهم إلا بنسبة يخترعها الوهم والخيال بتصميم وتنظيم لمصمم ومنظم فاق كل التصورات البشرية إحاطة وقدرة؟

إن معنى ذلك أن يقره العلم الطبيعى والمادى الذى يتعبدون به. أن هذا العالم وليد المصادفة البحتة فى نشأته وتطوره.

والماركسيون هنا أصحاب عقيدة وثنية يتجاهلون فى سبيلها كل نتائج العلم ونظرياته؛ لأنهم يرفضون الإيمان بالخالق المدبر لهـذا الكون. ويؤمنون إيماناً بعيداً عن كل علم وكل تجربة، وكل عقل بأزلية المادة، ويقرون بأن المادة الأزلية مجردة بالضرورة من العقل والإرادة ولا بد لهم مهما لجأوا إلى الخداع والكلام البراق أن يفسروا نشأة العالم الحى، بل والميت بمجرد المصادفة.

وقبل الكشف عن تضليلهم وحماقتهم فى بيان حكم العلم وحقائقه عن قيمة المصادفة فى نشأة العالم ووجوده من المادة الميتة، علينا أن نؤكد هنا فضيحتهم العلمية فى قولهم بأزلية المادة:

(فإن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائرة حتما إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض، هى الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة، ولا مناص من حدوث هذه الحالة ومن انعدام الطاقات عندما تصل إلى درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضى الوقت.

أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة . فهو إذن حدث من الأحداث)[١] .

هكذا إذن يقول العلم كلمته التى لا يؤمن الماركسيون بسواها فى بسواها فى حدوث العالم بجميع مكوناته المادية والحيوية ، فهى صائر إلى العدم والفناء ، وما كان مصيره العدم والفناء ، استحال أن يكون قديماً بلا أولية لوجوده .

والملاحظة العابرة لتغير الموجودات بأسرها وتحولها من العدم إلى الوجود ، ومن الوجود إلى العدم تقضى بحدوثها لا محاله ؛ لأن القديم لا يعتريه التغير والعـــدم ، ولم يعد يجدى الماركسيين وغيرهم من الماديين القول ببقاء المادة من حيث هى ، وما يفنى هو صورها وظواهرها بعد صيرورة المادة فى نتائج العلم إلى طاقة وإشعاع يذوب فى الأثير الذى لا تنطبق عليه خصائص الوجود طبقاً لمعاييرهم المادية .

فقضية حدوث العالم إذن باتت من حقائق العلم التجريبى فضلا عن النظر العقلى الذى تتعدد طرقه ، ولا يجدينا هنا الكلام فيها مع خصم لا يرى العقل إلا أحد أنشطة المادة وواحداً من عبيدها وخدمها .

وإذا كان من قبيل السفسطة والجنون والمصادمة للعلم ، القول بقدم العالم ، فإن القول بحدوثه من عدم أشد تهافتاً ومجافاة للحقائق العلمية .

( ) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٦ .

ومن الحتمى وفقاً للمقاييس العلمية قبل أى مقياس آخر ، الإقرار بوجود محدث لهـذا العالم أبرزه من العدم إلى الوجود فى وقت معين وفق معيشته وحكمته ، ويجب أن يكون هذا المحدث للعالم أزلياً مستحقاً ما يستحقه الخالق من الـكمالات بعيداً عن كل تصور مادى يلحق به صورة من صور النقص فى المخلوق ، وهذا المحدث والخالق هو الله .

والإيمـان بوجود الله خالق حكيم لهذا العالم عـــلى هذا النحو قضية ضرورية يثبتها العلم ويتخذ فيها العلماء فى كل مجالات العلم التجريبى قرارات إيجابية حاسمة انتهوا إليها بمـا وقفوا عليه خلال بحوثهم واكتشافاتهم من آيات العناية ودلائل القصد والتدبير المتجلية فى نظام العالم واتساق قوانينه وظواهره ، مما جعلهم ينفون بشكل قاطع نشأة العالم ووجوده بالمصادفة أو العشوائية ، وها هى ذى قرارات بعضهم :

قال العالم الـكيميائى (توماس دافيد باركس) :

(إنى أقرأ النظام والتصميم فى كل ما يحيط بى من العالم غير العضوى ، ولا أستطيع أن أسلم بأن يكون كل ذلك قد تم بمحض المصادفة العمياء التى جعلت ذرات هذا الـكون تتألف بهـذه الصورة العجيبة ، إن هذا التصميم يحتاج إلى مبدع ونحن نطلق على هذا المبدع اسم الله)[1] .

وقال العالم الفلـكى الشهير (كريس موريسون) :

(إن الأوكسجين والهيدروجين وثانى أوكسيد الـكربون — سواء

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢ وما بعدها .

أكانت منعزلة أم على علاقاتها المختلفة بعضها مع بعض هى العناصر البيولوجية الرئيسية ، وهى عين الأساس الذى تقوم عليه الحياة غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين تقضى بأن تكون كلها فى وقت واحد ، وفى كوكب سيار واحد ، بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة ، وليس لدى العلم إيضاح لهذه الحقائق ، أما القول : بأن ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية)[١] .

وقال العالم الفسيولوجى والوراثى (جون وليام كلوتس) :

(إن هذا العالم الذى نعيش فيه قد بلغ من الإتقان والتعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة ، إنه ملىء بالروائع والأمور المعقدة التى تحتاج إلى مدبر ، والتى لا يمكن نسبتها إلى قدر أعمى ، ولا شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقدة ، وهى بذلك تزيد من معرفتنا بالله ومن إيماننا بوجوده) .

وقال العالم البيولوجى الدكتور (سيل هامان) :

(ولقد كشفت قوانين الكيميا الحيوية من أسرار الحياة وظواهرها ما لم تكشفه القوانين فى أى ميدان آخر من ميادين الدراسات العلمية لقد كان الناس ينظرون إلى خفايا عمليـــات الهضم والامتصاص ، ويستدلون بها على وجود التدبير المقدس . أما فى الوقت الحاضر فقد أمكن شرح هذه العمليات ، ومعرفة التفاعلات الكيماوية التى تنطوى

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٧٣ .

عليها ، والخيرة التى تقوم بكل تفاعل ، ولكن هل يدل ذلك على أنه لم يعد لله مكان فى كونه ؟

فمن إذن الذى دبر لهذه التفاعلات أن تسير ؟ إن نظرة واحدة إلى إحدى الخرائط التى تبين التفاعلات الدائرية العديدة ، وما يدور بين كل منها والآخر من تفاعلات أخرى ، كفيلة بأن تقنع الإنسان بأن مثل هذه العلاقات لا يمكن أن تتم بمحض المصادفة . ولعل هذا الميدان يهيء للإنسان من العلم ما لا يهيئه أى ميدان آخر ، بأن الله يسير هذا الكون تبعاً لسنن رسمها ودبرها عندما خلق الحياة .

وقال عالم الأحياء (إدوارد لوثر كيسيل) :

(إننا نشاهد أن الأعضاء المتعادلة التى ليس لها ضرر ولا نفع تتضاءل ؛ مما يثبت أن الطفرات ليست دائماً عشوائية ، وأن التطور لا يعتمد على المصادفة العمياء ، وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بأن هنالك حكمة وتدبير وراء الخالق ، ووراء القوانين التى توجهه ، ولا مفر لنا كذلك من التسليم بأن التطور ذاته قد صمم بحكمة . وأنه يحتاج هو أيضاً إلى خالق يبدعه)[١] .

هذه هى بعض النصوص التى اخترناها من كثرة كاثرة من أقوال العلماء الكونيين لتحمل إلى ملحد كل اعتراف العلم وإيمان العلماء بوجود الله

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ، وانظر البراهين العلمية على وجود الخالق للبرازى .

الخالق لهذا العالم حين تبدى لهم نظامه البديع فى كل شىء من مكونات العالم وعناصره وظواهره وعلاقاتها القائمة بينها ، ثم ما يقوم عليه هذا النظام من التوازن والحساب الذى فى دقته كل حدود الروعة والدهشة .

وقد اختلفت رؤى العلماء أمام هذه الروعة وإن التقت جميعها فى الإيمان بالله كغاية واحدة . فمن عالم بهره التآلف العجيب بين ذرات الأشياء فى أصل تكوينها وتركيبها ، ومن آخر بهره ما يحدث فى جسم الإنسان من تفاعل وتكامل بين سائر أجهزته البالغة غاية التنظيم والتعقيد ، إلى ثالث بهرته صلاحية أرضنا للحياة ومقوماتها ودون غيرها من الكواكب متمثلة هذه الصلاحية فى حجم الأرض والمسافة بينها وبين الشمس ، وما يحيط بها من الغلاف الهوائى ، ودرجة ارتفاعه وكثافته وطبيعة تكوينه ، وما تحتويه من مساحات مائية ، ومكونات هذه المياه ، ثم مكونات التربة الأرضية وما يتم فيها من عمليات التمثيل الضوئى واختزان الطاقة الشمسية ، وما تحتويه من معادن ضرورية لقيام الصناعات والحضارات ثم دورانها حول نفسها حيث يتتابع الليل والنهار ودورانها حول الشمس حتى تحدث الفصول الأربعة ، ومدى مسافتها بالقياس إلى موقع القمر ، وما يبدو فى كل ذلك من قوانين السببية وعلاقات التكامل والتفاضل والغرضية ، وما يحكم كل ذلك وغيره من توازن وحساب لا يقبل الزيادة أو النقص ، بحيث لو حدث شىء منهما بأقل نسبة يعجز الخيال فضلا عن العقل عن تصوير ضآلتها لوقع الخلل واستحالت الحياة .

ذلك كله وغيره ما جعل العلماء الطبيعيين الذين ينطلقون فى بحوثهم

من المادة والمحسوس يحنون الرؤوس سجداً فى محراب الله الخالق لهذا العالم المهيمن على نظامه بكامل حكمته وتدبيره . ويرفضون بكل جزم وقناعة أن يكون العالم عشوائياً أو وليد المصادفة التى لا تخضع لقانون ولا يحكمها تبرير ، ولا يجرى لها قصد أو تدبير فيقف العلماء فى صف واحد تحت نور الحق الساطع مع الدين تاركين فى ظلام الباطل كل شياطين الزيغ والضلال من الماركسيين وغيرهم من الماديين الكافرين يقول الله تعالى :

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »[1] .

ويقول « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون * وجعلنا فى الأرض رواسى تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون * وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون »[2] .

ويقول : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون * سبحان الله الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما

---

(١) سورة البقرة : ١٦٤ .

(٢) سورة الأنبياء : ٣٠ — ٣٣ .

لا يعلمون * وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون * وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون * إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين »[١] .

صدق ربى القائل : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء »[٢] والقائل سبحانه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[٣] .

والآن : ماذا بقى فى حوزة الشيوعيين وأمثالهم من الماديين والمجترئين على الدين والمارقين على العلم ؟

ماذا بقى فى حوزتهم من قول أو فعل أياً كان مصدره ومهما كانت طبيعته ليبرروا إنكارهم لوجود الله ، بعد أن قال العلم المادى — ولا حجة لهم فى سواه — كلمته واتخذ قراره ؟

ولا يعنينا بعد ذلك ولا يصح أن يعنى أحداً من العقلاء أن تتصادم الشيوعية أو يتناقض الشيوعيون مع الدين الإسلامى فى كثير من مبادئه بعد تصادمهم وتناقضهم معه فى أساس الإيمان بوجود الله .

فكل ما عداه مما يتصدى لتوجيه المجتمعات وعلاج أدوائها وحل

(١) سورة يس: ٣٣ — ٤٤ .
(٢) سورة الأنعام : ٣٨ .
(٣) سورة فصلت : ٥٣ .

مشكلاتها إنما هو فرع عن الأصل الذى إذا انهدم فى مذهب من المذاهب يصبح الحوار والنقاش مع أنصاره ضرب من ضروب العبث وإضاعة الوقت فيما لا يفيد ، فلندعهم إذن غارقين حتى الآذان ومغرقين أتباعهم من أبناء البشرية الضائعة فى وثنيتهم وجاهليتهم وعبادة الدولة وأبالسة الحزب الملاحدة .

« وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

الماركسية والحرية

من الدعاوى التى طرحها ويطرحها الشيوعيون أن حرية الإنسان هى من أهم الأهداف التى سعوا إلى تحقيقها والوصول إليها .

والحرية بجميع ألوانها كما هو مفروض إحدى الحتميات الاجتماعية التى تؤدى إليها لامحالة الحركة الجدلية للتاريخ .

فما ثارت الطبقة العاملة فى طور من أهم أطوار المجتمعات الإنسانية على قيود الإقطاع والبرجوازية إلا فى ظل هذه العلاقات الإنتاجية الدائرة حول العبودية والاستغلال والاستثمار المادى والنفعى لإنسانية الإنسان .

ولم يكن هدف البروليتاريا فى كل انتفاضة لها على الطبقة المتسلطة إلا لإنقاذ إنسانيتها وتخليص حريتها من كل لون من ألوان العبودية وتحطيم قيود الذل وأغلال المهانة .

وما وعدت الماركسية الكادحين والمظلومين بأغلى مما وعدتهم به من تحقيق الحريات التى توفر لهم سيادتهم المطلقة سواء فى الحكم والاقتصاد والعمل والهيمنة على وسائل الإنتاج ، أو فى الفكر والتعبير ، وما إلى ذلك من أنماط السيادة التى تنعم بها البروليتاريا فى ظل الدولة الاشتراكية والشيوعية .

وفى سبيل تحقيق هذه الغاية التى لامناص من إدراكها .

فعل الشيوعيون كل ما فعلوا ، واستباحوا كل ما استباحوا من

الأساليب والوسائل غير الشريفة وغير المشروعة بحجة السعى للوصول إلى دولة العمال ومجتمع الحرية والسيادة حيث تخلص إلى أيدى العمال أزمة الإنتاج ويتم توزيعه بعدالة وتلبية للحاجات .

وفى كتاب الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية يؤكد إنجلز هذه الحقيقة فى قوله :

(إنه عندما تصبح الوسائل الجبارة للإنتاج الذى خلفته المرحلة الرأسمالية ملكا للمجتمع ، وعندما ينظم الإنتاج حسب الحاجات الاجتماعية ووفقاً لمقتضياتها ، يصبح الناس أسياد علاقاتهم الاجتماعية وأسياداً على الطبيعة وأسياد أنفسهم وعندئذ سوف تكون الأسباب الاقتصادية التى خلفوها تقوم بنسب عظيمة جداً بالتأثيرات التى يرغبون فيها . إن هذه ستكون قفزة البشرية من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية) .

هكذا تتجاوز البشرية فيما يتصور إنجلز كل الضرورات التاريخية من خلال المسيرة الديالكتيكية التى يفترض الماركسيون مرور التاريخ الإنسانى نحو التطور عبر مراحلها الثلاث (الدعوى — والجواب — والتركيب) .. إلخ[1] .

ولكن حين ينتهى الصراع بين البروليتاريا (الطبقة العاملة) ، والرأسمالية .

ويتم للبروليتاريا كل مقومات الحرية والسيادة والأمان والاستقرار ، بل حين ينتهى الأمر إلى قيام الدولة الشيوعية ، وتتربع الطبقة

---

(١) هذا هو التعبير الذى يؤثره الماركسيون عن مراحل الديالكتيك حيث يطبقونه على التركيب الاجتماعى .

العاملة على عرش الحرية ، هل تتوقف جدلية التاريخ الحتمية عن المسير ؟

إن توقف الجدلية التاريخية عند هذا الطور للحرية ومملكتها فى دولة العمال يعد تخلفاً لحتمية الجدلية المادية أو مبدأ النقيض الذى هو لب الفلسفة الماركسية فى تفسيرهم لحركة التاريخ وتطوره كما مر بنا توضيحه .

ثم هل الحرية من وجهة النظر الفلسفية الجدلية يمكن أن تكون حقيقة يعانقها الإنسان وينعم بثمراتها فيما يتصور الماركسيون ؟

إن الجواب : إذا كان بالإيجاب ، فما معنى نفاذ الحكم الديالكتيكى على حركة التاريخ الإنسانى ، ومامعنى قضائه المبرم على تطور المجتمعات الذى لافكاك لها من التنقل بين ضروراته المتصاعدة فى خط التطور اللولبى وفى جواب الماركسيين عن هذا التساؤل الأخير محاولة منهم لحل هذا التناقض . يقررون أن حرية الإنسان إنما تكمن فى وقوفه على حقيقة القوانين الطبيعية من أجل استغلالها بطريقة منهجية .

ولا يمكن للإنسان أن يحيد عن هذا السبيل التى تفرضه عليه الطبيعة بحيث لا يستطيع أن يسير فى اتجاه معاكس دون أن يفقد حريته .

فالإنسان ما هو إلا أحد المكونات للمجتمع الذى يخضع فى تطوره لسلطان المادية الجدلية خضوعاً حتمياً كما تخضع له الطبيعة الجامدة سواء بسواء . فليست الحرية الإنسانية فى هذا التطور الفلسفى إلا وهماً ، إذ هى امتداد للجبرية الديالكتيكية التى ليست هى كذلك

شيئاً آخر وراء الوهم ، ولنصغ إلى إنجلز يوضح لنا مفهوم الحرية الإنسانية على نحو ما أشرنا إليه الآن ، إذ يقول :

(إن الحرية لاتستقيم فى حكم الاستقلال عن القوانين الطبيعية ، بل فى معرفة هذه القوانين ، وفيما تمنحه هـذه المعرفة من إمكانية تشغيل تلك القوانين بصورة منهجيـة ، فى اتجاه أهداف محـددة . وإن هذا لينطبق سواء على قوانين الطبيعة الخارجية ، أم على القوانين التى تسير الوجود الجسمانى والذهنى للبشر أنفسهم ، وهما صنفان من القوانين . يمكننا على الأكثر أن نفصلهما بعضهما بعضاً فى الفـكر ، لـكن ليس فى الواقع . وهكذا . فإن حرية الإرادة لا تعنى أكثر من القدرة على اتخاذ القرارات بعد الاطلاع على حقيقة الأمر ، وبالتالى فإنه بقدر ما تـكون محاكمة الإنسان بشأن مسألة معينة أكثر حرية ، فإن الضرورة التى سيتحدد بها مضمون هذه المحاكمـة تـكون أعظم ، فى حين أن التردد القائم على الجهل ، هذا التردد الذى يبدو أنه يقوم باختيار اعتباطى بين قرارات عديدة مختلفة متنازعة يفصح من جراء هذا الواقع بالضبط عن انعـدام حريته ، وعن إذعانه بالضبط لذلك الشيء الذى كان ينبغى له أن يسيطر عليه .

وهـكذا فإن الحرية تستقيم فى السيطرة على ذواتنا وعلى الطبيعة الخارجية وهى سيطرة مؤسسة على معرفة الضرورة الطبيعية)[1] .

وبهـذا تنحصر حرية الإنسان فيما تريده منه الطبيعة وتختاره له مما يجب أن يسلـكه من الطرق . ولا قيمة لإرادته واختياره هو حين

---

(١) انظر نقض أوهام المادية الجدلية للبوطى .

يوجههما إلى غير ما تقتضيه قوانين الطبيعة وما يقضى به الديالكتيك الماركسى .

ومن هنا فلا يحق للإنسان الحر بهذا المفهوم فى ظل الدولة الشيوعية أن يختار مذهباً فى السياسة أو فى الفكر أو فى العقيدة غير ما يختاره له حكامه الساهرون على حماية النتائج الديالكتيكية والمبادىء الماركسية ؛ لأنهم هم المقيمون على عهد ماركس ولينين وستالين ، المتعبدون بمذهبهم المقسمون على تحقيق أحلامهم .

وهانحن أولاء نرى أن الحرية لاتنهض واحدة من لوازم الديالكتيك الماركسى إلا بقدر ما تفرضها حتمية هذا الديالكتيك على ذلك الكائن المسمى بالإنسان ليستخدمها فى استخلاص الضرورات الديالكتيكية كذلك من أسر الطبيعة . فلا يمكنه أن يبغى عن ذلك حولا ، وما أشبه هذا بحاكم يأمر بعض رعاياه أن لا يسلكوا فى طريقهم من بيوتهم وإليها إلا ذلك الشارع دون سواه من عشرات الشوارع بالمدينة .

ثم يقول لهم : إن لكم مطلق الحرية فى الذهاب والإياب مادام ذلك فى نطاق هذا الشارع . ولا حق لكم فى ذلك عندما ترغبون فى عبور شارع آخر عن يمينه أو يساره .

فهل هذا إلا ضرب من الحجر على الحرية ومطاردتها فى أضيق نطاق ممكن ؟ إن على الإنسان أن يرتد بنظرة هادئة إلى أعماق نفسه وأغوار كيانه ليدرك إدراكاً بدهياً .

إنه يملك كل مقومات الحرية والاستقلال الذاتى من وعى وإرادة، وضمير وقدرة على الموازنة والاستدلال، وغير ذلك من القدرات والملكات التى تجعل منه سيداً للطبيعة، لا واحداً من عبيدها وخدمها، والتى تسمو به عن كل ما سواه من أجناس العجماوات.

ولكن الماركسية تأبى إلا أن تمسخ حقيقة الإنسان؛ لأنه فى نظرها مجرد كائن مادى، سحلته الطبيعة بوعيه وعقله وفقاً لضرورات التطور العضوى، وما هى إلا أسلحة مادية كل وظيفتها مع الإنسان هى خدمة المادة مواصلة لرحلة التطور الجدلية المقضى بها على حركة الكون الأبدية، وعلى الرغم من أن الفلسفة الماركسية تطوق الإنسان على نحو ما نرى، وتكبله بقيود الجبرية وسلاسل القهر والعبودية، فإنهم لا يهدأون لحظة عن الزعم بأنهم دعاة الحرية ومنقذوا المظلومين والمستعبدين من بنى البشر المضيعين.

الحرية فى الواقع الاجتماعى:

وسواء كان ذلك من قبيل النبوءات الكاذبة لأئمتهم الذين هلكوا، أم كان من قبيل الدعاية الخادعة التى يروجها أئمتهم الذين ما زالوا على قيد الحياة. فإنهم يعرفون أكثر من غيرهم أنه لا وجود للون من ألوان الحرية فى دولهم أو فى أية دولة مستها نفحة من سموم الشيوعية بشكل مباشر، أو غير مباشر.

يعرف هذا الشيوعيون ويعرفه غيرهم ممن زاروا بلادهم وعاينوا واقعهم، ووقفوا على حقائق نظامهم، أو من قرأ عن ذلك فى تتبع وموضوعية،

ودراسة فاحصة ، والكل متفقون على رأى واحد ، وهو أنه لا حرية فى البلاد الشيوعية لأى فرد من الأفراد على اختلاف أوساطهم ، وتباين أوضاعهم ومراكزهم .

اللهم إلا تلك العصبة المتسلقة التى تشكل الحزب الحاكم .

نعم ليس من المبالغة فى شىء أن يقال : إنه ليس فى وسع أى فرد من الأفراد الذين لا ينتمون إلى الحزب الشيوعى أن يحظى بأدنى نصيب من الحرية فى استعمال أى حق من حقوقه السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الفكرية أو غير ذلك من الحقوق التى يتمتع بها كل فرد من أفراد الحزب الشيوعى كما ينعم بها كل أفراد المجتمعات الرأسمالية التى تنتظر الشيوعية ، بل وتسعى إلى انهيارها والقضاء عليها .

فمن المستحيل على المواطن والشيوعى الذى لا يحظى بشرف العضوية فى الحزب أن يمارس حقاً من الحقوق الديمقراطية .

وعليه إن هو أبدى معارضة ، أو رفضاً لرأى ، أو تشريع من آراء ، أو تشريعات الحزب أو الدولة .

أن يلقى أسوأ مصير يلقاه إنسان من سجن أو تعذيب أو قتل أو اتهام له بالجنون ، أو نفى إلى مجاهل سيبريا أو غير هذا ، وذاك من ألوان النكال والانتقام التى برع الشيوعيون فى ممارستها لكل من يعد خائناً للدولة .

والمعارضة السياسية من قبيل الخيانة ، بل من أحلك ألوانها ، وليس ثمة بالطبع مكان للصحافة المعارضة .

وحق الإضراب الذى يمارسه غيرهم من أبناء الدول الديمقراطية

احتجاجاً على تقصير ، أو مطالبة بحق يحرمون هم من ممارسته حرماناً تاماً ، ومجرد التفكير فيه إحدى جرائم الخيانة للدولة .

وشبكات التجسس والبوليس السرى لا ينجو من تعقبها فرد من الأفراد الذين يجب أن يكونوا دائماً على حذر من أقل الأخطاء التى تمس سياسة الحزب والدولة ، وللبوليس السرى أن يعتقل أو يقتل من يشاء .

وللقضاء أن يصدر أحكامه بالإعدام ، أو النفى على من يريد وبدون وضوح أسباب أو حيثيات ، ما دام هناك دائماً المبرر الوحيد لذلك وهو الخطورة على الأمن .

والهيمنة السياسية فى روسيا معقل الشيوعية الأول مصدرها الوحيد هو الحزب الشيوعى ممثلا فى تنظيمه الهرمى ، حيث يتربع على قمته مجلس الوزراء ، ويكون قاعدته جمهور الناخبين من الأعضاء المسجلين فى الحزب .

والهيئات الثلاث المسيطرة على هذا التنظيم هى :

(١) السوفييت الأعلى :

وهو أعلى سلطة فى الدولة ، ويتكون من مجلسين اتحاديين هما :

سوفيت الاتحاد (نائب لكل ثلاثمائة ألف نسمة) وسوفيت القوميات وتقوم الانتخابات فيه على أساس الوحدات القومية الداخلة فى الاتحاد والتى تتساوى من حيث التمثيل النيابى .

(ب) هيئة الرئاسة :

وتتألف من ٤٢ عضواً ينتخبهم السوفيت الأعلى بمجلسه فى جلسة مشتركة ، ويكون من بينهم رئيس وستة عشر نائباً للرئيس ، وسكرتير وأربعة وعشرون عضواً .

(ج) مجلس الوزراء :

ويتم اختيار أعضائه بواسطة السوفيت الأعلى ، وله حق عزلهم ، ويختص مجلس الوزراء بالشئون التنفيذية .

وهيئة الرئاسة ومجلس الوزراء مسئولان أمام السوفيت الأعلى .

والمرشحون للسوفيت الأعلى ، وكذلك ناخبوهم يتم اختيارهم من أعضاء الحزب(١) .

والديمقراطية التى هى أرقى أشكال الحرية السياسية هى إحدى ضحايا هذا التنظيم المتسلط والمستبد الذى يفرض نفسه على كل مقدرات المواطنين بكل وسائل الضغط والعنف ؛ وذلك لأن هذا التنظيم بهيئاته الثلاث هو الممثل لطبقة البروليتاريا التى اصطفته واختارته من بين العناصر الممتازة ليمثل الإرادة الشعبية .

والشعب الحقيقى هو البروليتاريا ، ومن عداهم هم العبيد والمأجورون

---

(١) أسس المجتمع الإسلامى والمجتمع الشيوعى — الدكتور زيدان عبد الباقى ص ١١٤ .

الذين لا حق لهم فى الحياة إلا بمقدار ما يقدمونه من بذل وخدمات للدولة وأسيادهم أعضاء الحزب .

وهؤلاء العبيد المأجورون ليس لهم الحق أن ينتظروا نمطاً من أنماط العيش الكريم لقاء الطاعة العمياء لكل ما يصدر إليهم من تعليمات وأوامر ومقابل التفانى فى سبيل السادة من حكام الدولة .

فليس الفرد الشيوعى من غير البروليتاريا متمتعاً بقسط تافه من حرية التملك لأى قدر من المال أو لأى مسكن مهما كان وضيع المستوى فضلا عن مزرعة أو مصنع ، أو متجر ، بل لا حق للمواطن الشيوعى فى أن يستأثر بزوجة خاصة ، أو يميز أبناءه ، أو يحدد عددهم .

فكل نوع من أنواع الملكية أو الاختصاص على الجملة ليس من حق الأفراد العاديين فى البلاد الشيوعية ، فالملكية الخاصة إحدى مظاهر الرأسمالية والإقطاع ألد أعداء الشيوعية وأشد خصومها .

وفى القضاء على الملكية الخاصة قضاء على الحافز الشخصى الذى يدفع الإنسان إلى الالتحام بالحياة والاستهانة بأخطارها .

وحب التملك غريزة فى الإنسان جبل عليها لتكون مصدراً من مصادر الجدة والخصب فى حياته . فهو الذى يزكى روح التنافس المادى والأدبى التى تنعكس طاقة على المزيد من العمل والإقبال على الحياة فالوأد لهذه الغريزة على هذا النحو ، يعد مسخاً لقيمة الحياة ذاتها ، لا سيما إذا رأى الإنسان الشيوعى أن التضحية بهذا الحق الذى هو حقه

فى الحياة لم تكن فى الحقيقة من أجل شىء مثالى ، أو قيمة فاضلة تستحق التضحية بكل ما هو شخصى ، بل وبما فوق المآرب الشخصية .

وإنما كانت وستكون فى كل وقت من أجل أن تتضخم خزائن وبطون عصابة الحكام ، ولصوص الحزب الذين ما سلموا من شىء من تلك المخازى ، والنقائص التى كانوا وما زالوا يلصقونها بالرأسماليين والإقطاع .

فاحتكار التجارة الخارجية والداخلية وتأميم المصانع والصناعة الكبيرة والصغيرة والاستيلاء على أموال الشعب العامة منها والخاصة ، بل التحكم فى الأرزاق اليومية للانسان الشيوعى ، والمن عليه بما يحتاجه من طعام ودواء وكساء ومسكن بحيث لا يحصل عليه العامل إلا بمقدار تحت إشراف الدولة ، ورقابة الحزب ، ولا ريب أن ذلك كله ينعكس على مشاعر الإنسان الشيوعى إحباط وخيبة أمل خلال ما يزيد عن ستين سنة من حياة التجربة الشيوعية منذ قيام الثورة الحمراء فى روسيا ، فقد بات متأكداً بأنهم قد خدعوه وغرروا به . وأن جنتهم التى وعدوه بها تستحيل الآن سجناً رهيباً يفقد السجين بين أسواره العاتية كل لذة بعيش ، أو متعة بحياة .

والعجيب أن الفرد فى الدول الرأسمالية ينعم بكل ما يحرم منه الشيوعى القابع وراء قضبان النظام الحديدى فى حلمه المزعج .

فهل تجاوزت الشيوعية حقاً مساوىء الرأسمالية والإقطاع من الاستغلال والاستعباد للانسان وسرقة أمواله وجهوده ؟

فماذا بقى من مساوىء الرأسمالية لم يمن به حكام الشيوعية وزعماؤها ؟ أم أن الحقيقة هى أن هؤلاء قد كانوا طرازاً خاصاً فيما قدموه للانسان من ذل وظلم واستعباد ؟

يزعم الشيوعيون أنهم ما بذلوا كل ما بذلوا من كفاح وما حشدوا كل ما حشدوا من طاقات إلا من أجل إنصاف العامل ، ورد اعتباره فى دولة العمال .

وما العمل إلا القيمة الحقيقية للوقائع والأشياء .

فهل تحققت دكتاتورية العمال لدولتهم الخالية من الطبقية . فقبض العامل على زمام الحكم ، وأصبح مهيمناً على قوى الإنتاج كما كان أقطاب الشيوعية يحلمون ؟

إن ما سبق بيانه قبل قليل عن واقع الفرد الشيوعى أياً كان موقعه المادى والأدبى ، لاسيما إذا كان قد حرم شرف الانتماء إلى الحزب يوضح لنا جانباً لا بأس به من الإجابة عن مثل هذا التساؤل .

ويكفى هنا إضافة إلى ما سبق القول بأن العامل فى البلاد الشيوعية يعد مجرد وسيلة من وسائل الإنتاج يتحرك بحركة المصانع والماكينات ، أو يدور معها حيث تدور ، ويقف معها حيث تتوقف .

فكيف يتحدث المرء عن نوع من الحريات لمثل هذا الكائن الذى فقد كل إحساس بكل معنى للحرية ؟

فلا حق له كإنسان أن يضيق بالعمل أو يتبرم من المصنع الذى يرتبط مصيره به ، لجزاء مثل هذا الضيق أو التبرم مع أنه لا يمكن أن يحسب فى عداد

الجرائم إلا فى حساب الشياطين أو المجانين ، جزاؤه السجن أو النفى ، أو التعذيب أو القتل .

وللتأخر عن العمل بعذر أو بغير عذر لمدة نصف ساعة عقابه وللتستر على هذا التأخير لمدة ثلث ساعة من قبل رئيس أو رقيب عقابه كذلك. فهذه وتلك جريمة تستوجب العقاب فى شريعة دعاة الحرية والإنصاف .

فليست حرية العامل على أى نحو مكفولة ، لا حريتـه الفكرية ، ولا حريته الخاصة ، ولا حرية انتقاله من مكان إلى مكان دون إذن من الدولة ، ولا حريته فى اختيار عمل .

ففى سنة ١٩٣٠ م صدر قانون يقضى بربط العمال بمصانعهم ، وألا يغادروها إلا بإذن خاص .

وصدر قانون آخر سنة ١٩٣٩ يقضى بعقاب كل عامل يتأخر عن عمله نصف ساعة . وعقابه — كما ينص القانون — السجن أو التسخير .

ويعاقب القانون كل من يعطف على عامل تأخر عن موعد العمل ثلث ساعة كأن لم يبلغ أو ستر أمره أو تغاضى عنه أقسى عقاب . ويسمى القانون العمال المتأخرين دقائق عن الموعد : « مجرمى التأخير » والمتعاطفين معهم : « مجرمى التستر » .

ونادراً ما يحصل العامل على أجازة ولا بد أن يكون انتقاله معلوماً وإلا فالعقاب الأليم[1] .

هذا هو كيان العامل ونصيبه من الحرية فى دولة البروليتاريا (الطبقة العاملة) .

---

(١) انظر الشيوعية والإسلام عباس العقاد ـ أحمد عطار .

وليس العالم أو المفكر أو الأديب أو الفنان أو غير هذا وذاك من أصحاب الأعمال المادية أو الذهنية بأوفر حظاً فى تمتعه بالحرية فى عمله أو فكره أو عقيدته ، فليس فى وسع واحد من هؤلاء أن يقارع اتجاهاً أو رأياً أو عقيدة للدولة بإنتاجه أو ابتكاره ، فإنه والحالة هذه لن يظفر إلا بالاضطهاد وأشد أنواع العقاب ، وأقل ما يمكن أن يرمى به من التهم هو الخيانة للثورة ومبادىء ماركس ورفاقه .

ولعل ما يصور لنا حقيقة المهانة والعبودية التى يعانيها المواطن الشيوعى أياً كان وضعه الاجتماعى مثل ذلك النص لأحد كبار المهندسين الشيوعيين الذين ساهموا فى بناء صرح الصناعة فى روسيا من كتابه الذى ألفه ليفضح فيه مخازى حكامه وأساليبهم البربرية وقد أطلق على كتابه هذا . . آثرت الحرية . .

فقد كان الكتاب ثورة على كل ألوان العبودية ، وعلى ذلك الحرمان القاتل من نعمة الحرية فى بلاده التى ما أن أتيحت له فرصة الهرب من أسوارها البغيضة حتى لجأ إلى الولايات المتحدة ، ليصبح قادراً على مجرد التعبير عن ما لم يقدر على مجرد التفكير فيه تحت سطوة الطواغيت الشيوعية ، فها هو ذا يقول بعد مشاهدته بعض ما يحدث فى المزارع الجماعية :

بدأت فى طوية نفسى وثنايا ضميرى ، فكرة أن أعتزل الحزب ، فالمفازع التى شهدتها فى الريف تركت فى نفسى جروحاً هيهات أن تندمل .

ومع ذلك فلهذا السبب عينه أخذ عقلى الواعى يتلمس تلمس اليأس طريقاً يهادن به ضميرى . وما أحسب أن قد كان أمامى طريق آخر فى ظروف تحتم عليك إذا أردت أن تعيش أن تذعن للأمر الواقع الذى لم يكن منه مهرب لهارب .

إنه ليس فى مقدور إنسان أن يترك الحزب حين يشاء ، بل ليس فى مقدور إنسان أن يتراخى فى نشاطه إزاء الحزب . أو أن يبدى من الأمارات ما ينم عن ضعف إيمانه به .

فإذا ما التحق إنسان بالحزب فقد وقع فى الفخ إلى الأبد .

نعم يجوز للحزب أن يطرده ويكون معنى ذلك أن تنزل به الكوارث ، لكن ليس فى وسعه هو أن يتنحى منشقاً عليه .

فلو كنت أظهرت ما يدور فى صدرى من عواطف على حقيقتها لكانت النتيجة إبعادى عن المدرسة ووصمى بالعار وتعقبى بألوان الاضطهاد . بل ربما كانت النتيجة المحتومة أن يزج بى فى معسكرات الاعتقال أو ما هو شر من ذلك وبالا .

كان لزاماً على أن أكتم عواطفى بين جوانحى . كان لزاماً على أن أدسها دساً فى أعماق فؤادى ، هذا إلى ما بذلته جاهداً أن أستميد للحزب ولائى .

فلئن كان ذلك ضرورة فى الظروف المعتادة . لقد كان عندئذ أشد ضرورة لأن حركة التطهير قد نشرت قلاعها للريح .

عينت مئات من لجان التطهير ، ولم يكن ليمضى طويل وقت قبل أن تعقد تلك اللجان اجتماعاتها العلنية فى المصانع والمكاتب ودور الحكومة والمعاهد .

وكان على كل شيوعى فى البلاد أن يذعن لما يطالب به من محاكمة واعتراف .

واشتد شعورنا عندئذ بأننا محاطون من كل جانب بالعيون الرواصد والآذان المنصتة تلك العيون والآذان التى تخفى عن النظر ، لكنك تحس وجودها فى كل مكان .

وكذلك اشتد شعورنا بالأضابير الضخمة التى سجلت فى أوراقها دخائل حياتنا الخاصة ، ومكنون أفكارنا ، وبأعدائنا الذين قد ينتهزون الفرصة ، فيبرزون ما لنا من سقطات ، ماهو حقيق منها وما هو من نسيج الخيال . . .

ثم قال : ولم يكن أحد من الشيوعيين ليخطر قبل محاكمته بالتهم التى يكون فى النية توجيهها إليه ، فكانت هذه القلقلة أشد ما يحرج الصدر من عناصر المأساة .

إذ كان عليك أن تتحسس طريقك فى الظلام لتكون على أهبة لما عسى أن يفجأك من مباغتات فتستعرض ماضيك مرة بعد مرة متسائلا : ترى من أين يأتى الخطر ؟

ألم يحدث مرة أنك أفرطت فى الحديث ذات مساء منذ ثلاثة أعوام مدفوعاً فى حديثك بما بعثته روح الزمالة فى نفسك من طمأنينة ؟

فقد يكون واحد من هؤلاء الزملاء - الذين ركنت إلى حسن طويتهم - وشى بك منبئاً بما أفرطت به من ملاحظات .

وطبيعى أن تكون أنوف الشرطة السرية والعلنية هى القوائم التى يعتمد عليها هذا النظام .

وتلك حال يلتفى معها الأمان وتتلاشى الطمأنينة ، فنصف الأمة جاسوس على نصفها الآخر ويكفى أن يتنفس امرؤ بكلمة لا تعجب حتى تحسب عليه وربما تكون القاضية .

وقد تستغل عثرة العاثر أو حاجة المحتاج ليكون عيناً على من حوله وإلا فالويل له[1] .

وهناك دائماً آلاف الوسائل فى حوزة الشيوعيين للقضاء على الحريات بجميع أنواعها .

وها نحن أولاء نرى من خلال هـذه الصورة التى عرضناها فى مقالنا هذا عرضاً سريعاً أنهم قد حولوا شعوبهم إلى قطيع من الرقيق .

نعم رقيق بكل ما تحمله كلمة الرق من معنى ، فالفرد من العامة فى الدولة الشيوعية وما ملكت يداه لسيده ، وليت له شىء تملكه يداه ، بل إنه هو بذاته ضمن الأشياء التى تمر فى حساب الأرقام لصالح العمل والإنتاج دون اعتبار لإنسانيته ، حتى السادة أنفسهم من الحكام وأعضاء الحزب ما هم فى النهاية وفى التحليل الدقيق إلا صنف من رقيق الشهوات

---

(١) راجع الإسلام فى وجه الزحف الأحمر للشيخ محمد الغزالى .

والغرائز وعبيد الضرورات المادية ، يسخرون فى سبيلها علومهم ومناهجهم ليستخلصوها من قبضة الطبيعة ، أو يجندون لها شتى أساليب العنف والخديعة والانقلابات ليحرروها كما — يزعمون — من أيدى المستغلين .

فكل هؤلاء وأولئك من الشيوعيين أعنى حكاماً أو محكومين متسلطين أو مقهورين ، ما هم إلا صنف من البشر يجندون أنفسهم بالحق أو بالباطل لخدمة ما يسمونه بالحتميات التاريخية التى يفرضها الديالكتيك على مسار التاريخ وحركة العالم دون أن ينجو من سلطانه هذا ، الإنسان ذلك الكائن الذى يتخلى عن حريته واستقلاله الفطريين ، بل يتخلى عن دوره العظيم على مسرح التاريخ ، يخلى المكان للحتميات الديالكتيكية ، وللتنبؤات الماركسية التى حدد بها مصير العالم والإنسان .

وما كشف التاريخ نفسه إلا عن كذب هذه التنبؤات . وما أثبتت الأيام إلا وهم ماركس وشططه العقلى ، فلم تبدأ الشيوعية فى بلد متقدم ولم يتحرر العامل من قيود الذل والاستغلال ولم يتحقق حتى الآن ، ولا يبدو أنه متحقق فى المستقبل المنظور أو غير المنظور شىء من النعيم أو الرفاهية أو العدالة ، ولم تلغ الأسرة أو الطبقية ولا الملكية . وإن ظلت الأخيرة حكراً على الحكام والمنتمين إلى الحزب الذين يكونون طبقة اجتماعية تتمتع بكل ما تتمتع به الطبقات الرأسمالية والإقطاعية من امتيازات اجتماعية وتسلط ، بل هى أسوأ ما فى هذا الباب من كل ما عرف التاريخ من طبقية وتميز .

وماذا عن حتمية الصراع الطبقى الذى جعــــل منه كارل ماركس ومريدوه المحور الذى تدور حوله حركة التاريخ فى سيره وتطوره ؟

هل انتهى حقاً هذا الصراع النهاية التى قضى بها ماركس على رحلة التاريخ حيث تمخض عن انتصار العمال ودولتهم على دولة رأس المال ؟

إن الواقع يثبت الآن تخلف هذه الحتمية كغيرها إذ يقوم الصراع بين روسيا والصين قطبي المعسكر الشيوعى .

وهاهما المعسكران الشيوعى والرأسمالى يعيشان الآن مرحلة من الوفاق الدولى والتقارب السلمى . وأصبح رأس المال الأمريكى يلعب دوراً هاما فى الاقتصاد الروسى .

وهاهى الولايات المتحدة تتفوق فى علوم الفضاء والوصول إلى القمر ، على الاتحاد السوفييتى ، وينعم الفرد فى الدول الرأسمالية بكل معطيات العلم والعصر من التحضر والرفاهية والحرية ، بينما يحرم من كل ذلك الفرد فى الدول الشيوعية ، اللهم إلا إذا كان من طبقة البروليتاريا المتميزة التى لاتكون عامة المواطنين فى هذه البلاد ، وإنما تكون أقلية بالنسبة إلى سواد الشعب .

وإذن فقد كذبت كل نبوءات ماركس وحساباته عن مسيرة التاريخ الإنسانى وعن مستقبل الإنسان بوجه خاص ، وكان من أبرز هذه الأكاذيب أكذوبة الحرية التى أفرغت من كل مفهوم صحيح أو غير صحيح للحرية .

الحرية نشاط إنسانى :

والمفهوم الحق الذى تتلاق عنده كل الآراء الراشدة للحرية ، هو ما يجب أن يتلاءم مع طبيعة الإنسان ودوره الريادى فى رحلته مع الحياة .

والإنسان هو الكائن الذى يملك كل مؤهلات هذه المهمة الخطيرة متمثلة فى وعيه وإرادته وسائر طاقاته وملكاته ، العقلية والنفسية ، والجسمية مما جعله يضطلع بمهمة الترشيد لحركة الحياة والتوجيه لعناصر الوجود على ظهر هذه البسيطة ، نحو كل ما هو خير وحق . وعلى قدر مسئوليته عن تنفيذ المهمة وعن مدى نجاحه أو إخفاقه فى هذا الدور كان نصيبه من الحرية وكان حجم هذه الحرية الذى لا يجوز أن يتضاءل حتى تصبح الحرية وهماً أو نمطاً من أنماط الجبر ، فيصبح الإنسان مجرد سجين أو أسير للحتميات والضرورات كما هو تصور الماركسيين لحظ الإنسان من الحرية . فيما يؤكد واقعهم وحياتهم .

ولا يجوز كذلك بنفس الدرجة أن يتفاقم حجم الحرية ويتضخم ، حتى تنحرف بالإنسان عن مسارها وتحيد به عن اتجاهها نحو الحق والخير ، ومن ثم يتجاوز الإنسان إطار الحقوق والواجبات التى تكون حدودها وعلاقتها بحرية الآخرين من بنى الإنسان .

وحينئذ تنقلب الحرية إلى فوضى قد لا تبقى على حق ولا تعتبر واجباً ولا تتجه إلا إلى مجرد المتع الشخصية واللذة الحسية ، بغض النظر عن استهداف الحق المطلق والخير العام . والحرية على هذا النحو الهمجى تصبح وسيلة للتدمير سواء بالنسبة لصاحبها أو بالنسبة للآخرين .

والتردى فى هذا المفهوم الخطأ للحرية على هذا النحو أو ذاك نابع

من تلك الفلسفات والمذاهب التى تنظر إلى الوجود بمنظار المادة والحس ، فى المقام الأول ، أو تنكر الجوانب الروحية فيه إنكاراً تاماً .

الحرية الإسلامية :

ولهذا كان منهج الإسلام هو المنهج المثالى فى تحديد مفهوم الحرية التى يتمتع بها أبناء مجتمعه وترسيخ مقوماتها وتوفير كل ما يبقى عليها كمصدر قوة للمسلم من ضمانات .

والفاهم لحقيقة الإسلام فى تشريعاته ومبادئه وتاريخ أمته لا يخالجه تردد فى القول : بأنه قد كفل الحرية والاستقلال لأبنائه فى القول والعمل والفكر والحكم والاعتقاد . وذلك فى غير جبر ولا تحلل ، وإنما هى الوسطية والاعتدال وهما أبرز خصائص المنهج الإسلامى فى كل معالجاته للمشكلات المختلفة التى تصدى لعلاجها فى نظامه المتكامل . ولعل حجر الزاوية فى بناء الحرية الإسلامية هو حرية العقيدة ، حيث حرر الإسلام روح المسلم وطهر وجدانه من قيود العبودية وأضران الخضوع لأية قوة مهما كان حجمها ، ولأى سلطان مهما كان أثره وخطره غير قوة واحدة وسلطان واحد هى قوة وهو سلطان الله الخالق الحقيقى لهذا الوجود بسننه وقوانينه ، وهو الذى يجب أن يفرد بالعبادة والخضوع ، أطلق الإسلام بهذه العقيدة روح المسلم من عقالها التى طالما شدها إلى أوحال المادة وذل الوثنية وظلام الجهل ، فانطلق المسلم بعد هذه البداية حراً عزيزاً لا يخاف شيئاً ولا يرهب أحداً ، ولا يذل لمخلوق يتساوى معه فى الخضوع لسلطان الخالق ومشيئته ، ومن أقوى الضمانات لحرية المسلم فى مواقفه وعلاقاته بما ومن حوله

من عناصر الوجود ، وهى الضمانات المستمدة من عقيدته أنه يسلم أموره وشئونه كلها لله فيما يتعلق بنتائج سعيه وثمرات سعيه وغايات سلوكه .

فالنفع والضر ، والحياة والموت ، والنجاح والفشل ، والسعادة والشقاء ، والرزق سعة وضيقاً ، كل هذه الأمور وغيرها مما يستقطب همة الإنسان ويهيمن على إرادته ويستنفد قوته فى الحياة ، ويسلمه إلى الاستكانة وذل الحاجة للآخرين ، كل هذه الأمور يكلها المسلم إلى ربه ومالك أمره « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المتوكلون »[١] .

واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، واعلم بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك) .

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو » وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم »[٢]. « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها »[٣] الآية . « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »[٤] . . . « وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون »[٥] .

---

(١) سورة التوبة الآية : ٥١ .　(٢) سورة يونس الآية : ١٠٧ .
(٣) سورة هود الآية : ٦ .　(٤) سورة الذاريات الآية : ٥٨ .
(٥) سورة آل عمران الآية : ٨٣ .

هكذا يقـرر الإسلام أن عقيدة المسلم يجب أن تدور حول تمام العبودية لله ، وفى تمام العبودية له سبحانه تمام الحرية والقوة للمسلم ، لأنه إذ يستسلم ويفوض كل أمره لخالقه فيما يتعلق بالنتائج والغايات ، فإنه فى مجال التكليف والتزام الأخذ بالأسباب يملك إرادته الحرة ووعيه الكامل ، ومسئوليته اليقظة فى كل ما يختار وفى كل ما يدع ، وفى كل ما يترك ، وهى حرية موجهة إلى كل ما يرضى الله ويحظى بقبوله من غايات الخير والحق كما أشرنا من قبل عند تناولنا لما ينبغى أن يكون عليه مفهوم الحرية الصحيح ، ولذلك فإن المسلم يمارس هـذه الحرية ممارسة كاملة فى حدود هذا المفهوم الصحيح الذى ينمو خـــلال هذه الحركة فى إطار الحقوق والواجبات الدينية التى جعلها الله ضمانا لحريات الآخرين فى علاقاتهم الاجتماعية والشخصية بالمسلم . من واقع مسئولية الجميع عن معرفة حدود الله واحترامها .

وليس فى تشريعات الله وأحكامه ، إلا كل ما يدفع حركة الإنسان والحياة جميعها إلى الحق والخير .

وهذه القـوة الكامنة فى تشريعات الله الدافعـة للمسلم نحو هـذه الغاية العليا إنما تستمد فاعليتها من الشعور الفطرى للانسان بمسئوليته الدينيـة والخلقية إزاء تنفيـذ هـــذه الأحكام استجابة لمقتضى أمر الله ونهيـه .

ومن هنا لم يكن الإنسان فى معيار الإسلام مجبراً ولا مسـوقاً بالقسر والإكراه ، وإنما اقتضت هذه المسئولية الدينية عن رعاية الحلال والحرام والالتزامات الواجبة والممتنعة — أن يكون صاحبها حراً حائزاً

لإرادة وتصميم يختار بها بين البدائل ويرجح بها والأوفق لمصلحته ومصالح أمته فى رقابة الضمير الساهر على حراسة هذه الإرادة الحرة .

« إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً »[١] . . « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[٢] وهذا هو ما أراده النبي ﷺ فى قوله : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى » .

ولا تتصادم نظرية الحرية الانسانية فى الإسلام مع الاعتقاد الجازم بعموم المشيئة الإلهية وإحاطة علم الله وشموله .

فما زود به الإنسان من إرادة ووعى وغير ذلك من الطاقات والملكات التى تجعله خليقاً بالمسئولية إنما هو من مقدورات الله وخلقه ومقتضى مشيئته ، لكن الله ترك للانسان أن يقرر ويختار بين ما حدده له من واجبات ومحرمات . .

أما نتائج القرارات الإنسانية وخروجها إلى الواقع فإنما هو بمشيئة الله وقدرته وهذا هو معنى قولهم : (لا يقع فى ملكه إلا ما يريد) وهو معنى الأثر القائل : (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن) .

الإنسان يملك إذن حرية اتخاذ القرار لما هو بصدد فعله أو تركه ، والوقوع الفعلى للحدث هو دور القدرة والمشيئة الإلهية على الحقيقة ، ودور الإنسان هنا دور مجازى ، والمسئولية والثواب والعقاب منوطة

---

(١) سورة الإنسان الآية : ٣ .

(٢) سورة الكهف الآية : ٢٩ .

بهذا القرار الداخلى للانسان قرار الإرادة أو النية أو التصميم على الحقيقة ، ومنوطة بدوره فى وقوع الفعل على المجاز ، وهذا يفسر لنا أن الإنسان كثيراً ما يحول الله بينه وبين وقوع فعله وتنفيذ قراره ، « ولو شاء ربك مافعلوه »[١] . . . « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله »[٢] وكل ذلك لا يخرج عن علم الله الأزلى ، ولذلك كان الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره جزءاً من إيمان المسلم وعقيدته الثابتة .

دون أن يرى المسلم جريان القضاء الإلهى فى نطاق حريته المكفولة له .

وفرق المسلم بين ما أراده الله منه من التكاليف التى تدخل فى نطاق إرادته وحريته ، وبين ما أراده الله به مما لا سلطان له عليه باعتباره كائناً محدود الإرادة والحرية كهذه الأفعال والصفات والأوضاع الاضطرارية التى تنتج طوراً عن الظروف المحيطة بحياته ، والقوانين والسنن التى أقام الله عليها نظام كونه ، وتنتج طوراً آخر عن عدم توفيقه ونجاحه حسبما تقتضيه حكمة الله « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » الآية[٣] . . . « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »[٤] .

---

(١) سورة الأنعام .

(٢) سورة الإنسان الآية : ٣١ .

(٣) سورة القصص الآية : ٦٨ .

(٤) سورة الأحزاب الآية : ٣٦ .

الحرية من دعائم المجتمع الإسلامى :

وتنعكس هذه الخصوبة الروحية والفكرية لنظرية الحرية فى الإسلام على الواقع الاجتماعى وتستوعب سائر جوانب الحياة للجماعة المسلمة .

واستقصاء الأمثلة ما يتعارض مع ما التزمناه من الشمولية النسبية فى بحثنا ، وحسبنا أن ندرك بعض مظاهر الحرية ماثلة فى مبدأ الشورى الذى يقوم عليه نظام الحكم فى مجتمع الإسلام ، وهو ما يحقق مناخاً طيباً للآراء الحرة فى توجيه دفة السياسة دون أن يتعرض لأعاصير التحكم والاستبداد .

ومن هنا كان من حق المسلمين أن يعارضوا أو يقاوموا أحكامهم فى خروجهم عن حدود الله أو إرغامهم للرعية على ما يفضى إلى انحراف أو فساد أو معصية لله .

ويواجه أحدهم النبى ﷺ وهو يوزع بعض أموال الفىء أو الغنائم فيقول له : اعدل يا محمد ، فليس المال مالك ولا مال أبيك . ولم يزد النبى ﷺ فى الرد عليه (ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل ؟) ويحذر من يتصدى لنهره من كبار الصحابة .

ويقسم آخر أن يقوم عمر بالسيف إن رأى فيه اعوجاجاً فى الحكم أو زيغاً فى العدل .

وتراجع امرأة عمر فى واقعة المغالاة فى المهور ، ويعترف بخطأه وصوابها .

وظل المجتمع الإسلامى قوة ينحنى التاريخ أمام حجمها وجلالها حين كانت الجماعة الإسلامية تنعم بهذه الحرية النموذجية فى مجال

السياسة والحكم أما حق العمل وحق التملك وحق التعبير والرأى المنبثق من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو من مميزات الجماعة المسلمة ، وحق الفكر والكتابة والتدوين الذى لا حجر فيه على منهج أو اتجاه ، وغير ذلك من الحقوق الكثيرة التى يقوم عليها نظام الأسرة والمال وغيرهما من النظم وكلها حقوق مكفولة دون أن تصطدم بواجبات أو تتجاوز حدوداً ما يوفر للمجتمع الإسلامى عند مراعاتها والاعتزاز بها كل مقومات القوة والاستقرار ، ولا يقاس رقى المجتمعات وتقدمها بأفضل مما يقاس بما تحظى به من حريات وما يرعى فيها من حقوق .

الماركسية ونظام الأسرة

كان من المنطقى فى تصور أصحاب الجدلية المادية أن يرفضوا الإبقاء على نظام الأسرة الذى قامت عليه بنيات المجتمعات الإنسانية فى شتى أشكالها منذ أقدم عصور التاريخ ؛ لأن القضاء على نظام الأسرة إحدى الضرورات الجدلية ، إذ يقضى مبدأ النقيض المستوعب لحركة التاريخ والذى يأتى على كل الأنظمة الاجتماعية — بالتحويل من حال إلى حال والتغيير من وضع إلى وضع .

ولم يكن نظام الأسرة ليستعصى عن اضطراد هذا القانون ، ولهذا أخذ الشيوعيون ابتداء من ماركس ، يبذلون قصارى الجهود من أجل تقويض هذا النظام الاجتماعى الذى احترمته كل الأديان والمذاهب الاجتماعية .

تبريرات فاسدة :

وما أكثر تبريراتهم لموقفهم هذا من الأسرة ، وقد اعتبروها أحد عوائق التقدم الاجتماعى لأنها شكل من أشكال القيد على حرية المرأة ، ومظهر من مظاهر تسلط الرجل عليها وتحكمه فى شخصيتها .

ووظيفة الأسرة التربوية واضطلاع الأبوين بتنشئة وتربية الأبناء ما هو إلا انصراف منهما عن مهمتهما الأساسية ، وهى إفراغ

الجهد وتكديس كل الإمكانات للعمل والإنتاج للنهوض باقتصاد المجتمع .

ومن ثم وكل الشيوعيون أمر تربية الأبناء إلى الدولة ؛ لأن النظام الاشتراكى يمنع أن يكون هناك حق خاص مكفول للفرد ، ولو كان هذا الحق هو امتلاكه لذاته واستقلاله واستحواذه لحريته .

فالفرد وحريته ملك للدولة ، ولا حق له حتى فى تربية أبنائه .

وقد تضمن هذه الحقيقة قول ماركس فى هذا الصدد :

(حين يقول الولدان : هـــذا ابنى وتلك ابنتى لا تعنى هذه الكلمات وجود آصرة أبوية فحسب ، بل توحى بأن للأبوين حقاً فى تربية أولادهم من وجهة نظرهم كما يريدون والاشتراكية تأبى هذا الإقرار بهذا الحق للآباء ؛ لأن الفرد ليس ملكا لنفسه ، ولكنه ملك للجماعة)[1] .

ومن التبريرات الماركسية لدعوتهم إلى الانقلاب فى نظام الأسرة أنه نظام يحد من ظاهرة الحب والوئام التى ينبغى أن تسود المجتمع فى أوسع نطاق ، إذ تحصر الأسرة نطاق الحب فى دائرة أفرادها قل عددهم أو أكثر ، ومهما كثر عدد أفرادها فلن يتجاوز العشرات على أحسن التقديرات .

---

(١) حقيقة الشيوعية ـ على أدهم .

ثم إن الأسرة فى تبريراتهم أيضاً تعد أداة تشجيع على الادخار والاكتناز ، وهو ما يستتبع الحد من تداول المدهر من السلع والأموال . وهى كذلك مدعاة لتقوية النزعة الفردية ، وحماية الملكية الخاصة ، بل إن الشيوعيين ليزعمون أن الحياة الأسرية قد نشأت نتيجة لظهور فكرة الملكية الفردية لوسائل الإنتاج .

حيث كونت الأسرة حينئذ وحدة اجتماعية تعين على حسن استغلال الوسيلة المملوكة للإنتاج ، وأن الإنسانية قد عاشت فى عصورها الأولى نمطاً من الفوضى والمشاعية الجنسية ، وأن الإنسانية لا محالة صائرة — أو ينبغى أن تصير — إلى هذه الفوضى ، والمشاعية الجنسية يوم أن تحقق الشيوعية الملكية الجماعية ، وتتغير الأنماط ، والأشكال الاجتماعية ، ومنها الأسرة ، ويومها تتحرر المرأة من استغلال الرجل ولن تكون علاقاتها بالرجل إلا على أساس ما يسمى بالمعاشرة الحرة التى هى الزواج المشترك ، وهو الزواج الذى تكون الزوجة فيه زوجة لأكثر من رجل واحد[1] .

وهو الأمر الذى دعت إليه الماركسية ، على لسان واضعها الأول كارل ماركس الذى رأى أن أخذه بمبدأ المشاعية الجنسية فى العلاقة بين الرجل والمرأة على نحو ماسبق ، أو على نحو أبعد منه بحيث يكون الاستمتاع حقاً مشاعاً بين جميع الرجال والنساء فى المجتمع بدون قيود ولا حدود اللهم إلا توفر الرضا والموافقة .

---

(١) انظر حوار مع الشيوعيين ، لعبد الحليم خفاجى .

أقول : رأى ماركس فى الأخذ بهذا المبدأ ، والدعوة أنه أكثر شجاعة وصراحة من البرجوازيين الذين يبيحونه دون أن يملكوا هذا القدر من الشجاعة فى التصريح بذلك ، وهاهو يقول :

(إن البرجوازيين يتهموننا معشر الشيوعيين بأننا نريد شيوع المرأة .

إن البرجوازى يرى فى زوجته مجرد أداة للانتاج ، وهو يسمع أننا سنحول أدوات الإنتاج إلى ملكية شائعة ، فيصل بالطبع إلى نتيجة واحدة بالنسبة للنساء ، وهو أنه ستسرى عليهن أيضاً نظام الشيوع ، ولا يخطر له ببال أننا نريد أن نحوو دون جعل النساء مجرد أدوات للانتاج .

أما فيما عدا ذلك فمن أكبر المضحكات أن سخط البورجوازية مايزعمونه من أننا نريد إعلان شيوع المرأة رسمياً .

فإن الشيوعيين لا حاجة لهم بابتداع شـــيوع المرأة ؛ لأن هذا الشيوع حاصل فعلا من مدد مديدة ، وغاية ما يمكنهم اتهامنا به أننا نريد أن نستبدل بشيوع المرأة المستتر وراء النفاق شيوعاً علنياً مشروعاً)[1] .

---

(١) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر ـ محمد الغزالى ص ٤٤ .
والمذاهب المعاصرة ، وموقف الإسلام منها ـ عبد الرحمن عميرة ص ١٧١ .

فالمشاعية العلنية فى العلاقات الجنسية من الرجال والنساء ، والتسافد الحيوانى الفاضح بينهم هو ما يفضـــله ماركس ، وما يراه متفقاً مع مبدأ حرية المرأة ، ومبدأ الملكية الجماعية ، والقضاء عـلى النظام الطبقى .

وهو ما يتفق كذلك مع اعتبار الأطفال الذين هم نتاج لتلك العمليات الجنسية الفوضوية أبناء للدولة عـلى الحقيقة لا عـلى المجاز ، وهذه الانتكاسة الشيوعية تجعل من الأطفال مجرد قطعان من الحيوانات التى لا تتمتع بالانتماء إلى أب معين ، وإنما تتميز بالانتماء إلى أجناسها ، ومع أن الدولة تتكفل برعايتهم فيما يشبه الحظائر الحيوانية ، وفى عزلة عن حضن الأم ودفئها وحنانها ، فإنه لا مانع من أن يشارك الأب ، أو الآباء فى الإنفاق على الابن ، أو الأبناء إذا كان لهم آباء محددون ، وإلى جانب المشاعية الجنسية ، أو المعاشرة الحرة — كما يحلو أن يسموها — هناك نظام هش للزواج الرسمى الذى تختص فيـه زوجة بزوجها ، ولا يتوقف هـذا الزواج عـــلى شاهـدين ، أو ولى ، أو إعلان .

وإنما حسب الشاب المتجاوز الثامنة عشرة من عمره أن يذهب إلى أحد المختصين بإنجـاز الزواج ، ويحصل منه عـلى استمارة خاصة يسجل فيها اسمه ورغبته واسم من يختارها زوجة له .

أما شأن الطلاق فهو أكثر يسراً وسهولة من هـذا الزواج ، فلأحد الزوجين أن يطلق الآخر دون عـلم الآخر أو رضاه عندما

يقرر ذلك ، الأمر الذى أفضى إلى كثرة وقوعه ، إلى حد أن مرات زواج وطلاق الشخص الواحد قد تصل إلى ٣٦ مرة ، وفى سنة ١٩٣٦م بلغت نسبة الطلاق أكثر من ٥٠٪ من حالات الزواج[١] .

وفى عودة الشيوعية إلى نظام الأسرة منذ عام ١٩٣٥ — أى بعد مرور أقل من عشرين عاماً على قيام الثورة الحمراء — فى عودتها إلى نظام الأسرة منذ هذا الحين — وتقييد إجراءات الزواج والطلاق بلاشك يعد تخلف لإحدى نتائج المادية الجدلية ، وتكذيب لواحدة من نبوءات أئمتهم ، وبخاصة ماركس وإنجلز .

ولا يعنينا فى قليل أو كثير أن يزعموا أنه لم يحن الوقت بعد لتهيىء الشعب نفسياً وعقدياً لاستيعاب مثل هذه القيم الجديدة . الأمر التى يجب أن يؤجل من حيث التطبيق والممارسة حتى تنتهى مرحلة الاشتراكى ، ويتسنى التطبيق التام للشيوعية .

والواقع أن الشيوعيين ماعادوا إلى الاعتراف بالأسرة وأسسها وقيمها ولو كانت فى أضيق الحدود إلا عندما أدركوا ما ترتب من المفاسد الاجتماعية والاقتصادية على نظام المعاشرة الاختيارية الذى هو تصفية للأسرة حقيقة ، فقد كثرت حالات الإجهاض وتفاقم خطرها وانتشرت بين الشباب الأمراض السرية ، مما انعكس على سير العمل ونظام الإنتاج بالآثار السلبية . وسيظل الواقع دائماً يكشف عن تفهاتهم ، ويكذب نبوءاتهم الواحدة تلو الأخرى .

ولإن كانوا يبررون هذا التراجع من قبلهم إلى احترام الحياة

(١) انظر أسس المجتمع الإسلامى والمجتمع الشيوعى ، د/ زيدان عبد الباقى ص ٥٠ .

الأسرية بهذا الهراء ؛ فذلك لأنهم قد أعماهم التعصب لأباطيل زعمائهم فطفقوا يلتمسون مختلف المعاذير ويجهدون أنفسهم فى شتى التأويلات لأقوال أئمتهم وآرائهم ونبوءاتهم كلما تصادمت مع الواقع وفندتها الأحداث . فالعيب دائما فى الشعب والأفراد ، وما قاله إنجلز مثلا حتمى الوقوع .

فقد تنبأ باختفاء الحياة الأسرية حينما تختفى أسبابها فى المستقبل القريب أو البعيد من علاقات الإنتاج الرأسمالية والملكية الخاصة ، وغير ذلك من الأسباب ، مقراً وفقا للعقيدة الجدلية أن ما تصير إليه الأسرة من حال المشاعية هو الأفضل ، فها هو يقول :

(وما نستطيع استنتاجه حالياً عن تنظيم العلاقات الجنسية بعد تصفية علاقات الإنتاج الرأسمالى يعتبر استنتاجاً ذا طابع سلبى يحدد ما سيختفى من الزواج ، ولكن ما الذى سيزيد على الزواج ، هذا هو ما سيستقر بعد نمو جيل جديد ، جيل من الرجال لم تسنح الفرص أن يشترى استسلام امرأة سواء بالمال أو بأية وسيلة أخرى من وسائل السيطرة الاجتماعية .

وجيل من النساء لم يضطررن أبداً للاستسلام لأى رجل رجل لأى سبب سوى الحب الحقيقى ، ولن تخاف المرأة حينئذ أن تمنح نفسها لمن تحب خشية النتائج الاجتماعية ، وعندما يظهر هذا الجيل فإنه لن يهتم أبداً بما نعتقد اليوم بأنه يجب عليه عمله ، فسيتبع طريقه الخاص وسيكون له رأيه الخاص بدون اكتراث بما نعتقد)[1] .

---

(١) أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة لإنجلز ، ترجمة أحمد عز العرب ص ٧٩ ، وانظر فى الاشتراكية العربية ، ماركس يدحض الماركسية د/صلاح مخيمر

وإذا كانت الأسرة هى مصدر توريث الصفات والمبادىء بحكم عوامل الوراثة الطبيعية ، بقدر ما هى توريث للأموال والعقارات ، فإن فى إنهيار نظامها حسب زعم الماركسيين علاجاً لما قد يورث من الأدواء والعلل الخلقية والجسمية للأفراد . وعلاجاً لكثير من المشكلات الاجتماعية التى تنتج عن ميراث الأموال والعقارات ، من البطالة والإحجام عن واجب العمل وتعطيل الطاقة الإنتاجية كما وكيفاً ، فضلا عن أن كل ما يمكن حصول الأفراد عليه من مال بميراث أو غيره هو فى الحقيقة ملك الدولة .

هذه هى بعض التبريرات أو الأسباب التى فسر بها الماركسيون وشرحوا حكمهم على الحياة الأسرية فى المجتمع الشيوعى إن عاجلا أو آجلا .

والحق أن حكمهم هذا على مثل هذا النظام لا يثير من فهم دخيلة نفوسهم ، ومن عرف أن سلاحهم فى التهجم على كل المواريث المقدسة للانسانية من أنظمة المدنية والحضارة ليس إلا الحقد والتعصب على حساب الواقع الحى والأمانة العلمية .

فلا يستطيع أن ينكر دور الأسرة الفعال بكل ما للفعالية من معنى فى بناء المجتمعات والمدنيات ، ولم يكن أثرها على مكانة الإنسان بصفة عامة فى الحياة بأقل من أثر غيرها من النظم والأشكال الحضارية الأخرى التى ساهمت فى صياغة إنسانيته وبناء شخصيته .

الإسلام يرعى نظام الأسرة :

وأبرز هذه الآثار الإيجابية ما يختص بجانب المرأة باعتبارها أولى

الدعامات التى يقوم عليها بناء الأسرة وبخاصة فى المجتمع الإسلامى الذى نخصه فى بحثنا هذا بالموازنة بينه وبين الشيوعية عقيدة ومنهج إصلاح اجتماعى أكثر من غيره .

ومن أول المكاسب التى حظى بها وضع المرأة فى الأسرة الإسلامية استردادها لإنسانيتها التى طالما افتقدتها فى المجتمعات المادية والجاهلية قبل الإسلام ، وما زالت تعانى بعده فى مثل هذه المجتمعات صوراً وألواناً من ضياع تلك الإنسانية تحت شعارات خادعة كشعارات تحرير المرأة ، ومساواتها بالرجل فى الحقوق والواجبات ، والنصف المكمل له ، إلى غير ذلك مما قصد به غير معناه اللائق .

فأصبحت مشاركة فى سيادة الأسرة وقيادتها للرجل . بعد أن كانت قبل الإسلام شيئاً من الأشياء التى يرثها الأبناء والإخوان ، عن الزوج بعد وفاته ليبنوا بها أو ليحبسوها حتى الموت دون حق لها الاعتراض أو الدفاع عن إنسانيتها .

وقد أعطاها الإسلام قرارها الذى تقيم مملكتها به وتؤسس بيت الزوجية عليه دون أن ينازعها فيه غيرها ، فهى التى تقبل أو ترفض بمحض اختيارها من يكون أهلا لمشاركتها فى سيادة بيت الزوجية ، وذلك يتم فى ظل عقد علنى يحظى بتقدير الأسر المتصاهرة ، كما يحظى باحترام المجتمع واعترافه بشرعية هذا الزواج ، ومن ثم يعطى المجتمع هذه الأسرة مكانتها اللائقة بها بين أسره .

وإذن فالإسلام لم يجعل الأسرة منذ بداية تكوينها إلا إنقاذاً لإنسانية المرأة من الضياع وتحريراً لشخصيتها من العبودية والمهانة .

فهل استوعب الماركسيون حقيقة ما أسداه الإسلام من خير وفضل للمرأة من خلال تنظيمه للأسرة .

وهل استوعبوا حقيقة العلاقة الأسرية بين المرأة وزوجها ؟ إذن أدركوا وثاقتها ومتانتها فى رعاية تلك المجموعة من الحقوق والواجبات التى تكون محوراً ثابتاً للحياة الأسرية تدور حوله فى توازن دقيق والإسلام من ورائها يمدها بعناصر القوة ومعطيات البقاء ويغذيها بتشريعاته وقوانينه التى لم تغفل أقل الجوانب منها كلما فترت عن الدوران حول محورها أو حدث اختلال ما فى توازنها ، تتمتع المرأة فى جو الأسرة المسلمة بكثير من الحقوق فى مقابل ما يساويها من الواجبات دون أى مساس بشخصيتها بدءاً من مرحلة الخطبة حتى ما بعد أقرب الأجلين - الطلاق أو وفاة الزوج .

وبيت المرأة فى الإسلام هو مملكتها ودنياها التى تكتشف فيها ذاتها وتواجه كيانها ، فهى فيه الزوجة والأم والبنت والأخت . وهى ليست شيئاً من ذلك فى أى مكان آخر على الحقيقة غير بيتها .

ويرفع الإسلام قيمة الأمومة إلى مستوى القيم المقدسة - فيجعل الجنة تحت أقدام الأمهات ، ويجعل عقوقهن ، والتنكر لهن لعظم حقهن ، ويشاركهن فى ذلك الأب ويجعل ذلك الإسلام ذنباً كبيراً وإثماً عظيماً ، وليست الأمومة فى حقيقتها قائمة على عمليات الإنجاب وحضانة الأطفال وتربية أجسامهم بقدر ما هى إمداد للإنسانية بأفضل عناصرها وإثراء للمجتمع بخير مقوماته وهم رجاله وبناة نهضته وحضارته . فالأم فى بيتها ليست مربية أطفال إنما هى صانعة الرجال وحارسة وأجيال .

والإسلام لا يحرم على المرأة العمل خارج بيتها ؛ لكنه يسمو بها كما هو شأنه معها دائماً عن أن تكون متطوعة به ، فيكون صارفاً لها عن مهمتها الأساسية فى بيتها لغير ضرورة وطنية أو موجب اجتماعى .

والشيوعيون وأمثالهم من دعاة الهدم والتخريب يزجون بالمرأة فى متاهات العمل بعيداً عن بيتها وأسرتها باسم حقها فى العمل ومساواتها بالرجل فى فرص التقدم ، وما ذلك فى الحقيقة إلا معول يحطمون به قوام البيت ويهدمون به كيان الأسرة ، فيحطمون ويهدمون بذلك كل القيم الفاضلة والمبادىء الكريمة التى تنبع من هذه المؤسسة الهامة .

والشيوعيون قبل غيرهم من الماديين لا يريدون أن تسود غير القيم المادية ، أما القيم المعنوية فهى تابعة لها .

وإذا كان الإسلام قد منح الأسرة كل هذا الاهتمام وأضفى على جوها كل هذه القدسية ، فإنما ذلك لما ينشأ عن دورها من مقاصد وغايات دينية واجتماعية كثيرة ، لعل من أبرزها ما تمد به مجتمعه من كثرة متلاحقة من أبنائه وشبابه الذين هم عدته الحقيقية وقوة شوكته .

والناشرون لمبادئه ، والزائدون عنه مكايد خصومه وشرور حساده وأعدائه فهم ذخره فى أعين الأمم وموازينها . (تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة) ثم إن الإسلام فى عنايته هذه بنظام الأسرة إنما يعنى بسلوك فطرى ونظام طبيعى لا يقوم على سبب من ملكية أو علاقات إنتاجية . وإلا فكيف هديت إليه أصناف الحيوانات وطوائف الطيور ؟

ولعل ذلك هو ما يوحى به التعبير القرآنى الذى أورد أمر تكوين الأسرة فى معرض الخلق والجعل من الله وما يوحى به جعل الزوجة جزءاً من طبيعة الزوج وبضعة من نفسه حتى لا يكون معها كائناً غريباً تلم به الوحشة أحياناً ويستبد به الخوف أحياناً أخرى ، وإنما هى مصدر سكن وراحة ومودة وحب لزوجها الذى هـــو بعض كيانها وبضعة من روحها .

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[1] .

« والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنـــون وبنعمة الله هم يكفرون »[2] .

ولإن كانت بعض المجتمعات الهمجية والبيئات الفوضوية التى كان لها وجود فيما قبل التاريخ لم تكن تعرف الحياة الأسرية المنظمة فإنما يرجع ذلك إلى أن هذه الجماعات قد خالفت كل منهج لأى نظام معترف به لقيام المجتمعات الإنسانية ، إذ النظام والفوضى أو الهمجية نقيضان لا يلتقيان ، ولا ينبغى لمجتمع حضارى أو لأصحاب مذهب يزعمون أنه تقدمى إصلاحى كالشيوعيين فى مقياس من المقاييس أن يجعلوا الهمجية أو الفوضى فى العلاقات الأسرية غاية وهدفاً يبذلون فى سبيل تحقيقه كل مرتخص وغال .

---

(١) سورة الروم : آية ٢١ . (٢) سورة النحل : آية ٧٢ .

فالمصير إلى مثل هذا الشكل من المجتمعات — مع التجوز فى تسميتها بالمجتمعات يعد انتكاسة حضارية وسلباً لكل ماجنته الإنسانية فى عصورها المتباعدة من ثمرات طيبة لنظام الأسرة والحياة الأسرية .

والإسلام فى بنائه لمجتمعه يبدأ من الأسرة ، فيوفر لهـا ما يوفر من الضمانات لكى يجعل منها نموذجاً ومثالا لهـذا المجتمع الفاضل ، ومن ثم فقد ناط بهـا كثيراً من القيم والمبادىء لتكون بمثابة أصـول لحركة المجتمع وانطلاقة نحو السمو والـكمال . فهى أول مدرسة لتعليم أصول الاجتماع وقواعد الأخلاق ، وقبل أى مدرسة أو معهد يتلقى الطفل فى هذه البيئة المحدودة كل معانى الفضيلة ودروس الخير ويحصل على المقومات الأساسية لشخصيته .

ودور الأسرة فى هذا الصدد لاغنى عنه لطفل ولا لشاب مع دور المدرسة أو المعهد والجامعة . وهناك بعض القيم ما لم تكن لتوجد لولا وجود الأسرة ونظامها الذى أقامه الإسلام ، ومنها عـلى سبيل المثال لا الحصر : قيم الأبوة والبنوة والانتماء والعراقة والحسب والزوجيـة والمصاهرة والقرابة ، وغـيرها من القيم التى تعـد ذات أثر عملى فى تكوين النسق الاجتماعى وهـو أشد ما يكون ترابطـاً وتماسكا وأول تلق لدروس التعـاون والإدارة والاقتصاد والتنظيم والتخطيط وحسن القدوة والحرية والديمقراطية . . إلخ .

وأقوى برهان على هذا : تلك الفضائل العامة التى تساهم فى توجيه المجتمع أخلاقياً واجتماعياً ، والتى يعود أصلها وأساس وجودها إلى الأسرة وما يقوم عليه بناؤها من علاقات وروابط .

فالرحمة مأخوذة من الرحم وهو القرابة فى الأمهات والآباء .

والكرم مأخوذ من الأصل العريق المنزه عن الأخلاط والأوشاب .

والحرية أيضاً تفيد هذا المعنى بعينه ، فيطلق وصف الحر على النسب الخالص من الهجنة والعبودية .

والعزة تطلق على الأسرة التى لا تغلب لكثرتها ، وإنما العزة للكاثر كما قال الشاعر المعتز بقبيلته وقومه .

والشيخ والكبير والرئيس هى كلها كلمات كانت تطلق على الأب الذى تقدم فى السن ، ثم أطلقت على كل متقدم فى جماعة من الجماعات ، حتى أطلقت على الحكيم الفيلسوف ، كما سمى ابن سينا بالشيخ الرئيس .

وإلى العائلة يرجع الفضل فى حفظ كثير من الصناعات التى توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد . وإلى العائلة يرجع الفضل فى عمل العاملين المستقبل وسعى الإنسان لما بعد حياته)[1] .

لا عجب بعد كل ذلك وبعد ما هو أكثر من ذلك مما هو معروف عن أهمية الأسرة وأهمية دورها فى توجيه المجتمع وترابطه ، لا عجب أن يعنى بها الإسلام وأن يرعاها على هذا النحو ؛ لأن الإسلام ما عانقت مبادئه الدنيا إلا لينشر فيها العمران والسلام والوئام وسائر مبادىء الخير والفضيلة ، وليبقى على كل مواريث الإنسانية الكريمة والنافعة ، فليفعل الشيوعيون وغيرهم ما شاءت لهم رغبتهم فى التخريب والتدمير

---

(١) أفيون الشعوب ، عباس العقاد ، ص ٤٧ .

لكل مواريث الخير والحق والسلام أن يفعلوا ، ولينقموا ما شاءوا وما شاءت لهم شهوة النقمة على ماضى الإنسانية من حيث هو ماض بحجة أنهم المستقبليون ، والمستقبل هو التقدم والماضى هو التأخر بكل ما فيه من غث وثمين ، وشر وخير .

وكذبوا ، فما أرادوا إلا الانتصار للمستقبل المادى ، ومارغبوا إلا فى تغليب الجسمية وتحكيم البطن وإعلاء الشهوة الحيوانية .

تم بحمد الله الكتاب الأول

المراجع

١ ــ أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة ومعضلات الاقتصاد حلها ـ أبو الأعلى المودودى ـ تعريب محمد عاصم الحداد ـ الدار السعودية للنشر .

٢ ــ أسس المجتمع الإسلامى والمجتمع الشيوعى دراسة مقارنة ـ د . زيدان عبد الباقى . ط السعادة .

٣ ــ الإسلام والشيوعية ـ د/ عبد الحليم محمود ــ دار التراث العربى ــ القاهرة ١٩٧٥م .

٤ ــ الإسلام والعصر الحديث ـ وحيد الدين خان ـ ترجمة ظفر الدين خان ط المختار الإسلامى للطباعة والنشر القاهرة الطبعة الأولى ١٩٧٦م .

٥ ــ الإسلام فى وجه الزحف الأحمر ــ محمد الغزالى نشر المكتبة العصرية ـ بيروت .

٦ ــ الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة ــ أبو الأعلى المودودى ــ تعريب جليل أحمد الحامدى ـ ط دار القلم الكويت الطبعة الثالثة ١٩٧٨ .

٧ ــ الإسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان ـ ترجمة ظفر الإسلام خان ــ مراجعة وتقديم د/ عبد الصبور شاهين ـ المختار الإسلامى ـ القاهرة ـ الطبعة السابعة ١٩٧٧ م .

٨ ــ الإسلام لا شيوعية ولا رأسمالية ـ العمل والعمال ـ البهى الخولى ـ الطبعة الثانية ـ دار القلم ـ بيروت سنة ١٩٥١ م .

— الله يتجلى فى عصر العلم ترجمة د/ الدمرداش الطبعة الثالثة - مراجعة د/ محمد جمال الدين الفندى .

— الإنسان فى ظل الأديان - د/ عمارة نجيب - مكتبة التوفيقية بالقاهرة سنة ١٩٧٦ م .

— الإنسان فى ظل المذاهب الوضعية - الجزء الأول [الماركسية] الدكتور عمارة نجيب - مكتبة التوفيقية سنة ١٣٩٦ م .

— أفيون الشعوب المذاهب الهدامة - عباس العقاد - الطبعة الثانية المكتبة العصرية ببيروت .

— البراهين العلمية على وجود الخالق - محمد فؤاد البرازى . الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ - ط دار القلم ببيروت .

— التاريخ السرى للعلاقات الشيوعية الصهيونية — نهاد الغادرى — دار الكتاب العربى ١٩٧٠ م .

— التفسير الإسلامى للتاريخ - د/ عماد الدين خليل - دار العلم للملايين - بيروت سنة ١٩٧٥ م .

— تهافت الفكر المادى التاريخى - د/ محمد البهى - مكتبة وهبة سنة ١٣٩٥ هـ .

— الثورة العربية الاشتراكية وعلاقتها بالغزو الشيوعى والصهيونية — محمد عزت نصر الله . دار الكتاب العربى .

— حرب الأكاذيب - عامر العقاد - مطبوعات الشعب سنة ١٣٩٧ م .

— حقيقة الشيوعية على أدهم . المكتب المصرى الحديث ١٣٨٧ هـ .

- حكم الإسـلام فى الاشتراكية - عبد العزيز البدرى - الطبعة الثانية ١٩٦٥ م نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .

- حوار مع صديق الملحد - مصطفى محمود - مطابع روز اليوسف سنة ١٩٧٤ .

- حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون - عبد الحليم خفاجى المحامى - نشر مكتبة الفلاح - الكويت الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٩ م .

- الشيوعية بعد خمسين عاماً من التجربة (أقوال وتصريحات لخروتشوف وكوسيغن وبرجنيف مستخرجة من تقارير رسمية) جمعها الدكتور سعيد العالم - ط دار الكتاب الجديد - بيروت .

- الشيوعية والإسلام . عباس العقاد - أحمد عبد الغفور عطار - الطبعة الثانية سنة ١٩٧٢ م دار الأندلس بيروت .

- الشيوعية والإنسانية . عباس العقاد . الطبعة الثانية سنة ١٩٧٩ م مطابع دار الشعب .

- شبهات وانحرافات فى التفكير الإسلامى المعاصر . توفيق على وهبة الطبعة الثانية سنة ١٩٧٨ ط العالمية .

- الشيوعية والشيوعيون فى ميزان الإسلام - الدكتور عبد الجليل شلبى . دار الشروق سنة ١٩٧٦ م .

- الدين فى مواجهة العلم . وحيد الدين خان . ترجمة ظفر الإسلام خان . مراجعة عبد الحليم عويس الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٨ . المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة .

– صراع مع الملاحدة حتى العظم . عبد الرحمن حسن حبنكه الميدانى – الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ ط دار القلم ببيروت .

– عقائد المفكرين فى القرن العشرين – عباس العقاد – نشر دار الكتاب العربى – بيروت – الطبعة الثالثة .

– العلم يدعو للإيمان – تأليف كريس موريسون – ترجمة محمود صالح الفلكى . تصدير فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى ، تقديم الدكتور أحمد زكى . الطبعة الخامسة سنة ١٩٦٥ م ط النهضة المصرية .

– الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام – د/ عبد الستار فتح الله سعيد – الطبعة الثانية ط المعارف – الرياض .

– فى الاشتراكية العربية – د/ صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق – الدار القومية للطباعة والنشر .

– فتاوى عن الشيوعية – د/ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر دار المعارف بمصر .

– الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى – د/ محمد البهى – الطبعة الثامنة ١٩٧٥ نشر مكتبة وهبه بعابدين – القاهرة .

– ماركس والخالق – جلال الجراجس – مكتبة النهضة – بغداد .

– المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها – أبو الأعلى المودودى – تعريب خليل أحمد الحامدى ط دار القلم – الكويت – الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٨ م .

– مذهب ذوى العاهات – عباس العقاد ، الطبعة الأولى – ط الفنية الحديثة سنة ١٩٧٧ م .

— المخططات الاستعمارية لمكافحة الإســلام ـ محمد محمود الصواف ـ دار النصر للطباعة .

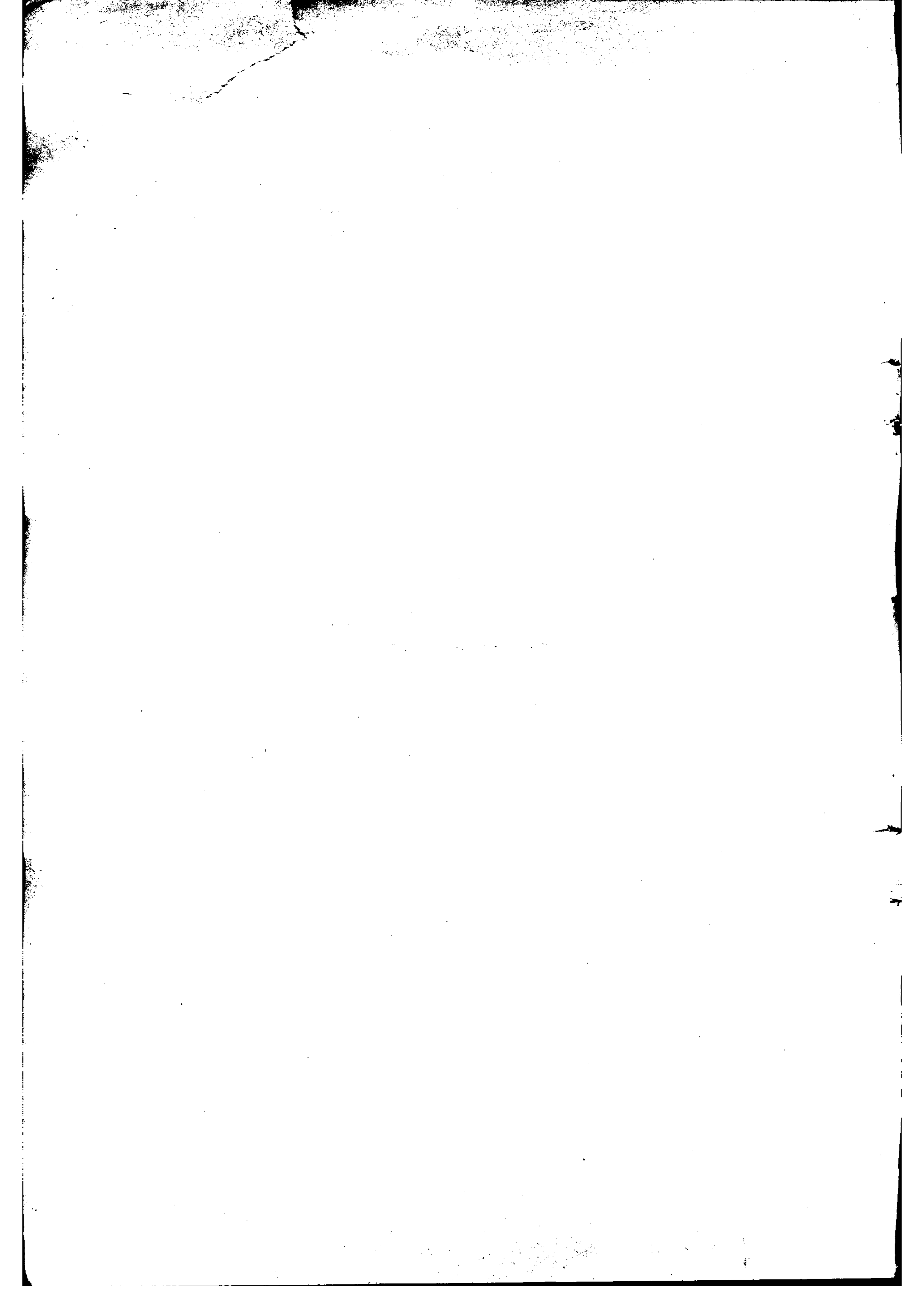
— المسلمون فى الاتحاد السوفييتى ـ تعريب إحسان حق ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت الطبعة الأولى .

— نظرات إسلامية فى الاشتراكية الثورية — د/ معروف الدواليبى — دار الكتاب الجديد بيروت .

— نقض أوهام المادية الجدلية الديالكتيكية ـ د/ محمد سعيد البوطى ـ دار الفكر دمشق ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٧٩ م .

الفهرس

الموضوع	الصحيفة



دار الهدى للطباعة
٣ ش الخلاوى بالسيدة زينب

(رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨١/٣٨٤٩)